هاني الراهب

خضراء كالبحار

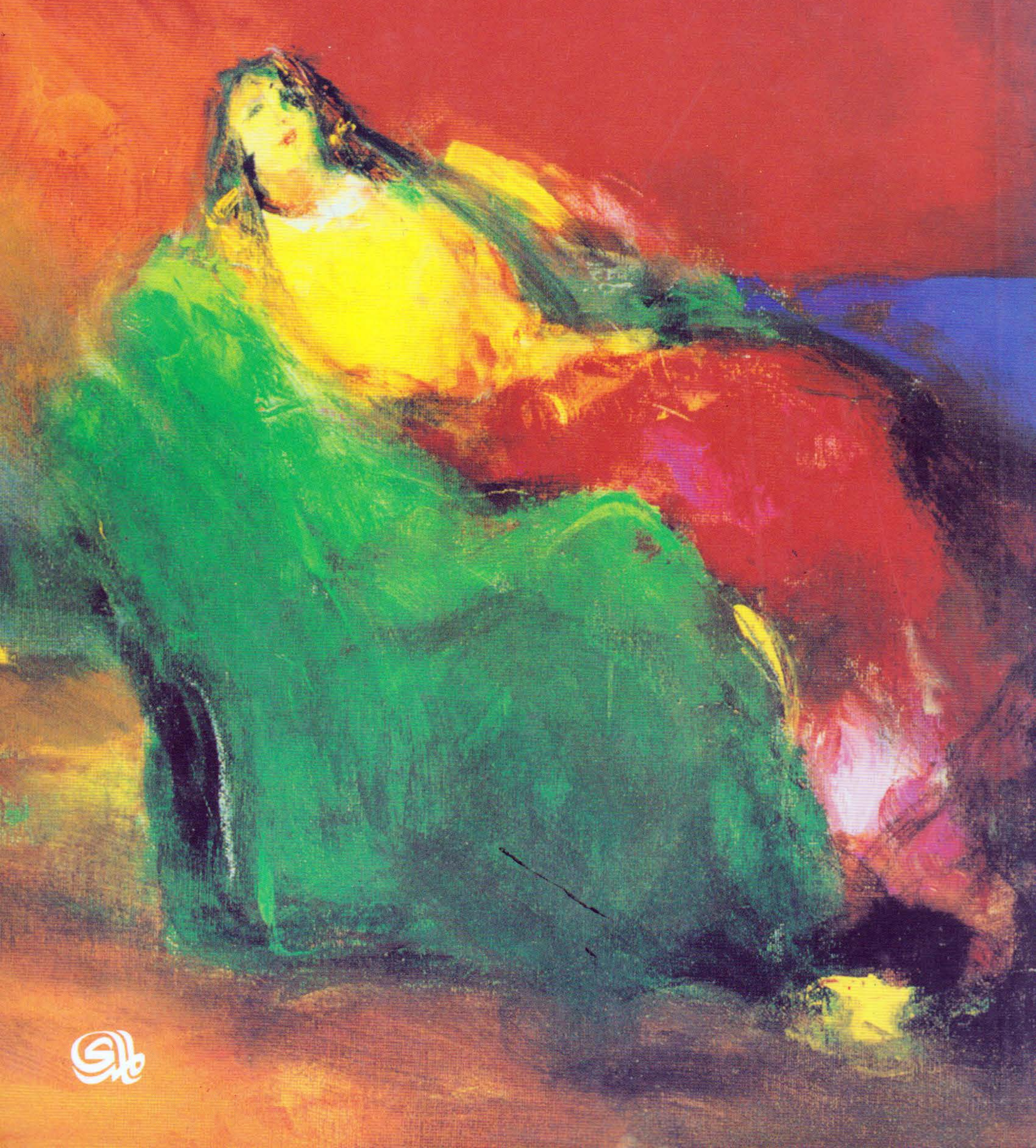

خضراء كالبحار

منشورات

٧٢ | المدى | الرواية

Author : Hani Al-Raheb
Title : Green as The High Seas
Al- Mada : Publishing Company
First Edition 2000
Copyright © Al-Mada

اسم المـــؤلف : هاني الراهب
عنوان الكتــاب : خضراء كالبحار
النــاشـــــر : المدى
الطبـعـة الأولى : ٢٠٠٠
الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٦٨٦٤ - ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada : Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means , electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

هاني الراهب

خضراء كالبحار

إلى تموز

الفرح الجميل الصادم

في دمي

هاني

الفصل الأول

الهيولى

عادياً تماماً كان ذلك الصباح الذي التقى فيه نورما وفراس . شمس ساطعة وغيوم تتدافق فوق البحر . وعلى منتصف الجدار المواجه للمصعد لافتة مجللة بالسواد : " أسرة العاملين في مجلة (مواسم) تشارك الزميلة نورما البدر حزنها على وفاة والدها المدير العام عبد المجيد البدر . "

توقف وقرأ اللافتة . أجل . عبد المجيد البدر . المدير العام لوزارة الدفاع ذو الشخصية المهيمنة الذي أرسلته الحرب الخامسة مثخناً بالجراح إلى مشفى المواساة في بلدة جسريّا ، فرقد هناك ومات . أب آخر يموت ، قال لنفسه . وعندها أحس بقدوم اثنتين من الممر الأيسر .

تفحصته نورما في وقفته ، بينما هي تقترب مع سميرة عبر الممر . هو ذا شخص آخر ينضم إلى قافلة المتعاطفين المجانيين ، وليس لديه سوى الكلمات ، يقولها ويمشي .

اقترب فراس . وهيأت نورما وجهها الهادئ لتلقي الكلمات . توقف ثواني قبل أن يمد يده وأن تسعفه اللغة . رأى أن وجهها محتاج إلى إعادة تكوين . عيناه وشفتاه عالم من الإيحاء والولادة ، ووجهه وذقنه سطح من

العطالة والشرانق . ثم شد على يدها وقال : " أنا لم ألتق بالمرحوم ، لكني أعرف أن غياب رجل مثله يحزن حتى الذين لم يعرفوه . "

كلاهما فوجئ ببساطة الكلمات وقوتها . تمتمت نورما مفردات وحاولت أن تطفو بها على لجة حزن مفاجئة ، وانشغل فراس بفكرة أنه يرى هذه المرأة للمرة الأولى رغم منتي مرة سابقة .

ذلك مضى في اتساع البهو وغمغمات سميرة . ثم امتصته همهمات الآخرين وحركاتهم .

انطفأت اللحظة الخاصة قبل أن تحرك ركوداً بينهما عمره سنوات . عاد كل منهما إلى أمان متاريسه الشخصية المعتادة ، وتدرأ بها من شرك الاهتمام بالآخرين .

كانت الحرب قد انتهت على الأرض . أما ما بعدها ، بالنسبة لنورما ، فكان أباً أدركته الوفاة ، وبالنسبة لفراس بلاداً عاجلتها المنية . كل خاص ، وكل عام ، انتثر أمام أعينهما على أرض باردة . وعبر هذا البوار غاب كل منهما في تلافيف المدينة .

لا تذكر نورما ولا فراس متى ، أو كيف ، أو أين التقيا للمرة الثانية بعد المئتين . غير أنهما اكتشفا بعد ستة أشهر أن ذلك الميعاد الذي غاب عن ذاكرتهما خلال ساعات ، كان برهة فصلت بين عمر مضى وعمر جاء .

عادت بعد الظهر إلى فيللا أبويها . لم تكن تتوقع أي جديد . انهمكت في شغل البيت بأقصى ما تستطيع ، وأعادت ترتيب أشياء كانت قد رتبتها قبل حين . وحكت لأمها أثناء ذلك عن الناس الذين قابلتهم في النهار ، وعن أحد المعارف الذي لامست كلماته غير المتوقعة مكامن الدمع في عينيها .

لم تنقطع الأم عن التحويم حول غرفة نومها القديمة . امرأة في الخامسة والخمسين تبحث في أشياء زوجها وصوره وملابسه عن ثمانية وثلاثين عاماً مضت .

قالت نورما : " ما ما ! بصراحة أنت لاينفعك الدخول إلى هذه الغرفة . قبل يومين نقلناك إلى المستشفى . "

هزت الأم رأسها موافقة وخرجت إلى الشرفة . وعندها أدارت نورما مقبض الباب قليلاً . لقد بدا لها الأمر كما لو أن المدير العام متمدد على كرسيه المألوف وراء الباب ، ينتظر دخولها ليجلسها على فخذه ، هي التي لم تبلغ من العمر بعد سوى خمسة وثلاثين عاماً ، ويداعب شعرها ويربت على ظهرها ، ثم يتركها تربط ذراعيها حول كتفيه وتمط ساقيها فتقول : " أهكذا تموت يا بابا وتتركنا ؟"

قرع جرس الباب . جاءت أولى الأخوات ، معها أولادها . ثم هبط بهجت من شقته في الطابق الأول ، ومعه زوجته وولداه . خلال دقائق استطاعوا أن يبدلوا إيقاع الحزن : كان صامتاً راكداً فأمسى صائتاً سائحاً .

أقبلت الأخوات الأخريات وأولادهن . والأخ الثاني وأولاده . والخال نعمان وزوجته وولداه ، من شقتهما في الطابق الثاني . لملمت نورما شذرات نفسها . أفسحت أمكنتها للأولاد ، الذين هتفوا إذ ركضوا إلى " خالة نورما " و " عمة نورما " . ستة عشر ولداً وبنتاً كل منهم يحس أن حظوته عندها لا تنازع . هؤلاء اقتحموا خصوصيتها هي . وكانت متلهفة لهذا التعدي .

فككت حركة الأولاد الحزن عن صدر أمها . وكذلك أحاديث الكبار . كلمة من هنا ، وكلمة من هناك ، حركة هذه والتفاتة ذاك ، وإذا بلغة الحزن السارحة تتلاشى من رأس أمها وتنقشع . هي تعرف . منذ الوفاة لم تكف

الأم عن مخاطبة ذلك الراحل ، فكأنه أجّل رحيله ساعة أو ساعتين ، أو قرر أن يعود وإياها إلى ليلة زفاف مضت ، وكانت هي في السابعة عشرة .

في حوالي الحادية عشرة انتزعت نورما أمها أخيراً خارج حزنها . وها هي ذي أم بهجت تقترب من ابنتها بابتسامة حب ، وتغمغم لها : " مالك يابنتي ؟ أنت لست معنا اليوم . "

ابتسمت نورما للمفارقة الغريبة . حقاً إن أمها في حالة غير طبيعية . كانت جاثية قرب المنضدة الصغيرة . التفتت :" أنا ماما ؟ "

هزت الأم رأسها قبل أن تجيب : " إي ماما . أنت . أغلب الوقت كنت غائبة عنا . "

ظلت نورما تبتسم . نهضت . لن تناقش أمها في هذا التوهم . فقط تناولت يدها وقبلتها .

قالت الأم : " أي شيء حكايتك ؟ قلقة على مهند ؟ "

ضحكت نورما ضحكة طفلة مذنبة : " مهند ! بصراحة لم أتذكره اليوم كله . "

" ما معك حق . مهند زوجك . "

لم يكن من عادة المرأتين أن تطرقا الأبواب المكتوب عليها : ممنوع الدخول . وقد أحست الأم أنها طرقت أحدها . وأحست نورما أنها فتحته قليلاً . ورأت الاثنتان أن ذلك يكفي وأن الوقت قد حان لتوصداه .

لم يكن بوسعها أن تنسى " أن غياب رجل مثله يحزن حتى الذين لم يعرفوه ." لكن ضجيج أهلها وأولادهم استمر في الأيام التالية يهاجم تلك العبارة ويمنعها من الانتشار . إنهم عالمها الذي لا يعوض . في شيخوختها سيكون أولادهم وأولاد أولادهم من سيؤنس وحشة حياتها .

أخر الليل تمتمت لها أمها : " اليوم أتقنت تمثيليتك يا زعبرجية . "

فراس ونورما . التقيا في المجلة بانتظام . وغالبا ما كانت سميرة تنضم إليهما منذ البداية ، أو متأخرة قليلاً . كان لدى المرأتين نسقان عقليان مثيران . معظم الكلام خرج من حلق سميرة . فيض من الشروح والتفاصيل والاحتمالات والمناقشة ، ثم إعلان لنتيجة حاسمة لا تقبل النقض . وعندها تنطق نورما بعبارة مبتسرة أو نصف عبارة ، تلتفت إليها سميرة بشبه انصعاق ، تلملم تبعثرها قليلاً ، ثم فيض جديد من الشروح والتفاصيل والاحتمالات والحجج .

ثم اللحظة الحرجة : تلتفت الاثنتان إلى فراس تطلبان رأيه . أليس اقتراح سميرة أفضل لشكل المجلة ؟ أليس اقتراح نورما افضل لتركيز المواد والاقتصاد في المساحات ؟

وفراس لا يحب أن يحشر . وخاصة بين أنثيين تطلبان رأيه في خلافهما . كان يعود مباشرة إلى مهاجع روحه الداخلية غير مكترث بأي شيء . لا يعيش المرء نصف قرن ثم يظل عرضة للتشربك في نرجسيات النساء : سميرة التي تآخي معها الرجال ونورما المطوبة باسم زوجها كالقديسات باسم المسيح .

وهو الذي تفرس في كل شيء تقريباً ، ثم وجد أنه في المآل وحيد كذئب البراري . أحب خمسين مرة . تزوج ثلاث مرات . صار أباً ست مرات . سافر ألف مرة . رسم مئتي لوحة . صنع أربعين تمثالاً . شرب ألف نخب . كبر ابناه وابنتاه . . . وأخيراً اختار أن يعيش في مرسمه . هناك في الضاحية الجبلية للمدينة ، التي كانت قبل مئتي عام وجاراً فعلياً للذئاب الحقيقية .

خلال شهر أيلول وجد نفسه أقل قدرة على التوليف بين المرأتين ، وأكثر تقبلاً لآراء نورما ومقترحاتها . تلك هي تقلبات المزاج ودوراته على الأغلب . ولحسن الحظ كانت سميرة ديمقراطية حقاً ، فتقبلت غلبة رأي زميليها . وكانت نورما كيّسة وحساسة فتابعت الشغل دون أن يبدو عليها الانتصار .

عند أي مفترق أو منعطف أو ساحة أو باب ، ياترى ، التقي وجدان الذئب المتوحد ووجدان القديسة المطوية ؟

ربما عندما جعلتها صدفة عادية يجلسان وحيدين بعد أن تركتهما سميرة قبل الأوان . أغمضت نورما عينيها بضع ثوان ثم فتحتهما ، وافترت شفتاها عن ابتسامة وانية . فهم فراس أنها لا ترغب في الحديث عن أبيها . استراح من عناء المجاملة . بل لم يشأ أن يفرض عليها أي حديث . بالنسبة له ، الصمت الثقيل أخف وطأة من الحديث الثقيل . وهو لم يكن يخاف الصمت .

لكن نورما شرعت تقول : " يا أخي مشكلة . الحرب وانتهت . وكل الناس رجعت إلى مواقعها . بقي مئة واحد فقط لا غير . بينهم مهند . حتى الآن يرفض الإسرائيليون إطلاق سراحهم . "

كان مرفقاه على الطاولة ، وأصابع يده تلطم قلماً بالورق المفروش أمامه : " مهند هو زوجك طبعاً . " نظرت إليه مندهشة :" ألا تعرف ؟ "

أطبق شفتيه على نصف ابتسامة ممطوطة . ثم قال : " ليس هذا هو النقص الوحيد الخطير في معارفي . " ثم هز رأسه وأصابعه : " إذا رسمتك يوماً ، سأضعك داخل شرنقة نبيذية . " . . .

. . . أو ربما في مكتبه ذات صباح ، عندما اقتحمت نورما الباب وبرفقتها مانسة حمدان . كان قد جاء منذ السابعة صباحاً ، متوقعاً هطول المطر . فتح نافذة المكتب للريح والضباب السارحين فوق البحر . ثم شغل مسجلته اليدوية على إفريز النافذة . لأول مرة ترى نورما نفسها بهذه الحيوية . ولأول مرة يراها هو كذلك – هذه التي تمشي وكأنها توشك أن تسند ذقنها على صدرها . دقت الباب ودخلت دون أن تنتظر الإذن ، كأنها شطر من تلك الريح . يدها تسحب وراءها يد مانسة المتلكئة .

قالت مانسة : " عرفت بالصدفة أنك تساعدهم في تصميم المجلة . قلت هذه فرصتي لأخانقك . يا أخي ، يعني أنت تحتقر الناس ؟ ما هذا المعرض الذي عملته ؟ رحنا عند الكوافير ! واشتريت تنورة جديدة ! وتعطرت ببوشيرون ! وكله لأتفرج على تمثال واحد ؟ تمثال واحد يا أستاذ ؟ مو معقول أبداً . "

كان مرفقاه على المكتب وأصابعه تعبث بقلم . تحركت شفتاه بابتسامة فقط . وفيما مانسة تجلس على الكرسي ، شاهد وجه نورما منصرفاً إلى المسجلة .

التفتت إليه برغد حقيقي : " كونشرتو البيانو الثالث لبيتهوفن ، مقام سي مانور ، أوبوس ٣٧ ، بقيادة فون كارايان . " وإذن فالقديسة خبيرة موسيقا كلاسيكية . وللتو تلاشت مانسة . . .

. . . أم في ذلك الضحى وهو واقف أمام مبنى المجلة ، ونورما ترقى الدرجات وتقترب منه بوجه مجامل . لم يكن الجو بارداً . سوى أن الغيوم ارتحلت فوق وجه السماء وأوحت بمطر وشيك . حيته بابتسامتها قبل أن تصل وتحييه بـ " صباح الخير " المقتضبة . ولاحظ انفراش شفتيها في دائرة ،

وامتلاءهما امتلاء يتكتم على كلمات ما . ولاحظ أن عينيها أطلقتا انطباعة تلك الكلمات وليس معانيها .

لم تر ضيراً في شيء من الكياسة الاجتماعية : " تنتظر شيئاً ، أحداً ؟" سألته وهي تقف أمامه بهزة قدم خفيفة . حرك رأسه بالنفي : " لا شيئاً ولا أحداً . أفحص هذه السيارات لأختار التي سأسرقها لأروح بها إلى كلية الفنون الجميلة . " ولكن أين هي سيارته ؟ في المستشفى .

" تعال . " قالت ، واستدارت ، ومشت دون أن تنتظر جوابه . دخلت السيارة وشغلتها ، ونظرت عبر النافذة الثانية إلى فراس المقترب .

أدخل رأسه من النافذة الثانية ، متضايقاً وليس فقط محرجاً : " مدام نورما ! وحياتك أنا ممكن أمشي إلى كلية الفنون مشياً . نصف ساعة بالكثير . وأنا محتاج إلى تذويب كرشي . " وخبط على بطنه .

" اطلع أستاذ فراس . كرشك ! كيف لو رأيت كرش مهند ؟ ووزنه ؟ ٩١ كيلو ! "

دخل . لحظة نقلت مدرج السرعة ضبطت عينيه وهما تستقران على ركبتيها ، ثم تنزلقان عنهما . كانت لابسة كولون غامقاً ، تحسباً للبرد ، وحمدت الله أن غمق اللون قد حمى ركبتيها .

شعورها بالاطمئنان إلى هذا الرجل المتلبك الغريب ، الأقصر والأصغر حجماً من مهند ، جعلها تحس بالتهديد . انكمش في مقعده كأنه بلا لغة ولا أنتينات ، ومع ذلك أحست هي أنه يصادر أمواجها ، يقترب منها اقتراباً مقلقاً . قبل أن تنطلق ، أغمضت عينيها وضغطت بإصبعها الوسطى على حاجبيها . هذا الحزن ! لم يستطع أن ينزل دمعة واحدة . فقط لخبط عقلها . وضعها على مفارق الموت وتركها هناك .

فراس نصار نكرة مطلقة بالطبع . كيف يخطر لها أنه ينظر إلى ركبتيها ؟ وماذا يعني ذلك في مدينة تحفل شوارعها الممطرة بلابسات الشورت والميني جوب ، والأعين الناظرة ؟

قال فراس : " بك شيء ، مدام نورما ؟ "

التفتت إليه . أوشكت أن ترسل ابتسامة إشفاق . تلبست نظرته وجهها . كانت حيادية تماماً . انطلقت السيارة وأحست نورما أن المطر الذي همى مدراراً قد حمى ركبتيها هو الآخر . لقد شردت عينا فراس وغابتا عبر تلك الخطوط المتقطعة . لكنه وحق السماء يعرف كيف ينظر إلى ركبتيها فيما هو ينظر إلى المطر .

قالت : " يا أخي مشكلة في هؤلاء الإسرائيليين . مهند ضابط ، بس هو ضابط مهندس . لماذا يحجزونه وهم لا ينقصهم المهندسون ؟ " ثم أضافت : " يمكن لأنه حلو المعشر . مهند معشره حلو ، رغم كرشه وسمنته . حلو الحديث . رجل عائلة وبيتوتي . يريدني أن أترك المجلة ونهاجر إلى كندا . كيبيك . هو مهندس خطير . وهو يقول لي : ما حاجتنا لشغلك في المجلة ؟ نحن ميسورون والحمد الله . وعندنا بيت صغير في بوردو بفرنسا . خلينا نعيش حياة عائلية كاملة ، وتكونين مكرسة لي تماماً . مع أنه لا ينقصه شيء . ما رأيكم أستاذ فراس ؟ "

تحرك فراس في جلسته طلباً لشيء من الصبر . قال : " مكرسة له أم مكرس لك ؟ "

" مكرس لي ؟ اسم الله عليك ! " وأضافت : " لا يبدو أنهم سيطلقونه بسرعة . شخصية مهمة ، مهند . ما رأيك أستاذ فراس ؟ " .

رد فراس باقتضاب مداعب : " وصفت لي زوجك بدنياً ، ثم وصفته فكرياً . "

صمتنا بقية الطريق . كان شيء ما يلفلف عقلها في تلك الآونة . لم تستطع سوى استبقاء عبارات فراس الغريبة حتى المساء . وعندما قدمت لأمها فنجان قهوة بالحليب ، كانت ما تزال تردد لنفسها : مكرسة له أم مكرس لك ؟ . . .

. . . أم في ذلك الليل ، عندما دفعتها الأسئلة إلى أن تتصل به هاتفياً . أسئلة ، أسئلة . بدأت بالسؤال الأول ، البدائي البدائي : وماذا بعدك أيها المدير العام عبد المجيد ؟ وفي جلساتها المسائية مع أمها وأخواتها وأخويها وخالها وأولادهم . . . عالمها الذي لا يعوض . . . ملاذ شيخوختها . . . توافدت أسئلة أخرى .

أهذا هو حقاً كل حياتها التي عاشتها حتى لحظة أعلنت سهام أنها اشترت لـ " بسومة " لعبة جديدة ؟ كان أخوها ، الشبيه بمهند تماماً من هذه الناحية ، يتسرق النظر إلى التلفزيون ليتابع مباراة كرة القدم . فجأة تلك العبارة البلهاء المسطحة : الوقت بدل الضائع . هزت رأسها بابتسامة ساخرة . في الرياضة لا يسمحون بوقت ضائع . أما في الحياة . . . ثم أطلقت زنخرة قصيرة متهكمة . إنها تسأل أسئلة خرقاء كتلك التي تسألها بطلات فرانسواز ساغان وليلى بعلبكي .

أمرت عقلها فطرد الأسئلة . وعادت إلى أوتاد عالمها الحقيقي الأصيل . استعادت حسها بأنها الابنة القوية ، التي أرضت خيلاء أبيها بأنها لم تبك منذ بلغت الثانية من العمر ، وكانت عملياً الابن البكر الذي لم تكنه عضوياً .

عندما شاخ المساء ، وملأ الرضا نفسها في كونهم " معها " ، ساورها حس رضي باستعادة روبوتاتها : تقوم بواجباتها المبرمجة بحسب عادات قديمة قديمة ، منقوشة على الخلايا والنبضات ، فكأن نورما هي نورما أخرى . . . نورما الصباحات والأماسي التي تتكرر كل يوم ، التي يجب ألا تنتبه إلى الوقت الضائع ، التي تخلو من الأسئلة . كم روبوت و روبوت يقبع في داخلها ؟ ما مقدار عمرها الذي تتداوله الروبوتات ؟ ما مقدار عمرها الضائع ؟

نهضت إلى الهاتف . كان فراس جاثياً أمام كتلة من الصلصال . أصابعه متهيئة وممدودة ، لكنه لا يعرف أين يغرسها في الكتلة . طوال أيلول وبعض تشرين وهو يعارك رؤيا هبطت عليه ، ثم هربت بعد ذلك من أصابعه .

" مفاجأة ؟ " جاءه سؤالها على الهاتف . قال :" مفاجأة . "

" مزعجة ؟ " سألته ثانية . قال : " مربكة . "

" يا أخي بصراحة ، أنا ما عدت أتحملهم كلهم . إسرائيل والصليب الأحمر وأهلي . أريد الرجعى إلى بيتي . أليس من حقي أن أنام في بيتي ؟ "

" من حقك . "

" أسمع قطعة موسيقا ! أكون وحدي شوية ! أرتاح من قرف الطبخ وشغل البيت . أشوف ماذا أفعل ليرجع لي هذا الرجل ! وأمي تقول : تنامين وحدك في البيت ! "

" وأنت ؟ تخافين وحدك في البيت ؟ "

" لا ! أخاف أن تبقى أمي وحدها ! "

" والله . . . هنيئاً للأم بابنتها وللابنة بأمها . "

" هكذا إذن ! ماذا تعمل ؟ أنا ضجرانة و زهقانة . ومبلبلة شوية . لم تقل لي ماذا تعمل . "

" أحاول أن أرى أين تركت رأسي . "

" هكذا إذن ! طيب . أنا آسفة للإزعاج . بون نوي . " . . .

فيما بعد ، عندما استعادا تلك اللقاءات الصغيرة ، اعتبرا كل واحد منها بداية . كانت هناك عشرون بداية لقصة واحدة .

كان قد هشل في الصباح الباكر إلى الكافتيريا هرباً من تمثاله الذي صار أربع مسودات . وجدها هناك . وكانت قد جاءت هرباً ممن لا تعرف ماذا : بدا لها أن مظلة الصباح الفتي هي أفضل شيء تضعه فوق رأسها على الإطلاق ، فخرجت . لو تبادر إلى ذهنها أنها ستراه محدودباً هناك فوق ورقة رسم ، لما خرجت . حياها من أطراف شفتيه ، واعتذر من أنه سيدير ظهره ويجلس مقابل النافذة . تضايقت : من قال له إن ذلك يهمها ؟ ربع ساعة وهي تراه ممسكاً بقلم سميك ويحاول أن يرسم شيئاً على ورقة مقواة . ولكن الأصابع التي تحمل القلم ظلت غارقة في شعره المنفوش .

بعدها قام . لم يكن في الكافتيريا أحد . . . حتى هي ! مشى وكأنه هائم . فرك شعر رأسه عدة مرات . مشى . وقف أمام الحائط . مشى . عاد . جلس وأدار ظهره .

ثلاث مرات قام وهام في اتساع الكافتيريا . ثم عاد فجلس قبالة النافذة . رمقته من طرفي عينيها بمتابعة وإصرار ، وبرهبة أيضاً ، وبنفور وازدراء . لا عجب أن إنساناً برياً بهذا الشكل تزوج ثلاث مرات وطلق مرتين .

مع ذلك أحست أن ذلك الصباح المخلخل قد كافأها بتلك الدهشة . لأول مرة تراقب تطوح إنسان في مهاوي حالته الإبداعية . لقد أوشك أن يذهلها ، هي ابنة المدير العام ، وهو يدور في أرجاء الكافتيريا ثم يقف وقلمه الضخم يشرئب نحو الجدار . كان تنيناً ، أوشكت أن تشهق لأن ذراعه تحركت في خطوط دائرية ومنعرجة وكسراء ، وكأنها تكاد أن ترسم شيئاً على الجدار خارقة كل ناموس اجتماعي . من يدري ؟ هؤلاء الموهوبون أنصاف معتوهين ، ويمكن أن يضربوا عرض "الحائط " بكل حس سليم .

راقبته بحرية مطلقة . من حسن الطالع أنه لم يكترث بها على الإطلاق . ارتاحت من حساسيات الأمور الشخصية ، وحسابات ماذا سيقول الآخرون لو لم يدر لها ظهره . بل إن غفلته جعلتها ترمقه بنفور وجفلة ، وتتوقع شيئاً يحدث لعقله في أية لحظة . حمداً لله أنها ليست فنانة .

دخلت ميراي في حوالي الثامنة كخرطوم فيل . جزدانها وذراعها يتجرجران وراءها . وبلا أي إبطاء أعلنت لفراس أنه " سوفاج " معاد للمجتمع . وصرخت بانصعاق صاخب : " ألست أكثر الرجال فظاظة في العالم ؟ تدير ظهرك لصبية حلوة مثل نورما ! أحلى صبية في عالم الصحافة . بدل أن تتغزل بجمالها ! من يقول أنك فنان ؟ أنت مرعب ! "

أحست نورما بتقلصات مضنية في سائر أنحاء بدنها . كانت تشرب الشاي ، فتوقف السائل في فمها ، ولم تعد قادرة على أية حركة . حقاً إن فراس لم يرض نرجسيتها ؛ لكنه أعطاها حساً غامراً بالأمان . رأته كاهناً يقيم طقوسه بعيداً عن الناس ، فامتلأت بالحرية من طاغوت الرجال . من قال لهذه الخرقاء ميراي أنها تريد أحداً يتغزل بجمالها ؟

ظل فراس هادئاً . خرجت ميراي حاملة معها شطيرتها وزوبعتها .

استأذن نورما أن يجلس معها دقيقتين . اعتذر : "حقيقة أنا مهروس بمشروع ، وقلت أرسمه على الورق أولاً . ولم أستفد شيئاً . " بعدئذ ، ويا للغرابة ، نطق بما خالجها تماماً من أفكار : " أعرف أنك غير متضايقة . وشكراً لله أن ميراي رأتنا هكذا . "

هزت رأسها بابتسامة رغيدة . إن هذا الكاهن كاهن فعلاً . " لست متضايقة . أنا مرتاحة من أنك لم تهتم بي . لو اهتممت بي كنت أحسست بشيء غلط . "

ثم المساء العائلي من جديد . الاسفنجة الماصة لعصارات الحزن . يغيبون فيدهمها الصمت ؛ يحضرون فيثقل عليها الحضور .

لم تستطع سوى أن تتسلل إلى الصالون الصغير . وقفت في العتم أمام صورة المدير العام المجللة بالسواد . كانت صورة مكبرة فبدت ضبابية . ومع العتم تنزت منها الوحشة والفزع . هذا الوجه هو وجه نورما . هاتان العينان هما عيناها . بكل التفاصيل والتقاطيع . وهي امرأة تعيش الشهور الأخيرة من عامها الخامس والثلاثين . على الوجه الضبابي ترى أعوامها تلك ، كل عام يصير دائرة حولها ، وحول الدائرة دائرة . وهي تقف وسط الصالون . وسط الدوائر . وتهوي على الكنبة .

إنها تبني حياتها الراهنة منذ عشر سنوات . قبل ذلك وأثناءه ، كان المدير العام هو المعماري . حجراً حجراً ، ومدماكاً مدماكاً . بعدئذ جاءها بالنقيب مهند : مهندس ، ابن عائلة ، خلوق ، سمعته ممتازة . وقال لها هذا هو زوجك .

ابتسمت . نهضت وعادت بلأي . أمسكت يدي أمها وتمتمت : " بكرة أنا سأنام في بيتي . "

أين كان فراس يترامى خارج هذا الحزن ؟

إنها شقة صغيرة في بناية المهندسين . رسم خطوطها على الورق قبل عشر سنوات فصنعت له مثلما شاء . وهكذا بقي من الجدران الخارجية خمسها وصار الباقي نوافذ ، ومن الداخلية أنصافها السفلى وصار الباقي آفاقاً صغيرة . مع الزمن أوشكت الآفاق أن تشهق والنوافذ أن تغص بالعتم . لوحة هنا ، جذع هناك ، تمثال ، كتلة . . . لم يشعر بانسداد شقته ولا بغياب نوافذها . ظل يراها وكأنها تقريباً خاوية . التماثيل واللوحات لم تكن تماماً في الشقة وإنما في داخله .

إنها أيضاً مدينة مترامية الأطراف تناوشها الأمواج والجبال . هي شقته الحقيقية . كل تلك الأمكنة كانت موطناً لقدميه . وأيضاً موطناً لخلجاته . ومرسماً . وكان قد أغفل صحبة الناس وآثر صحبة الأمكنة . مئات من الأمكنة اعتبرها ملكية خاصة له . ليس المقاهي والكافتيريا فقط ، بل وأرصفة ومنحدرات ، وشجرة إفريقية كالبرج في ركن القنصلية الفرنسية القديمة ، وآثار فينيقية ورومانية . وكشك لبيع الفلافل والمناقيش ، وآخر لبيع الجرائد ، وساحة يتقابل فيها كنيسة وجامع وسبيل ماء ، خربة معشوشبة ، ناطحات سحاب ، مكتب مقاولات كان يوما غرفة مستشفى ولدت فيها ابنته الكبرى ، سور طويل لسباق الخيول في شارع الاستقلال ، غرفة عالية سكنها ذات يوم وتطل على البحر والخليج . . .

ثلاثة من تلك الأمكنة لم تكن ملكية شخصية له : الشقق التي سكنت فيها عائلاته الثلاث وأولاده الأربعة . لقد كبر أولاده الآن . صار بوسعهم أن ينشئوا معه صداقة غير عاطفية ، يحبوه لأنه فراس ، ويتشاجروا معه حتى المرارة لأنه أبوهم .

لقد فشل تقريباً في معظم الأمور الهامة : أن ينال الدكتوراه لأنه رفض إضاعة وقته عليها ؛ أن ينجح في واحدة من علاقات الحب غير المعدودة ؛ أن يكون مكتفياً مالياً أمام دكاكين تزداد أسعارها كل يوم ؛ أن يقيم شبكة معقولة من العلاقات العامة تمنحه ما تستحق موهبته من اعتراف .

كل مكان من المدينة كان سكنا لفراس نصار . لكن قلب نورما البدر وجف إذ تركت بيت أبويها بعد أربعين الحداد وعادت إلى شقتها . كانت الشقة موحشة بالطبع ، صامتة وخامدة . لكنها مختلفة ويمكن أن تتأنسن لحظة تتعالى نغمات الكونشرتو الثاني لسان صون .

وضعت الشريط . ليلة البارحة أرادت الاستماع له . قالت لأمها : " سأسمعك موسيقا تغسل الخاطر . " لكن أمها تمتمت بعناء : " موسيقا ، نورما ؟ الله يسامحك . " وهاهي الآن تحقق رغبتها المحبطة . يقولون إن عمر الحضارة في هذه البلاد ثمانية آلاف عام . ومع ذلك لا أحد هنا يؤلف موسيقا مستقلة عن اللغة .

استرخت على الكرسي المتطاول الظهر عند طاولة الصفرة . أغمضت عينيها . امتلأ البيت بالنوتات والميزورات والموتيفات السماوية . لم يعد فضاء البيت خلاء بل مساحات مسكونة بالأطياف والروح . فقط عندما كانت في جامعة بوردو ، أمكنها أن تقيم هذا العالم الصغير السعيد : غرفة وملحقاتها ، وموسيقا وكتب وفنجان قهوة ، وكونسيرات ومسرحيات ومعارض . . . حياة أخرى مبترئة من الطبخ والنفخ والذكور .ثم وضع المدير العام يده على كتفها وقال : هذا هو مهند !

مدت يدها إلى سماعة الهاتف .

قال فراس إنه كان يهم بالاستماع إلى بيتهوفن أيضاً . السيمفونية

السابعة والقدر الذي يقرع الباب .قالت نورما إنها تستمع إلى سان صون . قال إن هذا اسم غائب تماماً عن أرشيف ذاكرته . قالت ليس من أحد يستحق خلوده مثل بيتهوفن ، مع أن حبيبها هو شوبان ؛ ولكن لماذا هذه السمفونية بالذات ؟ قال إنه لكي يشق لأصابعه درباً في كتلة يريدها أن تصير تمثالاً لرونالد ريغان . صمتت : رونالد ريغان وبيتهوفن ! كيف يقترن موسيقي عبقري وسياسي ركيك ؟ صمت ؛ هذه المرأة تقترب اقتراباً خشناً من جروح في نفسه لا تحتمل أصابع الغرباء .

قالت : " اتصلت بك لأنك الوحيد الذي أطمئن إليه . أنا محتاجة لشخص مختلف أحكي معه بصراحة . وأنت لا تسعى وراء غايات . "

" كلامك صحيح يا مدام . وهذا لا يعني أنك لا تستحقين الإعجاب . "

" هكذا إذن ، " هتفت بغبطة باردة .

اندفع من داخلها شيء لم تعتد عليه وجعلها تتمتم : " بصراحة أنا ما عدت قادرة على أني أبقى في الأمكنة . . . وعارف كيف ؟ . . . الأمكنة التي عشت فيها ثلاثة أرباع عمري يا أخي . وصار خلقي يطلع من عاداتي التي تعودتها . . . هل تصدق ؟ أحياناً أحس بالخوف من هذه الأمكنة والعادات . تصور ! مع أني بدونها أضيع . "

هيأ فراس نفسه لاستماع طويل . كانت المدينة قد درزته ذلك النهار بحس كاسح بالغربة . حيثما توقف أو تحرك ، أحسن أن المكان يجحده . خمسين عاماً وهو يمشي على الأرصفة ، يخترق الشوارع ويسربل الجدران والأشجار والفضاءات بوشائج القربى . فجأة ، طول النهار : هذا الجحود .

استمر حديث نورما عن أمها وأهلها وأولادهم ربع ساعة . ومشترياتها

ومساحات سيارتها . وبالطبع ، مهند الذي لا بد منه . ثم أحست بكربة فراس . وبالاطمئنان لغياب الأمور الشخصية بينهما . " أنا ممنونة لك جداً هذا المساء . لا أعرف لولا حديثي معك ماذا كان سيحل بي . " وقبل أن تصبحه على خير قالت : " غداً آتيك بشريطين لسان صون . . . واسمع موسيقا!"

التقيا بعد أيام في مكتبه بالمجلة . كان جالساً بصحبة مسجلة الجيب عندما فتحت الباب ووقفت : " بونجور ! " ومدت الشريطين له . تأملها أمسح الوجه . لم تدخل . نهض بسرعة مؤدبة ، وأيضاً بضيق متخف . ثقلت عليها حركته البطيئة .

أول الليل اتصلت به . هل أعجبه سان صون ؟ . . . ولدرجة أنه تمنى لو يتصل بها ليشكرها ؟ . . . ما الذي منعه من الاتصال ؟ . . . أنه لم يستأذنها به . . . ياعيب الشؤم ! . . . وأيضاً أنها لم تعطه رقمها . . . يا للعجب ! فليأخذ هذا الذي ليس رقم الملكة إليزابيث .

تتالت الهواتف . صارت يومية . وظهرية ومسائية أحياناً . وتتالت الأشرطة . صارت أسبوعية . وأسئلة وحوارات عنها ومناقشات دافئة .

" كل مرة تبدي رأيك في الشريط الذي أعطيه لك . هذه المرة سكتّ . لم تعجبك الأشرطة ! "

" رباعيات الفلوت لهايدن لم أتفاعل معها . أحب عصر الباروك كثيراً . لكن . . . ليس هذه الرباعيات . "

" قل لي أي شريط تريد تسجيله وأنا أسجله لك بدلا من هايدن . "

لم يكن متهيئاً لهذا السخاء . تلعثم بعبارات مضطربة . ارتاحت نورما

إذ استعادت موقعها المتفضل عليه ، وعبثت بشيخوخته على هذا النحو . أليس أن الله أرسله محطة على طريق أحزانها ؟ هذا الطريق الذي ستجتازه منذ الآن بلا توقف ، وهي ما تزال تقترب من نهاية عامها الخامس والثلاثين .

كانت المسجلة جاهزة على مكتبه لتشغيل أول شريط ، عندما التقته بعد يومين ومدت له الأشرطة الثلاثة .

جلسا يستمعان . هو وراء مكتبه ؛ وهي على كرسي دوار وتضع ساقاً على ساق . هو نصف مطرق وأصابعه تفرغ شحنة ارتباكه في قلم حبر ؛ وهي مبتسمة الابتسامة التي صارت فيما بعد اللوحة الأعمق ارتساماً على ذاكرته .

إن شعباً بأكمله ينهض لتحية الحياة . هكذا أحسا بتلك الأعجوبة الموسيقية المسماة كارمينا بورانا . لم تسترسل نورما في الكلام . إن لغتها الفصحى هي الصمت والابتسامة . ونظر هو عبر النافذة . ابتسامتها هاجمت عينه . رأى صلصالاً طرياً وإن جامداً يتحرك ويتشكل وتنثال فيه الحياة . لقد ازدادت شفتاها حجماً وامتلاء ، رغم انفراشهما على أسنانها المختفية . وجعلتا خديها المتهدلين في العادة يمتلئان إلى جانبي أنفها الصغير .

تمنى أن يجد في المرأة الجالسة أمامه جلسة صلاة تكويناً غير الشفتين يتكافأ مع تلك الموسيقا . حوّل عينيه إليها وراح يبحبش فيها عن شكل أو مساحة .

إحباط أخر تفشى فيه وعيناه تنزلقان عن العنق القصير إلى الصدر الغائر ، إلى الجذع المتضائل ، إلى القوام الممسوح كله . ولولا أن نورما الغائبة تماماً عن تفرساته تحركت في تلك اللحظة وأنزلت ساقها عن

ركبتها ، لما انتبه إلى أن ساقيها هما ذلك التكوين الذي يبحث عنه . رآهما بديعتين . وارتاح . اكتملت دارة الجمال : الموسيقا ، الساقان ، البحر المتموج عبر النافذة ، خيمة من الغيوم السوداء . أطلق عينيه عبر النافذة ، وعلى الغيوم أبصر ساقيها .

انتبهت نورما إلى غرابة الوضع كله . هذا الرجل مأمون وليس فيه شيء تخافه المرأة على عفافها (شعره الأبيض ، عظام جسمه الناتئة ، كرشه المتقلقل ، وهذا الأنف المتقنطر وسط وجهه) ، لكنها بالتأكيد المرة الأولى التي تجلس فيها هذا الجلوس الغريب منذ اثني عشر عاما ، لتسمع الموسيقا مع رجل غريب ، في هذا الجو الغريب .

" أنا بالأصل عاشق ألوان مائية . . . ، " نبس فجأة . " أحببتها مثلما أحببت المطر . لما أحسست بعامي الخمسين ، أحسست بانصراف جواني عنها . ما العلاقة بين الألوان المائية ونصف قرن من العمر ؟ الآن أراها هشة ، ضعيفة ، لا تتلون بألوان القلب . لا تقدر أن تنفجر . ولا عمق لها . " ازدادت ابتسامة نورما ألقاً ، وسرت تماماً في وجهها . ولأن فراس صمت غمغمت : " لا أعرف ، أنت تتكلم عن الألوان المائية أم عن الألوان الإنسانية . "

نظر إليها بعطش : " كلما رسمت أو صنعت جسماً ، أحسست أنه ركام . وخاصة الألوان المائية . مثل ركام هذه الدنيا التي أحبها . كل حقائق الحياة باهتة . حتى الحب ."

حولت إليه عينين خامدتين ووجهاً تهدل بين دغلتين من الشعر : " حقائق الحياة يا أستاذ مثل الرصاص . أب توفي ، وزوج أسير . وهما كل حياتي . "

لا يذكران كيف تتابعت الحوادث بعد ذلك . كانا يلتقيان في المجلة مرة أو اثنتين كل أسبوع . حتى الهواتف المسائية الظهرية انقشعت من ذاكرتيهما : نورما ، لأنها كانت تتكلم عن تفاصيل تعرفها جيداً وتضيق ذرعاً بها ؛ وفراس لأنه كان يتحمل الاستماع إليها ؛ هي لأنها أرادت محطة عابرة تركن إليها ريثما يعود مهند ؛ وهو لأنه لم يشأ أن يكون قاحلاً مع هذه المرأة الصغيرة التي تجتر أمكنتها وعاداتها بصوت مسموع .

مع كل خبر عن إطلاق سراح الأسرى ، كان صوتها المتوتر المرتعش يعلن أنه رغم مقتها الشديد للطبخ وكي الملابس ، سوف تطبخ لمهند وتكوي ملابسه وربطات عنقه بيدها كل يوم . لن تترك له سبباً واحداً للشكوى ، أو ذريعة ليتذمر من عملها في المجلة ويحثها على أن تستقيل .

عندها كان يسأل نفسه : أي نوع من النساء هي هذه المرأة ؟ وكانت تسأل نفسها : أي نوع من الرجال هو هذا الرجل ؟ ثم يتلو السؤال سؤال وسؤال حتى يصبح الاستنكار المتتالي انشغالاً .

كان انشغالاً أوضَحَ لكل منهما الاستحالة السعيدة للآخر . إنه اهتمام عنصرين متضادين من عناصر الطبيعة . سوى أن كلاً منهما وجد في التضاد ذاك طمأنينة ينشدها عبر متسعات الحزن والألم . مهما تقاربا فلن يتلامسا ، ومهما تقاطعت بهما الأمكنة فلن تتقاطع بهما المصائر .

إلى أن كان ذلك الصباح ، بعد أن أفاقت المدينة على المطر . بعد أيام وأيام من هيجان الغيوم والرياح والبحر نهضت المدينة من رقادها على أصوات كان فراس و نورما قد سمعاها في (الفصول الأربعة) . بعد دقائق وجدت نورما نفسها في سيارتها .

لم تشغل المحرك . همدت داخل السيارة التي همدت داخل المطر .

هذا هو أول " خروج " لها من نوعه في حياتها . هل فقدت صوابها ؟ في هذا الجو المتوحش المجنون ! هي التي عقلها يزن بلداً ! وتقود سيارة تعطلت مسّاحتاها ! قبل موعد عملها في المجلة بثلاث ساعات !

بارق واحد فقط جعلها تحس أنها ليست مخبولة : المسّاحات . يجب تبديل المسّاحات . أجل ، هذا هو سبب خروجها .

انطلقت على مهل . كان الفضاء قرباً مفتوحة . على الواجهة الزجاجية انفجرت شرانق المطر وهمت باقتحام السيارة لتصل إليها وتغرقها . تشرشرت أشبه بصورة فوتوغرافية مفككة . ولحظة تلامح لها فراس نصار في برهة خاطفة ، رأت خارطة لمدينة مزمعة ، مقسمة بين كتل البيوت وخطوط الشوارع . ثم انكشفت إحداثياته المتطاولة عن شكله الحقيقي ، وأيقنت نورما أن هذا العجوز المعلن مجنون مستتر . يمشي في البحر وهو ليس المسيح ! ألا يمكنه أن يحب المطر وهو محتم من طوفانه ؟

أوقفت السيارة إلى اليمين وانتظرت وصوله . زعقت الزمامير وأوشكت سيارتان أن تصطدما ، فانتبه إلى السيارة الناشزة . لوّح يده بـ " صباح الخير " ، فلوحت يدها بأن تعال . انعطف نحوها . فتحت باب السيارة : " ادخل ! ادخل ! " لم يبدر منه شكر ولا قبول . : " وأترك المطر ؟ " إن في عقله لبساً استيطانياً : " يا أخي ادخل ! الله ! "

تهدل وتكور مهزوماً داخل السيارة . كان شعره حنفيات . " سأملأ المقعد بالماء . نشكر الله أنه جلد . " ناولته علبة الكلينكس من المقعد الخلفي . سحب ورقتين تفتتتا للتو على وجهه . تناول ثالثة . " أستاذ فراس ! لن أخسر ثروة إذا استهلكت العلبة كلها . أنت بخيل لهذه الدرجة ؟ " تناولت ثلاث ورقات . " تلزمني منشفة لا كلينكس . "

انشغل بتنشيف وجهه وعنقه . تدحرجت بهما السيارة . انعطفت نورما يميناً . بهدوء وكآبة وبعينين شردتا في ثنايا المطر ، قالت : " أنا طلعت مبكرة اليوم . ما رأيك ، بما أنك تحب المطر ، أن نمشي في طريق طويل ؟"

" ياريت ! أنا حياتي كلها طرق قصيرة . "

انعطفت ثانية في شارع فرعي : " من هنا نصل إلى الكورنيش . سيكون أمامنا طريق طويل فعلاً ." حمحم فراس وانفرك في مقعده . سألته ما الأمر . " هذا الشويرع مسدود ،" قال متمارحاً . وردت هي بضحكة صغيرة واثقة : " أنت غلطان أستاذ فراس . يا لهذه المستاحات الزفت ! " نظر إليها رافعاً حاجبيه كأنه سمع طرفة : " صدقيني . هذه الشوارع جزء من فولكلوري . " ضحكت .

بعد دقيقة تبين أن الشارع مسدود . ولم يبد أن المطر ينوي التوقف أو الاعتدال . انعطفت نورما ودخلت في زقاق جديد . " لازم تغيير المستاحات ، " قالت .

التفتت إلى فراس بابتسامة معترفة : " يوم تزوجت قال أبي لمهند : خذها ودبر حالك معها . هي ممتازة من كل النواحي ، لكن رأسها يلزمه ترويض . وبعد أربع سنين قال مهند لأبي : أنت قلت لي يلزمها ترويض رأس ، لكن لم تقل لي أن رأسها يستحيل ترويضه . ما رأيك أستاذ فراس ؟"

" ضروري أن يروض الزوج رأسك ؟ أنا مع الرؤوس اليابسة . "

فوجئت بجوابه . هذا المغرور ! ظن أن حديثها عن أبيها ومهند دعوة لكي يبدي آراءه ! كان الشارع التالي محدباً في منتصفه ، مفتوحاً وسط رابية من الأرز والصنوبر يسمونها (الرويسة) . وعندما بدأت قمته بالانحدار ، بدا

كأن السيارة تدخل في بحر ، أو أنها موجة بيضاء تكومت فوق البحر . فقد اتصل طوفان السماء الأزرق بالأمواج المتداحمة في القوس البحري .

ثم تلك الومضة : لحظة أطل الطريق الشاهق على البيوت والمدينة المتراكمة المتهاوية نحو الشاطئ . إطلالة خاطفة مثل قبسة الكاميرا ، وفي لحظة الإيماض انطبعت صورة المكان في ذاكرتيهما ودفعت إصبع نورما بالكاسيت داخل المسجلة . كان فراس سادراً ، مستحم الشعور والإحساس بالمطر . أما نورما فتوغلت في طبقات الفصول التي موسقها تشايكوفسكي .

" أنا أحب فصول فيفالدي . " قال فراس متبجحاً . وردت هي بسرعة : " هذا لأنك مبتدئ . باردون منك . تأخذك العذوبة المباشرة . "

أحست ببهجة وهي تعاين انحشاره داخل ابتسامته الصفراء . وأراحها أنها على هذا النحو قد أعاقت استراقه النظر إلى ركبتيها . بعدئذ : المطر والمدى والطريق .

ثم الشارع الذي سمي لأمر ما زقاق الجن . الذي بطريقة ما وصلت نورما إليه وأخذت تتحاشى مياهه المتجمعة الفائضة على الرصيف . كانت ملامح السماء أوضح ، بعد أن اعتدل جنون المطر ، واكتسحت الريح فراغات الفضاء التي غادرتها السيول .

قال فراس : " كأن لاوعيك قادك إلى هذا الشارع . اطلعي على الرصيف لأغير لك المساحات . هنا ، هنا . " تابعت سيرها . نظر إليها مستفهماً . " أنا ما متعودة على تنفيذ قراراتي بسرعة . مرة ثانية . "

أحس أن مشواره كله قد باخ . أية امرأة هي هذه الكتلة من الانضباطات والتحسبات والنواهي ؟

وأحست أنها أفسحت لهذا الطفيلي مساحة ما كان لها أن تفسحها . . . له أو لغيره . ها هو يتصرف وكأن له حق العناية بها . يظن أن بوسعه تقديم خدمة لها . أو تلبية حاجة من حاجاتها . يالهؤلاء الختايرة المتبجحين .

التفتت إليه نصف التفاتة . لم تكن زاويتا عينيه ترمقان ركبتيها هذه المرة . قالت : " كيف ستغير المساحات في هذا المطر والريح ؟ إذا تغرقت مرة ثانية أصابك التهاب رئوي . " قال بوداعة : "اطلعي على الرصيف . "

خمخمت : " والشرطة ؟ يحجزون السيارة ! "

" هذا زقاق الجن . أي مخالفة مرورية مسموحة فيه . "

وكانت قد بدأت تصعد على الرصيف وتتقدم بسيارتها من الدكاكين المترعة بالأدوات والآلات . خرج من السيارة وتواثب عبر الرذاذ الطائر نحو الدكان المواجه . قال البائع الفتى أجل لديهم مساحات ، وتصلح لهذه السيارة . وثمنها تسعة دولارات . رن جرس الهاتف في الدكان ، ومكالمة طالت عشر دقائق نصفها : " حبيب قلبي " و " تكرم عيونك . "

فوجئ فراس بنورما تقف إلى جانبه . " كم ثمنها ؟" سألته . أوشكت الريح أن تحمل قامتها النحيلة وتمضي بها في الفضاء . وضع ذراعه على ظهرها وأدارها نحو السيارة . " ما هذا ! ألا تشوفين الريح والمطر ؟ " مشت معه بعصيان مطيع . " كم ثمنها ؟ " بهدوء جرفها نحو السيارة . " تبللين ثيابك وتنزعين تسريحتك !" أجلسها داخل السيارة . " لا تطلعي . " " لكنك ستأخذ ثمنها . "

عاد إلى البائع الفتى . كانت المكالمة قد انتهت أخيراً . خلال دقيقتين حلت مساحتان جديدتان محل القديمتين . فتلت نورما ذراعاً ناتئة عند

المقود وتحركت المساحتان . رفعت قبضتها بإبهام مفتوحة . ابتسم فراس ودفع الثمن .

انطلقا . لا بد للرؤية من مساحتين . وإلا كيف تشق طريقك ؟ دارت بالسيارة واتجهت نحو الشارع .توقفت . تناولت جزدانها . أخرجت يمناها ورقة بعشرة دولارات . مدت الورقة إليه : "لن أمشي إذا لم تأخذها . " مد يسراه فاحتضن ظاهر يمناها . صارت يدها بلا إرادة . لم تتقدم ولم تتحرك . لم تتراجع . شد قبضته عليها وأعادها إلى الجزدان .

لذعته برودة يدها . لذعها دفء يده .

بعد عشرة أيام تقريباً هطل مطر من نوع آخر . واحد هنا وواحد هناك من أرباب الحرب قرروا أن الوقت قد حان لاستعادة أصوات الموت وروائحه . لم يكن ليهمهم الزخم الناري القديم الذي افترس المساكن وسكانها . أيقظوا ذكريات متورمة في الروح ، متجسدة في خرائب المدينة . رأى الناس حكمة الجبن فآثروا البقاء في بيوتهم لأجل البقاء .

منذ وقت مضى أذنت له بمهاتفتها . وها هو يغتنم الفرصة . لديه ثلاث مجموعات من الرسوم ويريد رأيها فيها . انفلت فيها ضيق تراكم من مصادر بعيدة . عليها أن تعلن لنفسها أن سخريته هذه تجعله رجلاً لا يطاق . ماذا يريد حقاً وهو يعرف أنها ليست مؤهلة لتلبية طلبه ؟

" يا أستاذ فراس ، لا أقول أنك غلطان بالنمرة ، أنت غلطان بالشخص . أين زملاؤك ونقادك ؟" " رجاء ! " هتف نصف محتدم الصوت ، " أنا أعرف بأي ذوق نقدي أثق . "

" يا أخي أنت مالك ومالي ، يا أخي ! أنا امرأة اهتماماتها مأسورة

بزوجها الأسير . توكومبرون ؟ ليس عندي مخ لشيء . حتى الموسيقا لم أعد أسمعها . "

" الرسومات عن زوجك . . . تقريباً . عن هذه المدينة . "

لم تتمكن من توليف ادعائه في منطق مقبول . ولكن ، بما أن الفنانين بشر مهزوزو العقول – فراس بشكل خاص – فكل شيء منتظر منهم .

امتنعت عن إعطائه أي جواب . حدد الموعد في كافتيريا المجلة وهي صامتة . وعندما جاء ولم يجدها ترك ثلاثة صناديق صغيرة عند رجل الاستعلامات . لقد سمى تلك الرسوم متواليات . وكان واضحاً أن كلاً منها رزحت تحت عبء كبير ، فاضطر إلى رسمة ثانية تلتقط ما طاح من الأولى ، ثم زادت عليه . واضطر إلى ثالثة تلتقط ما زاد على الثانية . . .

ها هو اليوم الأربعون يوشك أن ينصرم وهي وحدها في هذا البيت . كانت طلقات متقطعة تسمع من بعيد لمدافع صغيرة ورشاشات – ربما في الضاحية الجنوبية . لأول مرة تحس أنها لم تكن وحدها ذلك المساء . حتى الكهرباء لم تنقطع كعادتها . كان مفروضاً بحسب معادلات فراس أن تكون في كل متوالية رسمة أولى ورسمة أخيرة ، بينهما رسمات . لكن هذا لم يحدث . تواشجت الرسوم بلا بداية ولا انتهاء . حتى المتواليات الثلاث لم تكن أولى وثانية وثالثة ، كانت ثلاث دوامات .

ساورها اضطراب غير معهود . أرادت أن تفعل شيئاً ولم تعرف ماذا يكون . أرادت أن تفلت أشياء متوارية فيها ، تتركها لتخرج ، تتساقط ، تستقر في مكان أي مكان ، لعله رسمة ثانية ، قماشة ثانية ، تنشأ عن نورما نبدر ولا تكون مثلها .

تركت الرسومات على طاولة السفرة ، وتمشت في البهو على غير هدى . لم تفهم الكثير من عالمها الانطباعي المتفجر لكنها حالة أخرى غير حالة الروبوتات .

وصلت إلى المسجلة . شغلت القرص المدمّج على الحركتين الأولى والثانية من تاسعة بيتهوفن . تمددت على الصوفا المجاورة .

خلال دقائق التقطت إيقاعاً للرسمات عبر إيقاع الموسيقا . إنه ذلك النمو ، ذلك التوالد ، أو التصاعد والانتشار والغور ، في الحركتين . أجل هذا هو ما يجمع بين الموسيقا والرسمات . سوى أنه عند بيتهوفن نمو وتوالد للفرح الإنساني بينما هو في هذه الرسمات نمو وتوالد للفجيعة . . . لموت أبيها .

نهضت إلى مكتبها وراحت تكتب . لأول مرة منذ تركت الجامعة تحقق حلم حياتها الأعمق : أن تكتب . كانت الموسيقا في أذنيها ، والرسمات في عينيها . وجعلت اللغة تتساقط عبر القلم . ظلت تكتب وتكتب حتى بعد أن تلاشت الموسيقا وطلقات المدافع والرشاشات ، وانزاحت الرسمات عن الذاكرة .

ثم جاء دور فراس في الاضطراب . لقد رأى نفسه دائما فناناً لا يملك من مقومات الشهرة سوى أعوامه الخمسين . عمره ، وليس أي شيء آخر ، هو الذي فرض اسمه على الأسماع والجرائد بالتكرار والتراكم . لكنه يعرف جيداً أنه أولاً وأخيراً " الأستاذ " فراس الذي يعلم مياومة في كلية الفنون الجميلة ، وليس " الفنان " فراس الذي يتهافت الناس على لوحاته وتماثيله . بل إنه كثيراً ما نظر بعين المقت والازدراء إلى تعدد مواهبه : رسام لوحات ، مثّال ، رسام كاريكاتير ، واعتبر هذا الكم ضحالة نوع . أمسك عن الكلام

دقائق ثقيلة . يداه تحتفظان بأوراق نورما الست أمام عينيه ، وعيناه خانقتان . أخيراً سألته نورما : " مالك ؟ شفتني فاشلة في النقد ؟ "

وكان ينظر إليها ليلمس أنها لم تكن تسخر منه . شاهد انفراج شفتيها المليء على أسنانها ، والمد والجزر في عينيها ووجهها . لاحظ أنها ليست في الواقع مختلة الملامح مثلما خيل إليه ذات يوم . . . بل ولاحظ حجما من الجمال الحي في بؤبؤيها اللذين طالما رآهما خامدين .

أخيراً تمتمت : " واحدة من الرسمات في العلبة الثانية ، هذه شيء ثان تماما . صحيح أنك حتى تدخل في جو الرسمات ضروري أن ترتبها في دائرة . كأنها مأخوذة من شريط فيديو مجنون . لكن هذه الرسمة أنا أحسست أنها أنا . "

ظل خاطرها مشغولاً بـ " هذه الرسمة هي أنا " حتى المساء . الصفحات التي كتبتها لم تكن فقط الاستثناء ، بل الاستثناء الوحيد . فالجسور التي تقوم عادة بين الشعور واللغة لم تكن يوماً من بين تضاريس عقلها .

أوائل الليل سألته عبر الهاتف : " لماذا رسمتني مشوهة ؟ "

تلكأ في الجواب ، فأضافت : " أنتم الرجال تحبون المرأة السمينة ، أعرف . مهند دائماً يقول لي : أنت جلد على عظم . وأحياناً يجن جنونه من الريجيم الذي أتبعه . يريدني أن آكل وأسمن . "

" أنت أقل من 57 كيلو بشوية . وهذا قليل على طولك . "

عقلت المفاجأة لسان نورما . قبل ساعة وقفت على الميزان ، وتوقف المؤشر قبيل الرقم 57 . أحست أنه رآها عارية .

أسرعت تقول : " لم تجبني . لماذا رسمتني مشوهة ؟ "

قال : " يا مدام أنا لم أرسمك . أنا رسمت المدينة . قد تكون المدينة أنت . "

" يعني أنت لا تراني مشوهة . أين تراني نحيفة ؟ "

" يعني . شوية في منطقة الجذع . "

صمتت منتظرة التفاصيل . أحس بمعنى صمتها وضغطه . قال : " قصدي منطقة الظهر والإبطين ." ولم يستطع المتابعة . ظلت هي صامتة . اضطر إلى القول : " لو تسمنين في الظهر والإبطين شوية . " وظلت هي صامتة . قال : " لأنه الصدر . . . غير بارز . غير بارز . والظهر و الإبطان ضيقان . لذلك تبدو الكتلة ضئيلة . محدودة . يمكن لو كان العنق أطول قليلاً . . . " وصمت . وظلت هي صامتة . طال صمته وطال صمتها . قال : " أنت لا تبالي بكلامي . لا تبالي إطلاقاً . لأنه يعبر عن نظرة سكونية جامدة إلى شكل الإنسان . والسكون عقم . وبالنسبة للرسمات ، الذي رأيته أنت تشوهاً ، رسمته أنا على أنه جمال معتدى عليه . جمال سلبوه حريته . "

ظلت ساكتة . وتساءلت بسخط : لماذا لم تمنع هذا المتوحش الموحش من التمادي في وصف جسمها . مضى ذلك المساء ونهار اليوم التالي وهي تتذكر وقوفها على الميزان ومعرفة فراس المخيفة بوزنها . وأراحها من تلك الوذمة وذمة أسوأ منها . فقد وقعت أمها للمرة الثانية بعد وفاة المدير العام ، ونقلت إلى المستشفى . هبط ضغطها فجأة إلى حدود الموت . حقاً لقد سارع الأطباء إلى إيلاج الأنابيب الدقيقة في ذراعيها وأنفها ، لكن أحداً لم يفهم كيف حدث ذلك التهاوي الغريب في عضوية متينة سليمة . وحدها نورما فهمت . لقد اكتسح المدير العام حياة هذه المرأة المعافاة حتى باتت تشعر إزاءه أنها لا تمتلك من مزايا تواجه بها مزاياه

سوى عمرها الذي يقل تسعة عشر عاماً عن عمره . كل عام كان مظلة . ثم مات ، فرأت أنها لم تعد تملك مزية على الإطلاق .

ذلك الحب هو ما نسجها وأمها في قماشة وجدانية واحدة : أحبتا رجلاً واحداً ، من موقعين مختلفين ، فجمعهما الحب وأراحهما الاختلاف .

مكثت بجوار أمها المتغيبة ثلاثة أيام بلا انقطاع . ضربت عرض الازدراء بقوانين المشفى ، وبنصائح الأطباء حول صحتها هي ، وبشغلها في المجلة ، وبمواعيدها مع الصليب الأحمر الدولي ، الذي وافق مسؤولوه أخيراً على إثارة قضية مهند وزملائه الأسرى .

أعطاها تحسن الأم فرصة للنظر عبر النافذة من ذلك الطابق الرابع المعلق قرب البحر فوق تلال صنوبرية . هناك انثالت ذوائب المطر . وألصقت نورما وجهها الساخن بالزجاج المبترد . حدقت عبر الفضاء المشوش .

ثم بيت الأم . هطلت الأخوات والأخوان والخال والأزواج والصبايا والصبيان . أقاموا للأم سدّة في صدر البيت ، وانتشروا حولها بلغطهم وحركاتهم وأطعمتهم . كانوا جماعة مشاعية المشاعر تحتفل في معبد الأم التي رحل عنها الموت . وقد برغم ذلك كله أفراحاً شافية للأم . وعندها تمطت روبوتات نورما داخلها بعزيمة عاتية .

بالطبع خطر لها فراس ؛ ولكن كومضة خافتة في ساحل من الضوء . هؤلاء هم أهلها . والبيت هو بيتها . تلك شعاعات حياتها الهادية . يالغرابة تلك الانفلاشة التي انطوت الآن . إن اهتمامه بها كأنثى يعلو أو يهبط قليلاً عن درجة الصفر . واهتمامها به كذكر متمدد في الصفر المطلق . وانداحت في بدنها غبطة رغيدة .

مساء عودتها الثانية إلى بيتها ، اتصلت به ولم تجده . كان في واحدة من هيماته السادرة التي تعقب انتهاءه من أحد مشاريع ألوانه . كان يتأرجح فوق تحت ، وخاصة بعد أن انتهى من التدريس . يعلو مع مد الإنجاز ، وينحسر مع خواء الانتهاء . يحمله المد إلى أقاصي المدينة . يعيده الجزر إلى حاناتها الدكناء – هناك حيث يلتقي مع رئيس التحرير ، ويحتسيان ُقلّة من البيرة .

أفاق اشتياقه للناس بعد أن ركن اهتمامه بالألوان . كان مستعداً أن يبيت ليلة أو ليلتين في أحد بيوت عائلاته . . . لو أن واحدة منهن قبلت دون مضض . ماذا يفعل ؟ كلهن أحببنه حتى الكراهية . وابنه الأكبر ، غريمه الحميم ، رفض بلا هوادة أن يصطحبه إلى أي مكان . كان يمضي أوقاتاً سعيدة مع صديقة منعشة ولم يشأ أن يجعل من أبيه هادماً للذاته . طلب فقط إعارته السيارة .

لم يحاول أن يدعو واحدة من تلك القامات الباسقة ، في الكلية أو في شارع الصحافة ، إلى كأس من النبيذ في حانة (الغجرية) ، أو إلى مشوار تشردي على كورنيش البحر . كان قريراً وهانئاً بوحدته ، رغم انحرار جسده شوقاً إلى أجسادهن . بقي له المطر والأمكنة . وذلك السياج المعدني المحيط بأرض قفراء عند كتف المرفأ : منذ مشى حوله أول مرة وهو في حوالي الخامسة ، حتى صار في الخمسين ، وهو لا يفهم لماذا نصبوا السور حول الأرض فمنعوه هو من الدخول .

" مهما يكن ، الآن صار عندي مواد كافية لبينالي فلورنسا ، " قال لرئيس التحرير .

" هل ستأخذ تمثال رونالد ريغان معك ؟ "

" ريغان أفندي هذا مشكلة . إذا أخذته سيترك الجمهور لوحات الحرب والخرائب ، ويقفون أمام أنفه" .

" إياك أن لا تأخذه ! سيحدث دوياً ! "

هز رأسه هزة صغيرة إلى اليمين ، ورفع حاجبه الأيسر .

بعد أسبوعين آب إلى شقته أواخر المساء . فتح الباب فسمع رنين الهاتف .

" أين أنت يا رجل ؟ لا في البيت ، ولا في المجلة ، ولا في أي مكان!"

تذكر ظهرها وصدرها . " كنت عطشان . رسوماتي الأخيرة نشفت جسمي . لذلك غببت بيرة وغببت ، حتى ارتفع سعرها في الخمارات . مع أننا في كانون الأول . " اقشعر كتفا نورما نفوراً . متوحش وسكير . كيف قبلت ثلاث نساء أن يتزوجنه ؟

قالت : " نزل مطر كثير أثناء غيابك . "

" لم أكن غائباً . . . عن المطر قصدي . "

أحست بوقوعها في شرك .

" أنت التي كنت غائبة . عن الشوارع التي انغسلت وانغسلت بالمطر . مادام عندك مساحات جديدة ، فلأي شيء لم تخرجي وتتغرقي ؟ "

قالت بنبرة مؤدبة : " أنا اتصلت لأقول لك إن رئيس التحرير . . . قترح وكلنا وافقنا ، أن نعمل سهرة أسبوعية متنقلة من بيت أحدنا إلى بيت ثاني ، نتكلم فيها عن شيء ثقافي أو اجتماعي ، وحصيلة السهرة تنزل في لمجلة . ألم يقل لك ؟ "

" يعني أنا مشمول في هذه السهرة ؟ "

" على الأقل في الجلسة التي سأقرأ فيها أنا ما كتبته عن رسوماتك . "

" أيْوْ ! "

فاجأها هتافة الرغيد . يظن أنها ستقرأ مقالها كرمى له ! لا يدرك أنها ستقرأ استمتاعاً بأنها كتبت فاكتشفت نورما جديدة قديمة ، نورما غائبة . لأول مرة في حياتها تكتب تحت ضغط داخلي بهذا الشكل .

قالت : " لكن بشرط . أن تدوزن لي ما كتبته . لم يكن عندي فكرة أني سأكتب أصلاً . "

" مدام ، أنا أتعامل مع الألوان لا مع الكلمات . "

" لا فرق . المهم النظام . أنت تتعامل مع ألوانك بنظام . وهذا يعني أنك قادر على التعامل مع كلماتي بنظام . مطلوب منك تقويم نظام أفكاري في الأوراق الست . بغير هذا لا أقبل . "

" إنشاؤك الذي قرأته ياستي ، نظامه ممتاز . مترابط بمنطق خاص . و . . . أبداً ! ممتاز ! " " هكذا إذن!"

انفتح أفق لأحاسيس فراس ومخيلته . في عمق هذه المخلوقة طفلة مجبولة من تراب الغابات ، بوسعها أن تنبش من داخلها امرأة عظيمة . نهض وجلس بين ساكني الشقة : التماثيل واللوحات . في ركن صغير شاهد أربع لوحات أدار وجوهها للحائط ذات يوم . تذكر قماشاتها . سحب أولاها من ناحية الركن . قرص مكور كغيمة متكتلة ، مرشوش بألوان قوس المطر وخطوطه ، يرى فيه نهداً وامرأة وشجرة وشمساً . انتبه إلى أن دائرة القرص قد تركت حولها أربع مثلثات ممسوحة . فراغات كأنها بقيت خصيصاً

لمشاركة اللغة ، كما شأن لوحات الحروف العربية . ماذا لو رسم داخلها بالكلمات مثلثات أصغر ؟

انهمرت الكلمات المطلوبة على الورقة : " الفرح والجمال كنزان صغيران في هذا العالم وأنت الخضراء كالبحار تجعلينهما يكبران . " لاشك أن نورما ستفرح عندما تقرأ هذا الإهداء .

أمضى ساعات الصباح التالي في (دكان الفن) ينتظر بعصبية مقموعة انتهاء ألبير من تأطير اللوحة . لم ينتبه ألبير إلى الإهداء . حسبه جزءاً من اللوحة . بل وأعجب به ، فسأل لماذا لم يضف فراس كلمات حلوة أخرى مثل : الحب ، الحرية ، الخ . . .

في مكتبه بالمجلة أسندها على إفريز الشباك فجعل الفضاء الساطع إطاراً ثانياً لها . أعجبه التشكيل الجديد فقط . بعد أن أضيفت اللغة إلى الزوايا الأربع ، بدا القرص مفلوشاً وسديمياً إزاء وضوحها ودقة أشكالها الأندلسية . إنه تضارب وليس تناقضاً ، وقد خنقها .

وها هي ذي نورما . تدعوه إلى الاجتماع وهي ما تزال في الممر . تهتف وهي تقف بالباب : "الله ! لوحة جديدة ؟ " فيلتفت مرتاحاً لأنها خلصته من عبء مجاملات اللقاء : " هأه ! عمرها سنة . " مدها لها : " هذه لك . منذ البارحة صارت لك . "

" أنت جاد ؟ " أمسكتها بيديها وتأملتها . " لكن هدية بدون إهداء يا أستاذ ؟ "

" أنا مبسوط لأنك حتى أنك لم تكتشفي الإهداء . هذا سيسهل عليك قبولها وتفادي الحرج . "

" عليها إهداء ! أين ؟ "

شهقت إذ أشار لها . ظل فمها مفتوحاً ثم ارتخى ، وهي تقرأ الكلمات المزخرفة في الزوايا . كانت انطباعتها الأولى هائجة ومبهمة تماماً . كظيمة .

" لم تعجبك . لوحة مختنقة . "

" لا لا ، ماذا تقول ! " ولمعت عيناها بعرفان ناطق . ثم عادت تتأملها .

" سيخانقك زوجك بسبب الهدية والإهداء ؟ "

نظرت إليه معتكرة وعاتمة . ثم استعاد وجهها طمأنينته بلحظة : " سميرة تنتظرنا . " استدارت ومشت نحو الباب بخطى راسخة .

" أرى أن تضعي اللوحة في سيارتك وتلحقي بنا في الندوة . "

هزت رأسها بالموافقة . أعجبها ذلك التواطؤ .

فور عودتها إلى البيت ، اندفعت فعلقت اللوحة بمسمار كانت صورة أبيها معلقة به على الجدار الأيسر للصالون . منذ أسابيع أنزلت الصورة ووضعتها على الخوان الممتد في رواق قصير بين غرفتي النوم والمعيشة . كان عليها ألا تفعل ما تنهى أمها عنه . ازدحم المكان بالإهداء . ياله من اعتراف موضوعي وثمين بقيمتهما . الفرح والجمال . نورما عبد المجيد البدر فرح وجمال . اعتراف نزيه من فنان حقيقي . ذلك فرح أيضاً . يخصها بالذات . هي التي ليس لصدرها وإبطيها أي جمال . هناك فعلاً نورما غائبة ، وهذا الفنان العجوز أزاح عنها الغياب .

منذ عهد بعيد ، ثلاثة أيام ، لم تتصل بأمها . يا لها من ابنة عاقة لا تستحق هذه الأم العظيمة . على غير العادة أنهت تبادل العبارات الجاهزة مع

أمها خلال ثوان . ثم :" اليوم جاءتني هدية . . . ولو كان مهند في الأسر ! يعني ألا يجوز أن تأتيني هدية ؟ . . . أي ، لوحة حلوة . . . رسام اسمه فراس نصار . . . ولا شيء ما ما . لا غرض ولا مغرض . وأنا لا أنفع لأي غرض ، جلد على عظم . . . لأننا زملاء في المجلة . ونحن دائماً نعيب عليه بخله بلوحاته . . . لا أعرف إذا كان أهدى لسميرة . . . ماذا تقولين ماما ؟ أنا مراهقة يعني ؟ . . . أنا سعيدة بالإهداء والهدية ، لا بصاحبهما . . . ".

انطرحت على كنبة مقابلة للوحة . لا تستطيع أمها أن تفهم معنى أن غريباً بمرتبة فنان قدم لها اعترافاً رفيعاً بقيمتها . أمها لا تعرف سوى الخوف والتحريمات . لكن نورما مشبعة بهذا الاعتراف . جاء بلا طلب . ووصل بلا تصيد . حتى عندما يعود مهند ستبقى هذه اللوحة في صدر الصالون .

كان خضماً دواراً الشعور الخاطف الذي هدر فيها وهي تقرأ الإهداء وتقرؤه . وخلال أسبوع شق له مجرى عبر جبال صنوبرية تنتأ بين أشجارها الصخور والينابيع . كل من رأى نورما البدر يومها التقى بغابة وجبل . وقد نجحت ورقتها نجاحاً خانقاً . مع لوحات فراس ، وعدد من التماثيل الصغيرة ، أسكتت اثني عشر فماً راضياً لمدة أربعين دقيقة . وبعدئذ لم يستطع أحد أن يغلق فمه – باستثناء فراس الذي انسل بكأس الويسكي إلى المطبخ وجعل يرسم في معدته لوحة طعامية متنافرة .

أحست نورما بعدئذ أن ورقتها لم تعد محور التقاطعات اللغوية ، فأطلقت تنهدة ارتياح . لقد خبلتها الأسئلة والتعليقات . وأنقذتها حماسة دفعت الحاضرين إلى التبرع نيابة عنها بالأجوبة ، هي التي لم تمتلك يوماً أية نغة بوجه الناس . ذلك كله لم يكن ليخطر على بالها . استدعت رئيس

التحرير بعينيها ، ومعاً مشيا إلى المطبخ . رآهما فراس وارتبك . تلعثم في محاولة لشكرها على القراءة . لكنها رفعت يدها لتسكته قبل أن تقول بفظاظة مروعة : " باردون أستاذ فراس . أنا لم أكتب عنك . أنت لم تكن تعنيني بالمرة . "

رأت وجهه الكالح يتهلل بفرح غير معقول : " لأجل هذا يجب أن أشكرك أضعافاً . هل أرتب لك صحناً من هذه المأكولات الاستفزازية ؟ " ولم ينتظر موافقتها .

قبيل عيد الميلاد أعلن الصليب الأحمر الدولي أن الإسرائيليين سيطلقون سراح المعتقلين ليلة رأس السنة الجديدة . ولحظة أخبرتها سميرة بالنبأ ، نهضت عن كرسيها وأسندت راحتيها على تشكيلات الإخراج .

قالت سميرة : " اطلعي نورما . خذي لك لفة على الكورنيش . " قالت نورما : " سأشتغل عنك في يوم ثان . " دمدمت سميرة : " إخس عليك . "

بعد سبع عشرة دقيقة كانت تلقي بقوامها النحيل على صدر أمها : " قالوا لنا على رأس السنة ! يا رب ! " ثم انفكت عن أمها وأمسكت يدها . رمت جزدانها على كرسي طاولة السفرة . واسترخت بين ذراعي كنبة . وضعت ساقاً على ساق : " ما لك ، ماما ؟ "

قالت الأم : " ما لي أنا أو ما لك أنت ؟ دخلت طائرة من الفرح ، وجلست كأنك متضايقة . "

" أنت تعرفينني . لما أكون منفعلة أتصرف هكذا . "

كانت تشعر أنها خرجت من عمق مائي محرور وطفت على السطح . وأن قطيعة نهضت بينهما وبين سبعة أشهر دوامة ، وأربعة أثختنها منذ وفاة

المدير العام .

طوال الأسابيع الثلاثة السابقة لعيد الميلاد لم تنقطع عن الاتصال بفراس نصار . لقد تأكد عالمياً أن المعتقلين سيفرج عنهم . لكن التنفيذ تأخر . ونورما التي لم تعش من قبل تقطع أي نسق في حياتها أحست أن غرض ذلك التطويل الوحيد هو تهشيم أعصابها .

تلقى فراس مكالماتها بصمت رحب وكلمات ضيقة . أدرك أن الوتيرة قد تضاعفت ، وأن هذه المرأة في حاجة لأن تفرغ دفقات تبحث عن مصباتها .

كانت دفقات هادئة ، ولا أثر فيها للانفجار . أقرب إلى التقارير الإخبارية المفصلة . ماذا قال وزير ما ، أو قائد عسكري ما ، أو سفير أو وكالة أنباء ، بالإضافة إلى أخبار زياراتها اليومية إلى مقر الصليب الأحمر الدولي .

" يا أخي لخبطوا لي حياتي ، والله العظيم . "

" راح الكثير وما بقي غير القليل . وبعدكم يوم يرجع لك مهند وهو بطل . "

" ما بودي بطولة . بودي رجوعه وخلص . "

" رجوعه وهو بطل أفضل . مقابلات وأحاديث صحفية !"

" لا يأخذك الخيال . مهند طلع ليسعف أبي ويعود به من جسريا . التقطوه على الطريق . "

" لو كان عندنا حكومة مثل العالم والناس ، لاستعادت جميع المعتقلين بشهر واحد . "

أحست نورما بالذعر : أهذا وقت لشتيمة الحكومة ؟ غيرت

الحديث : " قرأت قصة " الصرصار " لهاني الراهب ؟" وأمضت خمس دقائق لتحكي له بالتفصيل قصة مسؤول كبير جداً في حكومة ، يكتشف أن حكومته قد دججت بيته بالصراصير ، التي هي أجهزة تنصت متطورة تلتقط وتبث كل حديث يهمس به في منزله .

ولم تترك له أية فرصة لأن يسألها لماذا تسرد عليه قصة يبدو بوضوح أنها رديئة .

في العاشر من كانون الثاني سمعت نورما صوت مهند لأول مرة منذ خمسة شهور . كان طبيعياً ومرتاحاً وفيه لهفة . :" أنا بخير . نحن كلنا راجعون في عشرين كانون . . . أنتم كيف ؟ كيف أمك ؟ طمنوني عنكم . . . لا تقلقوا علي . أنا فعلاً بخير . لكن وقت المكالمة قصير . . . عن طريق الصليب الأحمر طبعاً . . . إلى روما ، إليكم . . . إلى اللقاء . "

الفرق بين صمت البيت قبل المكالمة وصمته بعدها كان في الغشاوة التي انسدلت على أذني نورما بعد أن أعادت السماعة . وعلى عينيها بعد أن التفتت حولها . نهضت فأحست أنها ليست وحدها في هذه السعة .

تمشت عبر أقسام البيت الصامتة التي ما لبثت أن عرضت كلاماً واستعادت صوراً . راعها كم أن كل شيء تقريباً لم يعد في المكان الذي اعتاد مهند عليه . انقشعت الغشاوة . أسرعت تهندم الكنبة المزدوجة التي يسترخي عليها في غرفة الجلوس ويشاهد كرة القدم على التلفزيون . وأسرعت تمسح الغبار عن التلفزيون أيضاً . وهزت رأسها بالموافقة على اقتراح قدمته لنفسها بتخصيص الشطر الأعظم من الأيام العشرة القادمة لتجهيز الطبخات التي يحبها . تفقدت غرفة النوم ، وأفرحها أن صورته الباسمة ما زالت على الرف الخلفي للسرير من ناحية اليمين . وصورتها من

ناحية اليسار .

عادت إلى غرفة الخردوات . عليها أن تمسح الأحذية وتطرّيها . وهزت رأسها بالموافقة على اقتراح آخر بحمل الأحذية إلى الكندرجي ليضعها في القالب أسبوعاً ، ويلمعها تلميعاً شديداً . أسرعت إلى المطبخ فتناولت فوطة وانطلقت إلى غرفة النوم . هناك توقفت وهي لا تعرف ماذا أرادت أن تفعل بالضبط .

كيف تجعل البيت يستقبل مهند ؟

عادت إلى الصالون . كانت الغشاوة قد غادرتها . تناولت السماعة . أمكنها أن تسمع صوت أمها الناهض من حزنه وتعبه ، المتغلغل في فرح حنون : " الحمد الله على سلامته يابنتي . أنا قلت لك . خلي إيمانك بالله قوياً ، ومهند يرجع لك . مبروك . "

ثم فراس . هذه المرة لم تجد تدوير أرقامه سهلاً . حقيقة الأمر أنه أمسى بعيداً وغريباً ، بل ودخيلاً أيضاً . وغير ضروري . طبعاً هي لا يمكن أن تتنكر لإحسانه وفضله عليها . ولقد أحسن فراس إليها . بل فعل ما هو أكثر من ذلك . كان قارباً لا يعيبه أنه صغير ، حملها فوق بحر فاغر الأمواج فأعادها إلى الحياة ، رفعها فوق الخضم الذي أوشك أن يملأ رئتيها . غير أنه الآن لم يعد ضرورياً .

لم تفهم لم كانت باردة وهامدة وهي تدير الأرقام ، ولا لماذا أعادت السماعة بعد رنة واحدة . ولم تفهم لماذا لم تفهم . أقامتها الحيرة عن الكنبة ، وخجلت من نفسها لهذا الجمود . يجب أن تفعل شيئاً يعبر له عن امتنانها وعرفانها ، هدية يفهم منها الوداع ، أو بضع كلمات بهذا المعنى .

انتبهت إلى اللوحة وهي تنهض . رمقت زوايا الإهداء الأربع . ولكن ، بحق السماء ، ماذا عنى بكلمتي خضراء كالبحار ؟ هاهي ذي نورما البدر تحيطها تلك الكلمات من الجهات الأربع . إنما ، بعد عشرة أيام يعود مهند ، ويتوجب على اللوحة أن تختفي . لتختف منذ الآن ، فمهند سيعتبرها خيانة لزواجهما .

ليس في هذا البيت مكان لتخبئة الأشياء . ولم يحدث من قبل أن خبأت عن المقدم شيئاً . بعد أن أنزلت اللوحة ، وقفت وسط الصالون ممسكة بها . إما أن تعيد اللوحة إلى مكانها ، وإلا فليس لها مكان على الإطلاق . هذه لوحة ؛ ليست ممسحة . لا توضع تحت ، ولا وراء .

مشت بها إلى الممر القصير بين غرفتي النوم والمعيشة . تناولت صورة أبيها عن الخوان الضيق ووضعت اللوحة . عادت بصورة المدير العام إلى الصالون ، وعلقتها في مكانها القديم .

لا تتذكر كيف أمضت الأيام الثلاثة السابقة لعودة المقدم . من هنا إلى هناك . صباحاً وظهراً ومساء ، حركة دائبة لا تهدأ التهمت حاجتها لأن تركن وحيدة في البيت . منذ الآن سيكون مهند أباها أيضاً وخط الاستواء الأمين في حياتها .

عبر هذا النسيج المتقاطع الخالي تقريباً من الفراغات ، امتد خيط معدني نحيل سحبها صباح الرابع عشر من كانون الثاني إلى بيت أمها ؛ وقبيل الظهر إلى مزين الشعر الذي أرهقته بملاحظاتها ؛ وعند الظهر إلى بيت رئيس التحرير ؛ وبعد الظهر إلى مرسم فراس نصار .

كان ذهنها صفحة داكنة ممسوحة . لا أسئلة ولا إدراكات . ضغطت على زر الجرس ، وترقبت . سمعت صوت مشيته على الموكيت ، واستغربت

بطأه المرهق . تهيأت .

" الباب مفتوح دائماً . " قال وهو يسحبه . ثم راح وجهه يتحول من الاسترخاء إلى الدهشة ، ويستقبل ابتسامة سريعة وادعة . مثل صورة بالأبيض والأسود انسربت إليها الألوان .

" هذه أنا ! " قالت . شفتاها تمتدان بابتسامتها العريقة وتمتلئان دون أن تنفرجا . يداها تشدان الجزدان على بطنها .

" أهلاً وسهلاً بأنت ! " ودار مع الباب ليفسح لها طريق الدخول .

" مفاجأة ؟ مزعجة ؟ "

" أعوذ بالله ! مربكة . "

تقدمت في الممر العاتم كأنها تمضي في بيتها إلى غرفة المعيشة . ثم انفتح أمامها المرسم بسعته وضيقه . جلست على الصوفا الوحيدة في المكان كله . وضعت جزدانها لصق لوحتين موكوءتين على ذراع الصوفا . وصل فراس وجلس على ذراع الكنبة الوحيدة .

" كنت أزور رئيس التحرير فقلت لحالي أزورك أنت بالمرة . "

" ليتك تزورين الدكتور صائب دائماً . "

" هكذا إذن ! قال إنك مسافر بكرة إلى فلورنسا . أنا والله نسيت أنك مسافر . لكن بما أنك آخذ معك تلك الرسومات ، قلت أعمل لك زيارة ، وأزيد فكرة صغيرة عن الذي كتبته عنها . يمكن تفيدك إذا عملوا معك مقابلات صحفية . أنا سيئة في استعمال اللغتين ، فلا تتضايق . الفكرة هي : حركة النمو في اللوحات ، صحيح هي ممتازة فنياً ، لكنها مغلقة . تبدأ وتنتهي حيث تبدأ . حركتها مثل حركتنا في هذه المدينة . دوامة . هذا هو ما أردت قوله . أنت قدمت فنية عالية فيها نمو ، وفي الوقت نفسه حالة

اجتماعية فيها اجترار . "

أحست أنها استنفدت قاموسها . صمتت مثلما تصمت مقامرة رمت على الطاولة بكل ما تملك ، ولم يبق لها سوى أن تحصي أنفاسها خوفاً من الخسارة .

كان فم فراس منضغطاً على سلامياته . رأى وجهها يتخلى عن كونه لحماً وتكوينات ، ويتخلص من أخطائه أيضاً ، يصير كلمات .

ماذا حدث بعدئذ ؟ ربما عرض فراس عليها جولة في مرسمه . وربما قالت أنها لا تريد أن ترى إبداعاته رؤية سريعة فهي تحب التأني . وربما عرض عليها القهوة فرفضت بدعوى أنها يجب أن تعود ، أو شراباً فرفضت بسبب السكر الذي فيه . وعرض أن يسمعا معاً شريطاً فابتهجت ثم استدركت : " والله هذه فكرة ، لكن أنا لازم أمشي . " وتناولت جزدانها .

قال فراس " رجاء خليك . "

توقفت يدها عن سحب الجزدان إليها : " تأخرت . لازم أمشي . "

" أنا أكثر من سعيد لزيارتك . خليك شوية . "

" ستعقد مناقشات فنية على هامش البينالي ؟ "

" لن تكون لها قيمة لأنك لن تشاركي فيها . "

" الذي صار لي مع لوحاتك شيء مثل بيضة الديك . أول مرة وآخر مرة" .

" لماذا لا يكون لك صفحة أو صفحتان في المجلة ؟ عندك رؤية فنية راقية . "

" لم يقل لي أحد من قبل هذا الكلام . "

" لا تنتظري أن يقال لك . أنت اكتشفي نفسك بنفسك . ها جربت عملياً وشفت . "

" خلني أمشي . " نهضت حاملة جزدانها . ظل جالساً . لم يتكلم . تصرفه الخالي من الكياسة جعلها تتلكأ تداركاً للموقف الحرج : " إذا اتصلت أمي بالبيت ولم تجدني ينشغل بالها . في مثل هذا الوقت كلهم يتوقعونني في البيت . "

مشت خطوتين : نهض . وقفت . مشت . وقفت : " بون فوياج . " ابتسما . تلكأ أمامها فارداً راحتيه على وركيه . مدت يدها لمصافحة وداعية . برودة يدها ودفء يده . بضعة ثوان . يدها المليئة النضرة على غير ما يظن ، الطرية الطويلة الأصابع . ويده الصماء ، المحتوية .

لم ترافقهما اللغة إلى الممر العاتم . كانت نورما مطلسمة . تخندقت الغيوم في رأسها من جديد . الروبوتات جعلتها تمشي . لماذا زارته ؟

مشى وراءها . قوامها النحيل وجزدانها المتقلقل . لم تلتفت . لذلك انفتحت سريرته على أشواق مبهمة . مشيا على أوراق تين تطايرت حول عري ساحر أحساه في تلك الثواني ولم يصدقاه .

أوغلت اللغة في غيابها . ثم خطوة نورما الأخيرة قبل الباب . هناك أيقنت أن حاجتها العابرة للأستاذ فراس خلال تلك الشهور الأربعة الناتئة قد انقضت . وهذه الزيارة الوداعية هي خاتمة امتنان وعرفان . الآن ستفتح الباب ، وبعدها ينغلق الباب . وداعاً . من يزعم أن الظروف الطارئة يمكن أن تنجلي عن شيء سوى التعلقات الطارئة ؟

مع خطوتها الأخيرة انبثق في ذهن فراس نفق مخنوق بالضوء . ووضع نورما في مداره : إذا فتحت هذا الباب وخرجت فذلك سيكون آخر عهده بها .

أمسكت يدها بالباب ثم أفلتته . التفتت نحو فراس مادة يدها للمصافحة . التقى خاطراهما عند بساطة نقطة مؤكدة : أورفوار ! لكنهما لم يتكلما .

كان جزدانها المتدلي من منحنى ذراعها ضوء مرور أخضر جعل خروجها طبيعيا . لكن فراس لم يفلت يدها . ليس لأجل البرودة الملداء في راحتها وأصابعها . بل بسبب جزع أصابه . لم تنتزع يدها ، خوفاً من أن يصير لذلك معنى لا تريده . سحبتها ببطء وثبات ، فأنهت بلا ضجيج موقفه العاطفي المسرف .

ياللمراهقة ! الرجال لا يكبرون أبداً عن السابعة عشرة . وفراس هذا عاش ثلاث سبعة عشر عاماً . أما هي فامرأة في السادسة والثلاثين . فات عليها التياث المراهقة . وأوان الحب أيضاً .

" والله شيء حزين أن تطلعي . "

ابتسمت :" هكذا إذن ! " فتحت الباب ببطء ، مسافة نصف متر . الرجاء الطالع من عينيه منعها من الخروج . ماذا تفعل لهذا الختيار الذي اختار معها بالذات أن يطلق العنان لمراهقته ؟ لم تتضايق . الأمر كله لا يتعدى إطراء شبيهاً بإطراء إهدائه .

أغلق الباب وكان يسأل نفسه بيأس : بحق السماء ماذا سأستفيد من ارتماآتي ؟

لم تغضب . فقط وجدت نفسها محتارة إزاء وضع جديد لا علاقة لها به .

لم يستطع أن يبادلها ابتسامتها الصابرة . هذه الراهبة المطوبة باسم رب بيتها ، ليس فيها ما يفعم الخيال حتى لو خلعت رداء كهنوتها ، ليس فيها ما يلفت الانتباه سوى ساقيها ، ليس فيها سوى ثلاث مليمترات من عمق اللحم هي كل الجمال الذي تملكه فوق عظامها .

" أستاذ فراس ، قلت لك أهلي يقلقون . "

رغم جفاف فمه تمتم : " تعرفين ؟ كنا ممتازين سوية في الشهور الأخيرة . " أمسك زندها . لم تخلص نفسها لئلا يعطي سلوكها معنى لسلوكه . إذا أراد أن يظهر إعجابه بها لحظة الوداع الأخيرة ، فلا بأس . إنها غير مضطرة للاستجابة .

قالت :" فعلاً كانت تلفوناتنا مريحة جداً لي . وأنا لن أنسى وقفتك معي في محنتي . "

قال : " لو لا مهند وعائلاتي ، كنا كيسين جداً مع بعضنا . "

أمسكت يده الأخرى بزندها الآخر . لم تتحرك . لم تفكر . رأت يديه طوقا لا حيلة لعقلها وجسدها به ويمنعها من الحركة . لم تخف . ولم تتحرك . فقط احتوت وجهه الأجعد بعينيها البحريتين .

قالت بوداعة : " أستاذ فراس ، أنت تدفع الأمور إلى أبعد مما تستحق . "

" أبداً . أنا أعتقد أني أحبك . "

مشى نصف الخطوة المتبقي بينهما وسحب جذعها إلى صدره . التصقا . استقر ساعداه على ظهرها ، ومرفقاه على خصرها ، وزنداه على زنديها . وألصق خده بشعرها .

قالت نورما لنفسها إن هذا الوضع الغريب سينتهي مثلما ينتهي مطر صيفي . فإذا تجمعت فيما بعد غيوم كانت غيوماً أخرى ، أو انهمر مطر كان مطراً آخر . عليها أن تصبر ريثما تنقشع ذراعا فراس عنها .

انفك عنها سنتمترات . يداه معقودتان على زنديها . لسانه يقول : " أعتقد أنني أحبك . " قبّل شفتيها قبلة خاطفة . " فعلاً . " تأملها .

همست هي بالتياع : " أنت لخبطت لي حياتي . "

تأملته . كلها أصداء وغيوم . لقد أغلقت فمها فعلاً . وظلت متثلجة . لكن " أنت لخبطت لي حياتي " ترددت وترددت في جنبات وجدانها . ثالثة وسابعة وألفاً . كأن نورما البدر لم تعد كائنا بشريا وإنما سلسلة من الجبال الشاهقة والوديان السحيقة ، و " أنت لخبطت لي حياتي " تتردد في جنباتها وتتردد ، تضعف وتقوى وتضعف وتقوى .

لا تعرف كيف وجدت نفسها في ذلك الممر الذي أفقدها كينونتها . بلمح البصر كانت تقف أمام المصعد ، مطرقة وتنتظر وصوله .

ظل فراس ممسكاً بالباب المفتوح زمناً طويلاً بعد اختفائها داخل المصعد . من كان سديماً ، هو أم ذلك الفضاء الصغير ؟ أغلق الباب بتؤدة . جلس على حصيرة الممر .

لو عرف أن هذا سيحدث لأحضر علبة دخانه . كيف سيجيب عن مسبحة من الأسئلة : لماذا تصرف هكذا ؟ لماذا قال ما قال ؟ هل يحب هذه المرأة حقاً ؟ كيف يقول " أعتقد " ؟ هل في الحب "أعتقد " ؟ يحبها ولا يشتهيها ! لقد ضمها إلى صدره فلم يحس أن لها نهدين ولا أنه يضم أنثى .

تذكر أن حقيبة سفره لم تزل فارغة . مضى إلى ركن سرير النوم . أخيراً أشعل سيجارة . رن الهاتف .

لحظة أغلقت نورما على جسدها باب السيارة انفلتت مكبوتاتها الشعورية المقنّعة . ليس أنها أمست واعية بمشاعر لا واعية . نورما البدر ليست من هذا الصنف . هي تعرف يقينا أنها لا تملك إلا المشاعر الواعية ، المعروفة ، المدروسة . لذلك ترجرج جسدها داخل خضمها الداخلي . راح يخفق ويرتعش . ولم تهدأ قدمها على دواسة البنزين إلا بعد أن مسمرت قوامها على الكرسي وقبضتها على المقود .

كانت القيادة هادئة . اختفت انفعالاتها على طول الطريق الصاعد المتعرج . فقط عندما أغلقت وراءها باب شقتها ، وصار بوسعها أن تستتر ، أسندت راحتيها على الخشب الكتيم وانهمرت أمام ارتعاشاتها ومعاصيها .

خلال دقيقتين أو ثلاث ، هدأت الطفلة نورما وهدأ الجسد .

تقدمت في الصالون . وضعت جزدانها على طاولة السفرة . تناولت السماعة . ارتاحت . أعادت السماعة فخرجت منها الراحة . التقت عيناها بعيني المدير العام . لماذا هي خائرة يا ترى ؟ ولماذا تفور أحشاؤها وتنكب ؟ رأت صورة المدير العام ولم ترها . جلست على الكنبة ولم تجلس . تاهت في الصالون .

طوت مسافات حتى وصلت إلى السماعة من جديد .

" مرحباً أستاذ فراس . جو ميكسكيوز . أنا مزعجة بزيادة اليوم . "

" أنت جميلة بزيادة اليوم . "

" اسمعني أولاً . وبعدها قرر . أستاذ فراس ، اليوم صار شيء ولازم نناقشه . "

" أنا تحت أمرك . "

" إذا كان حواليك ورقة وقلم ، اكتب عنوان بيتنا وتعال إليه . "

" بيتكم ؟ لماذا ؟ "

" لنتناقش ! أما قلت موافق على أن نتناقش ؟ "

" بلى . لكني خائف من المجيء إلى بيتكم . "

" ما له بيتنا ؟ في مكان عام مستحيل . الحكي الذي حكيته اليوم أنت ، خطير . أنا شايفة أنك تماديت ، وخرقت الحدود . ونحن لا زم نرسم الحدود من جديد . "

" نحن يمكن أن نترك الموضوع يموت بأرضه وخلص . "

" لا أستاذ فراس . تصرفك لا يمر بهذه البساطة . من فضلك خذ العنوان . "

" من نبرة صوتك واضح أنك غاضبة . . . وفي نيتك أن تسمعيني كلمات توبيخ أو إهانة . "

" أنا تربيتي لا تسمح لي ، أستاذ فراس . من فضلك خذ العنوان . "

كانت سيارته في المستشفى للمرة الثانية خلال أربعة أشهر . الدقائق التي أمضاها بانتظار تاكسي بددت الكثير من ضيقه وغم قلبه . لماذا قال لها إنه يحبها ؟ على أية حال ، سوف يتحمل عاقبة اندفاعاته الخرقاء .

صار كل شيء غريبا وموحشا عندما وصل إلى البرج الإسمنتي النافر وسط بيوت طينية وطيئة . إنها أول مغامرة في حياته يعيشها بهذا الحد الأدنى من اللهفة ، هذا الحد الأقصى من الأسى .

في الطابق الثالث عشر وقف أخيراً . هذه الشقق الحديثة مصممة لإنتاج الكآبة وبثها .

ثلاث دقات على الباب الخشبي السميك الصقيل . ثم ثوان من الخماد المطلق . صمت كالإسمنت . صوت مفتاح يتحرك في قفل الباب . الباب ينفتح ، وفراس يغتلي ، ووجه المتفحص يطل من وراء الباب .

لم تدعه إلى الدخول . فقط فتحت الباب باتساع كاف . كانت ترتدي ملابس منزلية من نوع ما (لم يعد أحد منهما يذكر سوى الكمين القصيرين) . دخل ولم تدعه إلى الجلوس . وقف بين طاولة السفرة وتربيزة الهاتف بجوار كنبة . جلست على كرسي ؛ فجلس . الدرجة العليا من الصمت . عقدت ذراعيها على حجرها . ورفعت كتفيها قليلاً بسبب البرودة . وانتظر هو أن تبدأ الحوار .

احدودب كتفاها قليلا . لكن نظرتها بقيت مستقيمة . سربلت وجهه بدعوة لأن يقول شيئاً .

أثبت على وجهها نظرة متوقعة وراضخة . أما آن لها أن تتكلم ؟

قالت بجفوة : " قهوة أو شاي ؟ " تمتم : " قهوة مهيّلة . "

نهضت وابتعدت . لاحظ مشيتها . مثلما أن هناك فرقاً في التكوين بين جذعها المضمحل وبقية جسمها الفارعة ، هناك فرق بين القامة نصف المحدودبة والمشية " السكرتزو " السريعة .

غابت نورما فظهرت لوحته . إنها في الصدر من ذلك الصالون الفسيح ! مشى إليها .

شم رائحة القهوة فالتفت . يدا نورما ممدودتان بصينية عليها فنجان

واحد ! وجهها مقطع الأواصر . تناول الفنجان وعاد إلى كنبته . جلست هي على الكرسي . اعتقلته عيناها الكبيرتان .

أوشك الفنجان أن يفرغ . تناول فراس حسوة أخيرة ونهض . لا جدوى من مراعاته لصمتها وترددها . ابتسم ابتسامة صفراء وهيأ نفسه للخروج : " أنا عندي سفر الساعة السادسة صباحاً . ولم أضب أغراضي حتى الآن . "

وقفا قامة لقامة في ذلك الأصيل . كانت حزمة شمس حمراء طولانية تشعشع من شق بين الستارتين . وكان وجه نورما أخرس ناطقاً . خطا خطوة ولكن نحو نورما نفسها . وللمرة الثانية ذلك اليوم لف ساعديه حول ظهرها وشدها إلى صدره .

أحس أن جسدها أخرس أيضاً . غير أنه لم يبال . شدها إليه وأغرق أنفه ووجهه في شعرها . حتى عندما نبر صوتها الثلجي الزاجر : " أستاذ فراس ! " استمر يشدها إليه .

أرخى ذراعيه قليلاً وجعلهما طوقاً حولها . ظلت يابسة . " أستاذ فراس ، أنت مجنون ؟ " طأطأ ولف ذراعيه عليها . فاجأه أنها ليست مجرد مليمتر من اللحم ممدود على هيكل عظمي . فحيث سقطت أصابعه وانطمرت ، أحس ملمس سمكة بحرية كبيرة وطازجة . جثا على ركبتيه ملثماً وجهه ببطنها ونافثاً انكسارات حياته خارج رئتيه وفوق ذلك النجد الصغير الذي هو سرتها ، ثم نهض بها ورفعها في الجو .

مرفوعة إلى سماء الصالون ، أحست نورما أنها استبيحت تماماً . جميع الروبوتات فارقتها وخذلتها دفعة واحدة . وها هي ذي : امرأة ، زوجة ، سيدة في السادسة والثلاثين . . . يرفعها في الجو مراهق عمره سبعة عشر عاماً كأنها طفلة عمرها عشرة ! يرفعها ويرعبها من أن أية حركة تتحركها

ستوقعهما على الأرض . لأنه وهو في الخمسين فعل شيئا لم يفكر مهند أن يفعله خلال أربعين عاماً . لقد جعلها بلا مقاومة .

كل ما أمكنها أن تفعله هو تسمير راحتيها في كتفيه . أرجعت جذعها إلى الخلف . من بين ذراعيها مد رأسه . وألصق وجهه بقوسي أضلاعها ، أغمض عينيه وصار طوداً .

لأنه هدأ ، ولأنها أحست برسوخه ، أخذت قبضتاها تخبطان رأسه وكتفيه ، وكندرتها ركبتيه . ظل طوداً . مثلما أحس وهي في مرسمه أنها إذا أخرجت فذلك سيكون آخر عهده بها ، أحس وهو في بيتها أنه إذا أنزلها فسيكون ذلك أخر عهده بها أيضاً . إلى أن هدأت تماماً ، وجاء صوتها يقول بالفرنسية : " أتوسل إليك أنزلني . " وكانت قبضتاها مسترخيتين على كتفيه ، وكندرتها على أعلى ركبتيه .

ظل ينزلها نيفاً وثلاثين ثانية . ولحظة لا مست قدماها الأرض ، سقطت كتلة واحدة ، دفعة واحدة ، فتلقاها الكرسي .

وقف فراس إلى جانبها الأيسر . شعرها القصير الشبيه بالأدغال انشطر إلى اليمين واليسار كاشفاً عن عنقها النحيل الضئيل ، ومغطياً يديها اللتين لبستا وجهها . ولم يدر ماذا يفعل . صرخ فيه صوت عميق يأمره بأن يوقف عنها ذاك الحزن .

كانت ترتعش كأنها زبد تحمله عاصفة . طأطأ قليلاً وأوكأ رأسها وجذعها إلى جسمه وصدره . استكانت . تهدلت وأسلمت رأسها ليده ولصدره . أحس أنها تمسكت بيد أبيها لتمنعه من الرحيل .

لو أنه يصنع تمثالاً لهذا الوضع ، مثلما صنع رودان تمثالاً للقبلة . مد

يده واحتوى نهدها الأيسر . امتلأت به قبضته ! اندفعت يدها لتبعد يده . لم تستطع . تراكضت الثواني . ولم يعد بوسع نورما أن تعرف بالتحديد أهي تشد يده عنها أم عليها .

انتفضت ونهضت . غمغمت بحذر : " أستاذ فراس ، أرجوك امش . "

ضمها للمرة الرابعة ذلك اليوم . كانت خائرة . مرر يده تحت الأذن ، ثم تحت الشعر المتعارم على عنقها . لم يكن عراك . لكن شفتيها اندرزتا إحداهما بالأخرى فأعجزتا شفتيه . عبثاً تماماً حاول اقتناصهما معا ، أو فصلهما الواحدة عن الأخرى لتنفرد شفتاه بأي منهما . لم تقاوم . لم تستطع أن تقاوم . لكنها تأبت .

أخيراً قبلّ شفتها العليا . كرسام ونحات ، أحس بروعة الشفة ، ولكن ليس كعاشق . لم تستقبله الشفة . التقط السفلى . وكانت أبدع تجسداً . كانت تماماً ما يحتاجه الحس كي يستنطق الروح .

وعندما اختلجت قليلاً بين شفتيه ، استنهضت روحه فنهضت . اختلاجات خفرة .

لم تستمر تلك القبلة إلى الأبد .

دارت نورما ووقفت وراء الكرسي . عقدت ذراعيها من جديد وارتفع كتفاها ابترداداً . بهدوء رصاصي قالت : " اقعد . جئت لتحكي وما حكيت . "

قال بشبه توسل : " نحكي في أي شيء ؟ لا أطفال صغار نحن ولا مراهقون . شفت بعينيك . . " " أستاذ فراس ! " ثم انطبق فمها . دفدفت عيناها .

ظلت تحدق إليه . كأنها تتيقن من وعي ما . عادت نظرتها الهادئة الخالية من الغضب ، بل ومن الندم أيضاً . كأن أجوبة هنيئة قد أعطيت لها عن أسئلة مرمضة .

" نورما ! " لأول مرة : نورما ، مجردة . " نورما ، أنا متفاجيء مثلك وأكثر . لكن الشغلة واضحة . ألا ترين ؟ واضحة تماماً . وأنا في عمر ، ما عاد يسمح لي بالتهور . ولا بالتجرؤ . لكني فعلاً وأنا وسط قدسية مؤكدة ، في هذه اللحظة ، كأنني اسكب تمثالاً ، أعتقد أني أحبك . "

بالكاد وصله صوتها : " أرجوك اطلع . "

أنعشه الحنين الحنون في صوتها ، وأحبطه . التفت ورأى اللوحة . لم تمنحه عزماً ولا قراراً . "أرجوك . " لأول مرة يتفق وجهها ولسانها على لغة واحدة . وعرف أن نورما أمست مسؤوليته .

انفردت أعصابه . تمتم معابثاً : " الطقس برد ، وأنا بالقميص ، والمكان مهجور . ألا توصلينني ؟"

هزت رأسها بالنفي القاطع .

" لسعة برد واحدة وتلتهب لوزتاي . والله العظيم . "

" أحسن ، إذا التهبتا . اطلع . "

تحرك في اتجاه حسب أنه يوصله إلى الباب . قالت وأشارت : " الباب من هنا . " رفع حاجبيه هازئاً من تعثر ذهنه .

أدارت المفتاح في القفل . أخذت تفتح الباب . التفت إليها بحيوية مشاكسة : " أعتقد أني أحبك . وأرجو أن تتذكري هذا . "

ثم غاب . أغلقت الباب بأناة . وكذلك قفلته . عادت . قذفت الكندرة من قدميها ومشت حافية . متصالبة الذراعين ، خطت في الصالون خطوات لا وجهة لها . أين هي الروبوتات ، وأين جسدها ؟ أين عيناها ؟ وأين عقلها ؟ في قدميها الحافيتين برد ، وفي رأسها المحجب تنور .

الجدار ذو الستائر . شقت فيه فتحة ونظرت . هناك كان هو : ينتظر مرور تاكسي ، وجهه ملتفت يساراً . والمطر . المطر ينزل رذاذاً . سطعت الكهرباء فجأة . نفرت يداها عن فتحة الستائر .

تمشت في الصالون . اكتشفت أن حلقها جاف كالخشب . موجة من العياء تفشت في جسدها . وضعت راحتها على جبينها وفوجئت . كيف تتعرق امرأة في هذا البرد !

بسرعة غير معقولة أخذت بشرتها كلها تنز عرقاً . ظهرها وإبطاها بشكل خاص . وراحت أطرافها وحنكاها يرتعشان . مشت أيضاً . تفاقم الخور في صدرها ، وخوت دفعة واحدة . كأن الرئتين صعدتا إلى حلقها ، والقلب هوى نحو حضيض بعيد . أما أضلاعها فأخذت تنكفئ وتشكل رأساً مدبباً ينغرز باتجاه القلب ويستل روحها .

توقفت وسط الصالون . كل هذه الحالات دفعة واحدة ! رجفان ، حرارة ، برودة ، تعرق ، دوار ، جفاف في الحلق ، فك يضرب بفك ، غثيان ولعية ، وانهيار شبه كامل لضغط الدم . . . وفوق هذا ، جميع الأفكار والتذكرات والصور ودقات الساعة تراكمت على التخم الأعجر الذي يقيمه المجهول حول الذاكرة . . .

مشت إلى الهاتف . " ما ما أنا تعبانة . . . ضغطي نازل . . . يعني ، تقريباً مثل حالتك لما أدخلناك المستشفى . . . لا لا ، لا تخافي . . . لكن

أنا ماشية إلى المستشفى . . . لا ، لن أنتظر . . . سأصل إلى الإسعاف بسلامة . أنا متأكدة . . . الحقيني أنت وبهجت . . . بعد شوية تصير حالتي أسوأ . . . لا تخافي على . . . "

حلت في غرفة الإنعاش ثلاثة أيام . كانت السيرومات والأنابيب الصغيرة تملأ الغرفة وجسدها عندما زارتها سميرة في اليوم الثالث . ستين ساعة ظل جسمها يرفض الطعام . خمسين ساعة ظل قلبها يرفض الإذعان للحياة . أجبره الأطباء إجباراً على الحركة ، مندهشين من هذا الموقف المدمر الذي يتخذه قلب لا علة فيه .

لكن سميرة التي سمعت جميع التفاصيل قالت وهي تهزهز رأسها : " نورما يا عزيزتي ، أنت بالتأكيد في حالة حب ! "

الفصل الثاني

المطر

ستة أيام بعد 14-1 ، آب المقدّم مهند من " ضيافة " الإسرائيليين .
كان المطار يغص بصحفيين متهيئين لمقابلة الأسرى العائدين من قبرص بطائرة خاصة . لكن نورما لم تكن هناك بهذه الصفة . بل ولم تنتظر أمام باب خروج القادمين ، لئلا تلتقط صورها مع مهند فتصير مضغة العيون في جرائد اليوم التالي . قبعت عند آخر عند طريق الوصول ، راضية بغربتها المستترة . راقبت غروب الشمس عند أفق البحر الصافي ، وانتظرت إطلالة مهند . كان قد نحل قليلاً فبانت قامته الطويلة أطول . وتمددت لحيته الفاحمة ، فعوضت النقص الخطير في ناصية شعره . بهدوء مد ذراعه حول ظهرها . وبهدوء مدت وجهها نحو شفتيه . وبلا توان استدارت ومشت إلى جانبه . كانت السيارة قريبة . لذلك سمحت نورما بقلة التهذيب تلك . وقبل عدة أمتار ، تحررت وهمست بمرح : " استح يازلمة . " فتحت أبواب السيارة وناولته المفاتيح .

جلس على كرسي القيادة وشغّل السيارة . وحوح بغبطة : " من زمان ! " وانطلق .

من المطار إلى البيت تقاطع حديثهما بين حكايات سجنه وأخبار الأهل . إن كون أبيه مواطناً من حيفا هو الذي جعل الإسرائيليين يستبقونه كل تلك المدة ، رغم أنه ولد في صور لأخوال لبنانيين وصار لبنانياً .

ثم البيت . أخرج المفتاح وفتح الباب . دخل . ألقى نظرة شاملة على البهو : الصالون ، طاولة السفرة ، صورة المدير العام في صدر اليسار ، الستيريو إلى اليمن . . . ابتسم . مشى قريراً إلى كنبة وارتمى عليها . " اشتقت لقهوتي ، أكيد ! " قالت نورما باعتزاز . رن الهاتف . صاحت : "يسألون عنك . رد على التلفون وأنا أعمل القهوة . "

شرب القهوة وتلك التفاصيل مرة أخرى . ورنين الهاتف مرة ومرات . بالكاد تدبر وقتاً لكي يستحم ، قبل أن يجيئوا . كان لسان نورما النشط تكفل بنقل جميع الأخبار عن حياتهم في الأشهر الخمسة الماضية . لحقت بمهند أينما تحرك . تفقد البيت ، وهمهم إعجابه لأن كل شيء في مكانه المعتاد . هي تروي وتروي ، وهو يهتف بحبور للقمصان المكوية كلها . . . والبدلات . . . وحتى الصبابيط . . . "وحتى الجرابات ! يا إلهي ! . . . وشنطة مهندس جديدة ! يا سلام ! "

" والآن إلى المطبخ . ما هي مفاجأتك الكبرى ؟ "

" لا مفاجأة ولا شيء . " وأسرعت تشرح لئلا يتضايق : " حظروا علي أطبخ . قالوا سيجيئون ومعهم الأكل . "

" يعني ، أنت لم تطبخي لي ! ؟ " سأل باستياء كامد .

" أف منك ومن إلحاحك ! يارب تستر ! حضرت طبخة . . . ارتاح خاطرك ؟ لكن لن أطبخها الآن . "

" المهم أنك حضرت . شوشبرك حتماً . " نبر بثقة سعيدة وشدها بيسراه إلى صدره .

رن جرس الباب .

خلال ربع ساعة تحولت الشقة إلى محطة قطارات . وخلال ربع ساعة ثان تلاقت القطارات عند طاولة السفرة وحولها . وأنشئت " أرصفة " صغيرة إضافية لثمانية عشر طفلاً وطفلة قنعوا بتربيزات متواضعة . امتنعت الأمهات عن إطعام أولادهن بأيديهن ، كرمى لمهند .

كل طعام ممكن كان هناك ، كل حساء وحلوى وسلطة وفاكهة . وكالعادة منذ ألفي عام ، تمازجت سعادة اللقاء الجميل بغبطة الأكل الهنيء . قبيل أن يحدث الشبع وجدت نورما أن صوتها ربما يبح لكثرة ما صاحت : " ياجماعة ! اتركوه يومين ثلاثة على نحافته ! " وكان ردهم أن دفعوا نحو مهند بمزيد من الطعام .

أنصت الجميع إلى ذكريات السجن والتحقيقات وصمود مهند أمام شراسة الاستجواب . كان الصمت مطبقاً . تخللته فقط لعنات مقتضبة صبت على المعتدين الغاصبين . . . وهدية من صادق ، وأخرى من بهجت وثالثة من الخال نعمان ورابعة وثامنة . . . وصاحت نورما بغبطة فخورة : " يا جماعة ! " ونبرت شادية زوجة الخال : " شايفة ؟ يعني إذا رجع السيد مهند إلى السجن لن يلومه أحد" .

ثم خلا البيت بطرفة عين . لملمت النساء الصحون والبقايا وحملنها معهن . ولم ينس عدائل مهند الثلاثة أن يغمزوه وهم يتركونه : إنهم يسرعون هكذا بالمغادرة ، فلا شوط ورق أو شوط نرد ، لكي يقوم بالواجب ويغترف من وليمة لم يذقها منذ خمسة أشهر .

أخيراً . هاهما في الصالون ، جالسان تحت صورة المدير العام ، يتبادلان ابتسامة الانفراد .

قالت نورما بحنان : " أنت تعبان أكيد . من السفر ومن كثرة الأكل . " وقفت أمامه : " قم . بيجامتك على السرير ، جاهزة . " نهض وهتف مداعباً : " وأنت باين عليك التعب ." تمطى أمامها وأمأم ورفع ذراعيه في الهواء .

هي حقاً متعبة ، مثلما قال . وغريب أنها لم تنتبه ، وإلا لتهيأ لها في برهة خاطفة أن ذراعيه الممدودين في الهواء ستهبطان إلى خصرها وتلفانه .

أمسك بيدها وقادها إلى الجناح . تبعته . فك أزرار ملابسه . أسرعت ترمي قميصها ، وتنورتها ، ثم نهديتها . تناولت بسرعة بلوزة بيجامتها الليلكية لتسبلها عليها تمهيد لنزع معورها . " لا تلبسي البيجامة ،" جاءها صوت مهند الهاجع . تلكأت . كانت تقف إلى اليسار ، بين المزينة والسرير . وضع سبابته على أنفها وفركه مداعباً . قالت : " لكن أنت تعبان . " فهتف : "خسا ! " وتابع رمي ملابسه .

ظلت نورما واقفة . نظر إليها بمحبة مستغربة : " تظنين شوية تعب تؤثر فيّ ؟ فرشي أسنانك . "

لم تتكلم . كانت قد نظفت أسنانها قبل خروجهم . أنزلت معورها . صعدت السرير واندست تحت اللحاف . زحفت حتى توضعت على الرقعة المخصصة لها إلى اليمين ، مفسحة الاتساع الأكبر لقامة مهند .

أكمل مهند نزع ملابسه . وضع البدلة والقميص على العلاّقة . ورمى

النبقية على السجاد . قال : " حلوة الحياة العائلية . شوفي ، كلهم جاءوا . وحماتي ! حماتي أم عظيمة . "

أطفأ النور . أحست بجسده في الظلام الدامس يندس تحت اللحاف مواجهاً لها ، وسمعت كلماته الدافئة : " اشتقت لك . " أحست بذراعه اليسرى تسري تحت عنقها وتسحب جذعها إليه ببطء . بقي حوضها في موقعه . مد ذراعه اليمنى إلى وركيها وضغط قليلاً . حركت حوضها نصف حركة .ضغط ثانية . تحركت ثانية . وتلقت امّساح أصابعه عليها ، ظهراً وخصراً وردفين .

ألصق جسمها بجسمه . " مئة مرة قلت لك اسمني شوية . " " لن أسمن . أنا شكلي عاجبني . "

ضمها إليه وشدها ، مثلما توقعت . مسح حوضها وظهرها بيده . رمى فخذه على فخذها . وضع شفتيه على عنقها . بذراعه اليسرى شدها إليه . وتابع ذراعه الأيمن سرحانه عليها .

همس : " اليوم أي يوم في دورتك الشهرية ؟ " مقتها السؤال . قالت : " الخامس عشر . " غمغم بإحباط : " يعني . أمل ضعيف . "

كانت ذراعها ممسوحة على ظهره العريض الأمسح ، وجسمها متعلقاً بجسمه . صممت على ألا تدع حديثه يهبط بغبطة جسدها في هذه الثواني القليلة الجميلة من الملامسة . فبعدها يتخذ مهند وضع الجماع ، وتنحسر تلك الغبطة كانحسار مياه البحر عن رمل الشاطئ .

تهيأ جسم مهند للانقلاب فاستلقت على ظهرها . بأناة باعدت ما بين ساقيها . تلقت انضغاطه الأول عليها بفرح امرأة لهفت إلى الخلاص من

احتقانات مكتومة . مع الانضغاط الثاني عاد جسمها إلى حجمه الطبيعي الخلي . همد . غادرته الفقاقيع ، وحلت الراحة والهدوء والبرء محلها .

عليها الآن أن تساعد مهند في مهمته . السلام والدعة اللذان حلا في جسمها ، يجب أن يهيئا له سبيل انطلاقته . فها هو معيار انفعاله يبدأ بالارتفاع : الانفراك المتتابع الرقيق لوجهه بعنقها وشعرها ، وجسمه يزداد انضغاطاً ورسوخاً ، ويده تستأصل قمة ردفها . إن شهوة مهند جارفة السيل وخانقة ، ولا يمكن التخفيف منها ولا الوقوف بوجهها .

عنى اغترافه لها أن الدور الخاص بها قد جاء . مدت يدها وأولجته فيها . أعادت يدها إلى حيث كانت . أرختها على ظهره وأطلقت له حرية الفعل والحركة . . . دون أي تدخل يلخبط برنامجه . إنه يحب أن ينفرد تماماً بجسدها في تلك الثواني الثمينة القليلة ، فهو رجل شبق وعدواني . لا يحب تدخلها في ما هو تخصصه المطلق بحكم الطبيعة .

ها هي ذي حركة مده الأقصى تستمر ثانيتين كاملتين ، قبل انجرارها الأخير وتدحرجها . وفي النهاية خروج مهند وخروج سائله .

يخرج . يطحر طحرة أخيرة . تنتعش نورما باستعادة جسمها ؛ رغم قرب المنفى . لم يبق سوى انزياح الوطأة عنها . فم مهند الفاغر يسند قوس شفتيه الأيسر على قوس عنقها الأيسر ويطلق لهاثه المتتابع المحتدم . تنتظر غير متضايقة . هي تعرف ، لذلك تنتظر . فدائما ينزلق جسمه عن خاصرتها اليمنى إلى السرير ، ينزاح بالتدريج ، على مهل . يغادرها فخذه الأيمن . ينسحب ذراعه من تحت عنقها . ينقلب كله على ظهره . يضع راحتيه تحت رأسه : " آهخ ! " انتهى .

تجلس نورما . ترسم فخذيها زاويتين منفرجتين . تنتش أربع ورقات كلينكس وتمسح بها السائل الذي نز عائداً من داخلها إلى السرير . تمسح الشرشف بأربع أوراق أخرى .

" قائمة لأخذ دوش ، " تقول لمهند الذي يغمغم : " أقم . " تضيء نواسة .

تفتح ماء السحاح إلى أقصى انهماره . تنصب جسمها تحته كوتد في سكون مطلق . ثم تتحرك قليلاً فقليلاً . تغسل ذلك المكان جيداً لكي لا تبقى عليه ذرة دبق واحدة . ثم تترك الماء يسح عليها من جديد ويمضي بعيداً باحتقاناتها . تعود . تقول لمهند الذي ما زال مستلقياً على ظهره : " قم تدوش ، لأغير الشرشف . "

نهض بلا اعتراض . مضى إلى الحمام .

بعد هذا يضطجعان ثانية على السرير . متواجهين في الظلام المستعاد . كل منهما يبتسم للآخر . يدها اليسرى على خصره . يده على زندها . ثم يأتيهما ذلك الضباب المسمى نعاساً . تستدير نورما وتواجه النافذة المجللة بستارة سميكة ممتدة على طول الجدار . ويعود مهند للاستلقاء على ظهره . لم يعد يلهث .

خلال بضعة أيام ظهر الفرق واضحاً . غاب عن سلوك نورما الخوف المبهم من أن تخطئ أو تسيء . صارت أقل تجادلاً مع سميرة وأكثر حسماً . وصارت أكثر استغناء عن رئيس التحرير . "شيء ثان ، وجود مهند ، " قالت للدكتور صائب ، وأضافت : " مهند مسند ظهري . " لم تحبط رغبة واحدة لأولاد أخواتها وأخويها وخالها ، ولكن بنظام صارم وعقلاني ، حتى مهند لم ينج منه . أراد أن يرتاح عدة أيام قبل أن يلتحق بالثكنة ، فصار لسانها

كالمبرد : كيف يعطيهم فكرة فظيعة عن كونه متراخياً وغير دؤوب ؟ يجب أن يبدو عليه شوق طبيعي إلى عمله .

وإذ راح ينعم بالولائم التي أقاموها له كل يوم فرحا بعودته ، خاضت مع الجميع معارك لا هوادة فيها لئلا يزيد وزنه بفعل حبهم له .

وكانت النتيجة أن زاد وزنه خمسة كيلو غرامات في عشرة أيام ، وتعب لسانها من الاعتراض ، وزاد وزنها كيلوين هي الأخرى .

أدراج الرياح أيضاً ذهبت محاولاتها الملتوية المتوسلة أن تثنيه عن ممارسة حقوقه الجنسية كل ليل .

" أنا لا أفهم ضيقك منها ! كلها ثلاث دقائق ، لا أكثر . "

" لكن كل يوم ، كل يوم ؟ "

" بدل أن تكوني ممنونة . كل يوم أنام معك . "

غير أن مشاكسات من هذا النوع لم تكن تهم حقاً . زاد وزنه ، زاد وزنها ، تلكأ في شغله ، زمجر من ربطة عنق معينة غير جاهزة للاستعمال . . . هذا كله لا يهم . المهم أنه موجود ، وأنه دائماً راغب فيها . في هذا الجو من الأمان والعزم ، تحدث إليها رئيس التحرير : " منذ ست سنوات بدأت عملك في الصحافة . ألا يخطر لك أنه آن أوان الترقية ؟ "

" أنا متلهفة للترقية ، دكتور ، لكن كيف وشغلي ليس فيه تطور ؟ "

" يعني لن تتركي الصحافة وتتفرغي لمهند . "

" لا ، الله يخليك . إذا تركت شغلي أموت . "

" هذا يشجعني على الحديث . دراستك عن لوحات فراس كانت

ناجحة . دراسات قصيرة مركزة من هذا النوع ، بأسلوب مزيج من الصحفي والأدبي ، مثل الذي استعملته ، وبعد سنة تصيرين رئيسة قسم . " غمغمت بوجوم : " الذي كتبته عن لوحات الأستاذ فراس ، شطحة ولن تتكرر . شيء مضى وانقضى . "

" اكتبي عن أي شيء تريدين . جلساتنا الأسبوعية ، هي وسيلتك للترقية . "

لم تجب بشيء . تناولت جزدانها بابتسامة وديعة : " لازم أروح للبقالة اليوم . اليوم لم أطبخ له ! تصور ! " وخرجت .

في زحمة الحياة وتبددها ، وقصص الحب العميقة الضائعة ، والأشواق التي تندحر أو تندثر دون أن يدري بها أحد ، كيف التقى الذئب المتوحد والقديسة المطوبة بعد 14-1 ؟

التقيا في المجلة . تبادلا السلام والمصافحة ، وجلسا إلى طاولة الشغل . ودمدمت سميرة : " أنا ضجرت من غيابكم . أسبوعين ولا أحد حولي أتخانق معه ." أنجز الثلاثة عملهم ذلك اليوم ، ثم في اليوم التالي . لكن نورما وفراس لم يلتقيا . كانت مغلقة تماماً . وكان محايداً تماماً .

ويوم جاء إلى المجلة ومعه كاريكاتير العدد التالي ، سمع أحدهم يقول أن زوج نورما البدر قد عاد من المعتقل . لم يكن الخبر بذاته مفاجئاً له . فقط أحس أن ١٤-١ قد صار ذكرى . خلال الأيام التالية أدرك أن ذلك اليوم قد جاء ضد كل منطق . لقد وعى ذلك في فلورنسا وهو يمارس الحب مع الإيطالية ساندرا . فبعد أن أفرغ فيها وعليها كل طاقات الروح التي في بدنه ، لمعت نورما في الذاكرة . هز رأسه بإشفاق هازئ : كيف قال " أحبك " لامرأة لا تقارن مجرد مقارنة مع هذه الحميراء الطافرة ؟ بل كيف سيمكنه أن يحبها وهو يعرف أن هناك مليار امرأة أجمل ؟

ثم عاد إلى أولاده وأمهاتهم ، وشوارعه ومقاهيه وحاناته . هناك هجع . التقى أولاده واصطحبهم . ضايقه الانسداد المزمن في علاقاته مع مطلقتيه وزوجته . التقى نورما مرتين ، ثلاث . تأكد أن حيطاناً متتالية قد نهضت خلال أسبوعين بين وجهها ووجهه . حقاً هما لم يلتقيا . لقد غاب الأنس والارتباك اللذان رشحا منها أيام المطر . بقي فقط تهذيبها ورسميتها .

أخيراً . ذات ضحى وقف قرب مبنى المجلة ينتظر مرور تاكسي . بعد ثوان خرجت هي بسيارتها من مرآب المبنى . واضطرتها كثافة المرور للتوقف تماما بجانب ركبتيه . ربما لأن الغيوم كانت قد بدأت ترش الفضاء بالرذاذ ، لم ينتبه أحدهما إلى الآخر . وربما لأن المدينة لا تحفل دائماً بمشاهد الغربة هذه ، التي يكاد يتلاصق فيها الناس .

تحرك المرور قليلاً ثم وقف . رآها ورأته . رأى ركبتيها فطأطأ ليتفقد صاحبتهما ، فرأته . حيته بابتسامة وإيماءة . وضربت قبضتها على الزمور مرتين عصبيتين تستعجلان تحرك السيارات . فوجئت به يقرفص أمام شباكها ويقول : " كان هناك أناس ذات يوم يعرضون على توصيلة بالسيارة . " رأته مبتذلا . قالت بشبه ابتسامة مجففة : " متأسفة أستاذ فراس . مهند ينتظرني في البيت . "

ظل متكوماً . راح يرقب المشهد المحتشد والناس العابرين .

تأرجحت أعصاب نورما بين الغضب والضحك . الضحك لأنه بدا هكذا مثل الشمبانزي . والغضب لأن أحداً لو رآه وأخبر مهند فستكون وقعة سوداء . ضربت زمورها من جديد ، ولكن بلا جدوى . ولكي تضع حداً للمهزلة ، سألته بأقصى ما لديها من جفاف : " طريقك إلى أين ، أستاذ

فراس ؟ " وللتو أجاب : " لأشتري بيجامة رياضة . " نظرت إليه وهي توشك أن تنفلت بالضحك : ختيار متهالك ، ويريد بيجامة رياضة !

أخيرا التقيا . وسط زحام صاخب حولهما وغير معقول ، حيث الغربة والإلفة ضدان متلامسان ، جلس هو إلى جانبها بعد خمس ثوان من سؤالها . شبكة مثيرة من أشعة الشمس وأشعة المطر . وبينهما مسافة خائرة .

لم تشأ أن تكون فظة ، فسألته : " سيارتك في المستشفى ؟ "

أجاب بلا انفعال : " مع ابني مروان . هو وصديقته . "

عندها رأت أن السكوت فعلاً من ذهب . انعطفت يساراً وانطلقت في شارع خفيف الزحام . ثم في آخر مزدوج المرور . لم تتكلم . لم يتكلم . وشارع ثالث . أخيراً قالت تأدباً : " كيف كان معرضكم ؟ "

أجاب بهدوء : " يعني . لا بأس . عملت معي مقابلتين صحيفتان سخيفتان لا يقرأهما أحد . "

" ساسوفي ! لا تظلم نفسك بلا داع . "

" أنا واقعي . الذين في عمري صنعوا لأنفسهم أسماء وارتاحوا . إذا لم يصنع الفنان اسماً حتى الخمسين ، فمتى يصنعه ؟ "

" أنت تنقصك العلاقات العامة . لكن من يعرف ؟ قد تأتيك الشهرة فجأة رغم شيخوختك ."

" شهرة أو غير شهرة . أنا يهمني أن تحبيني . لا تهمني الشهرة . "

" لمن تريد بيجامة الرياضة ؟ أنت تمارس الرياضة ؟ "

" لا أحب المشي في المدينة القديمة وأنا بالصباط والبنطلون . "

صمتت . نظرت أمامها بإصرار .

أمام مخزن للأدوات الرياضية ركنت السيارة . نظرت إليه منتظرة خروجه . تجاهلت نظرته التي رشقت وجهها بالعتاب .

" تريدينني أن أفهم أن ما صار يوم 14-1 لم يكن حقيقياً ؟ أنت نسخته من الذاكرة ؟ "

" كان حقيقياً جداً ، أستاذ فراس . وأنا أحاول أن أنساه حتى لا أحتقرك . "

انسدت مجاري كلامها باحتقان مباغت . لكن عينيها لم تضيعا الوقت . كل ما استطاعتا استنهاضه من ازدراء وإدانة ، نقلتاه بصمت إلى وجه فراس وعينيه . وعندما أمكنها الكلام من جديد ، قالت : " أنا وثقت بك ، وأنت استغليتني . جئت أزورك للشكر والامتنان ، فراودتني عن نفسي . "

الاحتقان من جديد . كان ضروريا أن تصمت بحزم حتى لا يتسلل انفعالها إلى صوتها . وأثناء ذلك تمنت لو أنها تصير زرنيخاً وتنصب على هذا الوجه الغادر الذي شحب أمامها .

ثم : " دعوتك إلى بيتي لأرجوك أن تتخلص من أوهامك ؛ حاولت اغتصابي . صحيح أنت قلت إنك تحبني . لكن إذا كنت تظنني محتاجة لهذا الحب أو متقبلة له ، فأنا لا أعرف ماذا أقول لك . نصيحتي أن تخفف من غرورك بعض الشيء . وأن تحترم نفسك . وتحترم حبي لزوجي ، وتربية والدي لي . أنت جعلتني أندم على كل مودة أظهرتها لك . وعلى كل اتصال اتصلت بك . ممكن أن تنزل ؟ "

نظرت أمامها . صمغت راحتيها بالمقود .

الشعور الذي جاءه مرتين يوم ١٤-١ ، جاءه الآن مرة ثالثة : ما إن يخرج من هذه السيارة ويغلق بابها حتى يكون كل شيء بينهما قد انتهى إلى الأبد .

خرج . أغلق باب السيارة . أدار ظهره . في فمه كلمات متشققة لم يقلها .

هذه المرة لم يكن انتهاؤه من عمل فني ما جعله يسوح في المدينة وبين خرائبها ، وإنما انبتاره عن علاقة إنسانية بالكاد بدأت . هل أحب فعلاً هذه المرأة المتوارية ؟ كيف ينشأ حب دون شهوة جنسية ؟ هاهي ذي الآن تدفعه إلى تيه بائر بسيل إهانات أليم صبته عليه دفعة واحدة . كانت الإهانات أشد إيلاماً من الخيبة . فبعد كل شيء يمكن لنورما البدر أن تكون المرأة التي أهدته خيبته الألف . لكن ، الإهانات ! كان بوسعهما أن يفترقا بشيء من الإنسانية .

فاجأها العنف الذي قذفت به فراس . لم تأسف عليه بالذات ، ولا اكترثت . ضايقها فقط ، ولأول مرة منذ ستة وثلاثين عاماً ، أن تجد في نفسها هذه الشراسة التي استحقها .

تلك الآونة الشتائية صارت فيما بعد فجوة في ذاكرتيهما . لقاء هنا أو هناك في مبنى المجلة . توافق في مزاج الصمت والإنصات في الجلسات الأسبوعية . كل منهما حرص على اللطف والدماثة إزاء الآخر . بل وأمكن لفراس أن يجعلها تبتسم عندما ضحك الآخرون لبعض تعليقاته .

كان المطر يهمي في الخارج ، والجلسة الأسبوعية في بدء تفتحها ،

عندما نظرت نورما إلى ساعتها وقررت فجأة أن تنسحب . لم يكن نصف العدد المنتظر مجيئه قد جاء . حتى فراس الساكن في الشقة المقابلة ، لم يكن قد حضر بعد ببيجامته الرياضية . غير أنها نهضت ، واقتربت من البروفيسور جيرار ، واعتذرت لضرورة الخروج : " أنا ما تعودت أترك مهند وحده في البيت . "

وخرجت . وقفت في الردهة الضيقة التي تنهض حولها أبواب الشقق الأربع وتتوسطها اسطوانة المصعد . تلكأت . إذا لم يحضر فراس نصار هذا المساء ، سيكون خروجها مهزلة . لماذا هي عابئة بحضوره ؟ لقد قبل الخروج من حياتها وانتهى كل شيء .

تلكأت هناك متسترة على رجاء ممنوع من الوضوح . الدقائق القليلة التي وقفتها على رقعة الحيرة تلك ، صارت زمناً خاصاً في تاريخ الدقائق . فالباب المقابل الذي تعرفه جيداً ، انفتح وانبثق منه فراس مثلما انبثقت منها اللهفة . هذه المرة لم يكن لديها سؤال ولا جواب . تحركت كالسائرة في نومها إلى المصعد الذي تجاهلته . لكن فراس وصل إليها بلا رحمة . بسرعة البروق القطبية وقفا وجهاً لوجه ، وصار كل منهما رهينة الآخر . وجهه المطل ووجهها المشرئب . والوجهان ينطقان بلغة كتيمة : مفهومة إذا شاءا ، ومخاتلة إذا شاءا . والأعين الراكدة تسأل ولا تجيب ، تسأل ولا تجيب .

" بودي أقول ، " غمغمت بعد تحية المغيب ، " بودي أقول ، إني أتمنى لو تكتفي من الكاريكاتير الذي طلّعته مؤخراً . يمكن أنك لم تنتبه ، أو انتبهت ، لا أعرف . فينوس الهاربة من كيوبيد وهي تضع نظارات قراءة مثل نظارتي . . . وعشتار . . . "

" تعالي نناقش الموضوع عند البروفيسور جيرار . "

" ودعتهم وخلص . "

" إذن نناقشه عندي . " هكذا خرجت أمنيته المستحيلة . وتفرس في وجهها ليرى هل أو متى سيطبق حكماً فورياً بالإعدام . شاهد وجهاً عطشان حائراً ، وأدرك أنه كان أنانيا إلى درجة الأذى في رسومه الكاريكاتيرية . لماذا يحشر روحه في كوة منزوية هي حياة هذه المرأة ؟ ولماذا حاول أن يؤنبها برسومه ؟

قال : " أرجوك . "

أحست نورما أنها في سباق مع الثواني . عليها أن تضع على وجهها تعبيراً ما قبل أن يصور لهذا الرجل أنها متحيرة : فإما الرفض ، وإما الغضب ، وإما المواجهة . " رجاء قوّي قلبك . عشر دقائق . " وعندها وضعت تعبير المواجهة . مشت نحو شقته بهدوء بعد أن شدت يدها الحاملة للجزدان على خصرها .

انتقل الحزن والحيرة إلى فراس . رأى وجهها مكتسياً بعنف لقائهما في سيارتها . مشيتها الصارمة تعني أنها ستقول شيئاً ثقيلاً فور دخولها . فتح لها الباب . تلقى ابتسامة : " مرسي . "

وضعت جزدانها على طاولته الطولانية القوساء ، واستندت هي أيضاً إليها . نظرت حولها ببطء وقد أيقنت أن المكان صار أغلالاً للسانها . لم ترد على دعوته أن تجلس . " أقعد أنت . " نظر خلفه وجلس . غرفت بيدها نطاق جزدانها . أفلتته . " مثلما قلت لك . . . " وبعد قليل أضافت : "أنت تعرف . . . أنت تحيرني . . . مستحيل أن يكون بيننا شيء . . . يعني مجرد الفكرة . . . مجرد الفكرة ، سيتامبوسيبل ! " ثم أضافت : " ولا يشرفك . . . أن تستغل في الصحافة . . . لحظة ضعف جررتني إليها . " غرفت نطاق جزدانها . أسبلته على ذراعها . وأرسلت إلى فراس نظرة تعلن مغادرتها .

أعادت الجزدان إلى الطاولة . لم تتكلم . حدقت إلى وجهه . قال : " أنا اكتشفت شيئا في داخلي . شيء أقوى مني . نحن لم نكن ضعفاء . ذلك الشيء ، كان أقوى منا لأنه كان صادقاً . "

كانت قد حملت جزدانها مرة أخرى . ابتعدت خطوة عن الطاولة ، وتوقفت بهيئة الخروج . ماذا تفعل وهو بهذه اللوعة ؟ بهذا العري ؟ رمقته بنظرة متربعة .

من جديد نطق وجهه بالحزن والحيرة . يمكن في أي لحظة أن يخسر ما قد يكون أجمل وأصدق حادث في حياته . نهض احتراماً لها . توقفت .

وضعت جزدانها على الطاولة . كانت في بحران من التعجب : ماذا سيفعل الآن هذا الفك المفترس ؟ ولماذا تعبأ به ؟ وهو نفسه لم يكن يدري . نهض فعرف أنه لم يعد يمكنه الوقوف . وقالت لنفسها إنها يحسن بها أن تعطيه فرصة لأن يتكلم ويعتذر ، ويتعهد بأن يمحو من ذاكرته كل ما حدث . إنه فنان ، ويحسن التعامل مع مشاعر الآخرين .

وقفا دهراً بين الكنبة والطاولة . وقفا إلى أن انتفى كل مبرر للوقوف . غادرت التعابير وجهها . ألمّ الشقاء بوجهه . ترقبت صوته . انتظر إيماءة منها .

وصل ذراعاه إليها بدلاً من كلماته . ووجدت جذعها مطوقاً بهما بدل أن تكون أذناها بصوته . . . وصدرها بصدره ، ووجهها ، وشعرها ، وكلها .

" بودي أبوسك ، " همس كمن يطلب الإذن ، أو يريد أن يصدق ما سيفعل . لم تكن قادرة على السماع ولا الفهم . داخل ملابسها الراسخة ، بدأت تنذري وتدوخ . لحظة احتواها تماماً بصدره ، أحست أنه أفرغها من

كل طاقة ، أنها لم تعد لديها ركبتان . لهذا رمت ذراعيها على كتفيه كي لا تهوي وتتكوم على الأرض . ثم كزّت أسنانها وشفتيها لتمنعه من القبلة .

كان يلهث بلا انقطاع عندما أفلت أخيراً شفتها العليا بعد قبلة طويلة متوجعة . أرجعت ذراعيها إلى الخلف وأسندت يدها على الطاولة . لم تكن خائرة فتتهاوى ، ولا قادرة فتخرج . أمكنها فقط أن تقف . كل روبوتاتها تعطلت . لم تعد تدري كيف تستعيد جسدها إلى وتيرته .

" سأبوس شفتك التحتانية . "

" هكذا إذن ، " همست بصوت مفقود .

عينا عقلها المسحورتان تفرجتا على جسدها وهو يتقبل الانحشار من جديد بين ذراعيه الأخطبوطيتين وصدره المروحي . ذراعاه انسدلا عليها وسدا المنافذ وصدره صار دفة استنادها الوحيدة . حتى لو حاولت التخلص فستفشل . تفرجت وحسب . سرح ذراعه الأيمن على جسدها .

كان مطمئنا إلى أنها لن تنفر فتخلخل توازنات الطبيعة . وحان الوقت أخيراً لأن يقول : "سأبوس الشفتين معاً . " شاهد ازرقاق الشفتين ، ثم اختطاف نورما لجزدانها بقوة مباغتة وانفلاتها المطري خارج المرسم .

عندما انبثقت من باب المصعد في الفسحة الأرضية ، استعادت وعيها بكل ما حدث . وعندما وصلت إلى مدخل البناء ، وقف المطر أمامها كذؤابات من الجن الأزرق فأيقنت أنها ما تزال نورما البدر . لكنها بخفقانها وانحرار خلاياها ، كانت أقرب إلى فيزياء المطر منها إلى فيزياء البشر . انخطفت بين انسكابات السماء التي بللت سترتها وشعرها .

ها هي ذي أخيراً مسندة ظهرها إلى مقعد السيارة . يا للخلاص الآمن .

طوقت جذعها بحزام أراحها لكونه ليس صدر فراس نصار . يا للنجاة المسورة .

التفت مهند لدى دخلوها ، ثم عاد يتفرج على التلفزيون . إن هذا مستحيل ! ألن يقول أنت طالق ؟ " بكّرت ، " صاح وتزحزح قليلاً .

" أحسن من أن تموت جوعاً ، " سمعت صوتها يقول . هل وصله صوتها ؟ رمت جزدانها على الطاولة .

" بنت حلال والله . أنا بدأت أجوع . "

" ثواني بس ، وأحضر لك العشاء . "

استبدلت ملابسها بحماية العتم . لم تستعجل . رأت شفتيها الزرقاوين فانتابها حس بالهلاك . دخلت الحمام وتفحصتهما . ما سر هذه الزرقة ؟ لم تتعود أن يؤثر البرد فيهما هذا التأثير .

أمضت نيفاً ونصف ساعة وهي تعيد إحلال نفسها في نظام البيت ومواقعه الصغيرة المتناثرة . كل مرايا البيت كانت عبئاً عليها . ولحظة الحساب لم تأت بعد . هذه هي قامتها وهاتان هما شفتاها .

ماذا جرى للقامة وللشفتين ؟ سينكرها مهند بعد قليل ، عندما يرى الدروب التي حفرتها يدا فراس نصار على ظهرها وردفيها ، يرى ويتناول المسدس ، أو السكين . . .

وضعت رؤوس أصابعها على شفتيها . خبأتهما . كيف ستخرج من غرفة النوم إلى المطبخ ؟ ماذا ستفعل عندما ينظر إليها ويفضحها ؟ سيلتفت ، سيرى ، سيعرف ، وستصير هي عموداً من الدخان . بعض الجبن والرُبّ ، ومكدوستان ، وقرص بندورة . وبعض الحشائش الطعامية .

وبيضتان مسلوقتان جيداً . ولبنة مرشوشة بالنعناع اليابس . وبالطبع لا بد من الزعتر بالزيت . ثم مغلاة الشاي . ثم مهند يدير التلفزيون باتجاه المطبخ ليتعشى ويتفرج . لم تأكل نورما بمعنى الأكل . تشاغلت بتناول الخبز المحمص وتداول الطعام . بين لحظة ولحظة ، استرقت إليه نظرة تيزكية . في أية التفاتة منه سيلاحظ وجهها الزاني ؟ متى سيسمع الطبول الزرقاء في شفتيها الموطوءتين ؟ متى سيصرخ : كنت تخونينني يا نورما!

" برافو عليك . ارتحت من ثرثرات المثقفين وكلامهم الفارغ ، " دون أن يحول عينيه عن التلفزيون .

" ليست ثرثرات ولا كلامهم فارغ . "

" يظل بيتك وزوجك وأهلك أهم منهم . " وأوقف حنكيه عن المضغ مستغرقاً في الفرجة .

تسللت إليها ومضة أمن . رمقته من زاويتي عينيها ثم أطالت النظر . أليس شيئاً باهظاً على الدماغ أن كل رعبها كان مجانيا ؟

" جاءتني أخبار طيبة من قبرص ، " قال وهو يعود إلى مضغ لقمته ويهيء لقمة أخرى .

" أنا ما بودي أخبار من قبرص ولا من غيرها . "

" قالوا إنه هناك يتم التلقيح داخل الرحم . يعطونك إبرة ، فتنزل عندك حوالي عشر بويضات ويأخذون السائل مني ، يعالجونه ، ويدخلونه تماماً في الرحم . لابد ما تتلقح بويضة أو اثنتان منها ، وبإذن الله أربع أو خمس بويضات . هذه الطريقة أفضل من طريقة الأنابيب . وتوفر علينا الروحة إلى فرنسا . "

" لن أروح إلى فرنسا ولا إلى قبرص . ولن أعمل أنابيب ولا غير أنابيب . "

" شفت ؟ هذه أول نتيجة لاختلاطك بالمثقفين . صرت متمردة . "

" مهند أنا تعبت . أنا ما بودي أولاد يا أخي ! خلص ؛ عشر سنين ؛ تعودنا . "

" رجعت للكلام الفارغ . كم مرة أسمعتني هذه النغمة من قبل ! "

وضع شوكته وسكينه في صحنه وحمد الله . وزحلق عجيزته على الكرسي مسترخياً ومادّاً ذراعيه على الكرسيين المجاورين . عاد إلى نورما رعبها اليابس . إنه الآن في وضعية تمكن عينيه من النفاذ في شفتيها ووجهها وظهرها . نهضت تجمع الصحون في الصينية وتدير له جانبها . نهض هو إلى الصالون .

وضعت الصحون في المجلى واتكأت على راحتيها . أخذ ذراعاها يرتجفان . ثم كتفاها . بعد قليل تربت يده على ظهرها وتكتشف الدروب المحفورة هناك .

كان الارتعاش آخذاً بجسدها عندما سمعت مهند : " هاتي لي تفاحة ! " وضعت بقية الأدوات في المجلى . أعادت الطعام الباقي إلى البراد . شمرت عن ساعديها أمام المجلى : كيف يمكنها أن تقترب منه وفي بدنها كل هذا الضجيج ؟

غير أنها عادت ومعها التفاحة . من منتصف الجبين انفطر رأسها . تناول مهند السكين الصغيرة . قشر التفاحة . شقها ستة أقسام . دفع الصحفة باتجاه نورما ورمقها بنظرة داعية . هزت رأسها بالنفي . ماذا ستفعل لهذا

الرأس المتفكك ؟ أكل التفاحة . " أخذت دوش ؟ " لن آخذ دوش . "

" خذي دوش عالماشي . مشته أنام معك . "

حوالي العاشرة تثاءب وأطفأ التلفزيون . نهض . لم تنهض . اقترب منها واسترخى على وركه . "ماذا بك ؟" نظرة منها مستسلمة ، على حافتها رجاء شاة جيء بها إلى المذبح . " رأسي . سينفلج . " " سيطيب بعد التدليك . " " لن آخذ دوش ، " همست لعله يعفيها .

تأملها ثانية . لم يعترض : " مثلما تحبين . مع أني لا أحب رائحة العرق . "

" ألا يمكن تأجيلها اليوم ؟ الله يخليك . ورحمة أبي رأسي ينفلج . "

" سيطيب بالتدليك . اليوم 14 في دورتك . وما بودنا نضيع الفرصة" .

" البارحة كانت فرصة ! وأول البارحة . الله يخليك ، بلاها اليوم . "

" واليوم فرصة . تعرفين أنك ناكرة للجميل ؟ كل يوم أنا معك ، إلا أيام الدم الخمسة ، وأنت تتدلعين ."

تنهدت . تأملته بعتاب حزين فاقد للرجاء . تمتمت : نطفئ كل ضوء . "

" هه . ومتى كنا لا نطفئ كل ضوء ؟ "

تحممت بسرعة . عاينت وجهها وظهرها في المرآة . في أقل من خمس دقائق حفر فراس نصار كل هذه الدروب والعلامات عليها ، وهي لم ترم حتى الجاكيت ! كيف لم يحس مهند بهما ؟

تمطت الدقيقتان الأوليان وتثاقلتا حتى لكأن ما قبل التاريخ قد صار

تاريخاً . كل مسحة من أصابع مهند أفلتت آباراً من الخوف والتقلصات . إما في هذه اللحظة أو اللحظة التي تليها ، سيضع هذا الظهر الضئيل بين يدي مهند ألفاً من ثآليل خلفتها عليه يدا الرجل الغريب .

فقط عندما بدأت أخيراً آلية إدخالها لمهند فيها ، ابتعد الخوف وطفا الغثيان . أن يضمها رجلان خلال ربع يوم . صدر ذلك الغوريللا ، وصدر مهند . ذراعاه وذراعاه . وجهه ووجهه . خلال ربع يوم . رجلان أولهما يحرّ روحها ، وثانيهما جسمها . وهي ، نورما البدر ، لا تعرف كيف تصفو . ألهذا سماها الرجل الأول : خضراء كالبحار ؟

مع الكر والفر فوقها أخذت تعد : واحد ، اثنان ، ثلاثة . غرفت قبضتاها الشرشف الذي تحتها لئلا تفر بعيداً . بلغ العد الأربعين فانفجرت الأرقام . وغابت هي في سديم من القيء والرغوة عندما جاء مهند أخيراً ، وحوالي الرقم الستين ، غادرها . اجتاحت رأسها زلازل الشقيقة . أكملت تعطيل بدنها وصيرتها عجينة .

" قلت لك . ها همدت تماماً ، " هتف مهند بارتخاء وفخار . كان مستلقياً على ظهره ويداه تحت رأسه . مضت دقائق قبل أن ينتبه إلى جثة نورما . لكزتها ركبته بمحبة : " نورما ! " لكزتها ثانية : "قومي اشعلي الضوء . " تلكأت فقام هو . أشعل النواسة . رأى فم زوجته الفاغر وغياب بؤبؤيها وراء جفنيها . لطم وجهها بأصابعه . " نورما ! " وأضاف مازحاً : " وجع رأس يا ترى أو انبساط ؟ " ثم صاح : " نورما ! " رفعت جفنيها قليلاً : " أعطني أربع حبات كافيرغوت . العلبة في الصيدلية . "

" أربع حبات تقتلك . . . " وأضاف مداعباً : " كل هذا الوجع ولم تسمعي حديثهم . كيف لو بقيت وسمعته!"

كانت قد قالت لفراس إذ احتضن زنديها يوم 14-1 " أنت لخبطت لي حياتي . " هكذا دفعة واحدة . لم يكن قد حدث شيء بعد . لكنها تكلمت بصيغة الماضي . كأن قدراً قد حل واكتمل . ولن يكف عن الحدوث .

في الصباح أفاقت بصداع يمكن تحمله ، وبذاكرة ممسوحة . شعور واحد فقط كان حاضراً في ذهنها : إنها تكره ذلك الغوريللا ، تكرهه .

ذاكرة فراس ظلت مثل شريط فيديو يدور في مخيلته وهو يحسو البيرة في شقة البروفسور جيرار . وعندما أفاق في الصباح ، بدأ الشريط يدور . عرف أنه لن يتوقف ما دام عقله مشغولاً بسؤال : هل يحب هذه المرأة المنكمشة حقاً ؟

كلما أحب في الماضي عرف أنه أحب . وانتشى وطار واندفع وانقلبت حياته رأساً على عقب ، لأنه أحب . لم يتردد يوماً في أن يقول لامرأة أنه يحبها . فما باله قال لنورما " أعتقد " ؟

تأبط دفتر الرسم وأقلام الخربشة وقاد سيارته – أخيراً – إلى الكلية . لم يستطع صبراً . بعد مضي قرابة عشرين دقيقة من المحاضرة الأولى ، وجد نفسه يضع ألبوماته الضخمة عن مونيه وسيزان . . . ويمسك بيمناه الأقلام الملونة ، لتبدأ يسراه الرسم على السبورة . كانت السبورة مخرشة ومشققة في أكثر من مكان ، لكنه لم يكترث .

" الانطباعية ؟ هذه هي الانطباعية . . . " وبينما راح لسانه يسرد المعلومات والتواريخ ، راحت أصابعه ترسم زنداً مؤنثاً . إنه زند عار ونحيل ، متصل بزند عار ونحيل في وسط الامتداد بين تدويرة الكتف وتكعيبة المرفق رشاقة خالية من الحشو ، تنفلت منها ألياف تركت نسيج اللحم واشرأبت حوله كسيقان من العشب . سيقان في مدى الامتداد ، التفّت

حول وبين أصابع خلفية شبه مطمورة في الزند ، أصابع خلفية راكعة متعبدة ، وإبهام أمامية تتوسد اللحم .

مع اكتمال الرسمة في السبورة ، كان قد خرج من تاريخ الانطباعية ودخل في جغرافيتها . وفقط عندما فات من وقت الفرصة دقيقتان ، انتبه إلى جغرافيا أخرى تتحرك فيها شياطين موهبته ، هي الصف المزروع بأربعين من الأوجه المشرئبة .

انتهى الوقت ولم تنته المحاضرة . صمت كحفيف الشجر حل فيه . ثم راح الطلاب يتجمعون حوله ، يعلقون ويتصايحون ، ويسألونه ، وفمه لا يتلفظ بغير ابتسامة منقطعة . وها هي ذي طالبة تشق الرتل بأناة وتقترب منه حاملة كاميرا :" ممكن ، أستاذ ؟ "

هتف كمن هبطت عليه نعمة : " أرجوك ! وصوريها عدة صور . "

قالت الفتاة وهي تصوب الكاميرا نحو السبورة : " قلت لنا كل شيء يا أستاذ ، ما عدا شيء واحد . في أي بلاد يا ترى يتحول اللحم إلى عشب بقوة الحب ؟ أريد أن أقطع تذكرة سفر إلى تلك البلاد . "

خلال أسبوعين تاليين ، اعتمدت حياة فراس العامة اعتماداً مطلقاً على الروبوتات . تدريس ، شغل المجلة ، لقاءاته ، أكله ، حلاقته . . . وحتى عنايته الفائقة بابنته الصغرى المقتربة اقتراباً عجولاً خجولاً من بواكير أنوثتها . لكن حياته الجوانية ظلت فضاء آخر نشط فيه دفتر الرسم وأقلام الخربشة .

ثم جاءته الطالبة بصور مكبرة للوحة السبورة ، فاطمأن إلى أنها لم تضع . ومنحته الطمأنينة عزماً متسارعاً في شغله على اللوحة الثانية .

كانت موضوعة الثانية شبيهة بالأولى . سوى أن التنفيذ استبدل الزند بالعمود الفقري . صارت الفقرات شبيهة بالأصابع . عشرون فقرة إصبعاً ، أو أكثر . ضخمة وليست ضخمة. منها تنأت الأوراق العشبية ، وألقت ظلالاً خضراء على اتصال الأصابع بلحم الظهر . وفوق لحم الظهر تحدبت براعم وزهور برية وشتول صغيرة قصيرة .

في اللوحة الثالثة التقى خياله المشبوب بخيال نورما الملوع . هو أيضاً شاهد دروباً في الظهر . لكنها دروب مرصوفة بأرومات العشب . كأن آلة عاشبة مرت من هناك ، اقتطعت سيقان العشب ، وتركت منه أربع حارات ضيقة غير ملموسة . هنا وهناك تقاطعت الدروب . هنا وهناك علت سيقان العشب .

كانت اللوحة الرابعة أشقى اللوحات بالمعنيين : العناء والشيطنة . العناء في الرسم والشيطنة في التعبير . تلة خضراء لها قمتان شبيهتان بفلقتين . عليها تخفق راية صفراء هي كف ذات عشر من الأصابع المتحاشرة الضائعة الملامح . والتلة تتكور ولكن بانسراح خفيف ، ثم تتجوف في مكان محدد يذّيل الأرض العالية ، فتبدو أخيراً مثل حوض امرأة . وباتجاه التجويف تنطلق من اليسار كرة غولف متطاولة !

علّق فراس اللوحات في صدر مكتب رئيس التحرير على شكل معيّن ، ووقف ينتظر رأياً وتعليقاً . " ما هذه ؟ لها عنوان ؟ " سأل رئيس التحرير . قال فراس : " ما رأيك أن تضع لها أنت عنواناً ؟ " فتل رئيس التحرير راحة يده بحيرة : " عشتار في الربيع ، مثلا ؟ لو لا كرة الغولف هذه ! " اقترب فراس منه : " بودي نشرها في المجلة . بدل صفحتي الكاريكاتير . "

انفتح الباب . دخلت سميرة ونورما تحملان أوراقاً ومخططات . هتفت سميرة فرحة باللوحات ، واكفهر وجه نورما . بسطت الأوراق على الطاولة .

قالت : " عملنا ميزانسين للعدد 108 بغياب الأستاذ فراس ، ولم يبق قدامنا وقت . "

" فراس طلب نشر هذه اللوحات في المجلة . ما أريك ؟ "

انتفضت نصف انتفاضة وتحولت إلى اللوحات . قالت سميرة : " يا سلام ! والله لوحات حلوة . ولو أني لا أفهم معانيها . لكنها حلوة . " هتفت نورما : " مستحيل ! " وعندئذ التقت الأعين في نظرات مبهمة . سألها رئيس التحرير : " مستحيل لأي شيء يا نورما ؟ "

رمقت فراس بنظرة جانبية خاطفة ثم قالت : " لأنها خلاعية . بورنوغرافي . "

هتفت سميرة : " ماذا تقولين ! هذه مناظر طبيعية . أرض خضراء مموجة ويد ابن آدم تتلمسها ." قال رئيس التحرير : " عندنا ثلاثة آراء من ثلاثة أشخاص . " التفت إلى نورما : " ما رأيك بتجربة ثانية مع هذه اللوحات في لقائنا الأسبوعي ؟ "

انفتح الباب ودخلت ميراي على شكل زوبعة . حيت ودست يدها في جزدانها . " أنا مستعجلة مثل العادة . " قبل أن تنبش محتويات الجزدان انتبهت إلى عالم الآخرين الصغير ووجودها فيه . ثم إلى اللوحات : " أو ! مون ديو ! أو ، فراس ! ليتني هذه المرأة التي لمستها أصابعك ! "

قال رئيس التحرير : " فراس يريد نشرها في المجلة . ما رأيك ؟ "

" فورميدابل ! وأنا أكتب تحت كل واحدة عبارة قصيرة . أو أقول لك ؟ أكتب صفحتين تنشران بعد الصور . "

قالت نورما بفظاظة متعالية : " دكتور صائب ! والراية الصفراء ، وكرة الغولف ؟ "

أغمضت ميراي عينيها وأطلقت رأسها يمين يسار : " أنا أموت في الرايات الصفراء وكرات الغولف . " بعد كلمات ميراي الفرويدية صار مستحيلا على نورما أن تقبل الكتابة عن اللوحات . ليس فقط لأن مهند كان سيزدري اللوحات والكتابة ، بل لأن المشروع كله تراءى لها كنوع من غمس الأصابع في بركة من القاذورات . ولأنها ارتاعت من فظاظتها مع ميراي ، اقترحت: "برأيي ، نعرض اللوحات فجأة على الحاضرين ، بعد اكتمال حضورهم . وبعد دقيقتين نطلب من كل واحد تعليقاً . وسميرة وميراي وأنا نسجل التعليقات ."

ما حدث بعد ذلك كان مسرحه خيال نورما ووجدانها . هذه اللوحات الأربع عنها . لها وبسببها . بعد صدمة مشاهدتها الأولى ، اشمئزازها ، وأثناء عودتها إلى البيت ، ضاءت ذكريات عناق فراس لها . العبء الذي عادت به يومذاك إلى البيت ، تلاشى . تلاشى أيضاً الإحساس بالعار والقذارة وحلت محله نقاوة اللوحات وشفافيتها . لوحات بالغة الحسية لكنها فن سام ورفيع . نظرت إلى الصالون فور دخولها ، وتمنت لو أنها شاهدت اللوحات معلقة هناك ؛ ربما حول صورة المدير العام .

المدير العام . تأملت صورته ، واندلع لهيب فيها هذه المرة . هناك مجنون اسمه فراس نصار ، يرسم صوراً تلخبط صورة المدير العام . وهي ستوقفه عند حده . لو أن أحداً رابه أمر هذه اللوحات ، ونطق برأي عابر ، لانهارت حياتها .

ومهند ؟ هذا الإنسان المكرس لها تماماً ، الزوج البيتوتي ، الرائق الوديع ، الذي يحبه الناس أجمعين ، المنصرف إلى بيته وشغله ، الذي لم يعرف امرأة غيرها لا قبل ولا بعد . لن تغفر لنفسها أنها غدرت بثقته

وإنسانيته . هذا الإنسان البريء ، الودود ، يجب أن يبقى بعيداً عن ورطتها الحقيرة التافهة . . . وهي ، الابنة التي صاغها المدير العام على نسق ابن بكر ، ستعرف كيف تؤدب ذلك الجانح الجامح .

اتصلت بفراس عند الأصيل وقالت إنها قادمة . لقد اكتمل السيناريو في مخيلتها . لم تقل له سوى أنها قادمة . سيتوقع الأسعد والأحلى ، وستباغته بلغتها المحتقرة المنذرة ، وتجرح كرامته جرحاً لا يطيب . لسوف تقاتل . وستجبره على أن يلملم أوهامه الخائبة ويرميها على الأرصفة التي تؤويه . فقط لو تعرف بأي لون سيصطبغ وجهه .

اقتحمت الفسحة المستطيلة بين المصعد وباب المرسم . اقتحمت الباب ، فالممر المختنق بجداريه وسقفه الوطيء ولوحاته . جلست على الصوفا ملصقة ساقيها إحداهما بالأخرى . وجلس معها عزم روبوتي .

بعدئذ الصمت . لم تجد في وجه فراس بشاشة تبددها ولا أملاً تحبطه . كأنه عرف بنواياها قبل أن يلتقيها . استقبلها بحزن عينيه . راقبت تهذيب حركاته وكرم محياه . غادرتها القسوة وجاءها الإشفاق . عدوانيتها النافرة صارت بركة ماء . هل تشرب شيئاً ؟ . . . مرسي ، لم يحن بعد شرب الشاي . . . طبعاً هي لا تشرب بيرة ؟ . . . طبعاً . . .

أخيراً : " أستاذ فراس ، أنت فعلاً تحبني ؟ "

لم يتكلم . عتاب عينيه جعلها تقول : " لكن أنا لا أحبك ، ومستحيل أني أحبك . "

تشابكت أعينهما . أنصتا لبيانو شوبان الذي كان فراس قد شغّله قبيل دخولها . نظرت إلى المسجلة الصغيرة على الطاولة . أليست هذه الكتلة

الضئيلة من التكنولوجيا ما صنع لقاءهما الأول ؟ أرادت أن تبتسم . توقفت في الوقت المناسب .

التقطت جزدانها دون أن تنهض . " أستاذ فراس ، أنا جئت لأقول لك ، أنا لا أحبك . داكور ؟ ومستحيل أني أحبك . "

دفدفت نحوه نظرة مترقبة . لم يتكلم . نهض بهدوء إلى المطبخ . وبهدوء عاد حاملا أطول سكين لديه . جثا أمامها . شهقت ارتياعا . ظل فمها فاغرا . مد لها المقبض . " خذي . إذا كنت ستخرجين من هنا وأنت تقولين أنا لا أحبك ، خذي السكين واغمديها في صدري . "

هذه اللغة التي لم تعرفها قط شقت فيها أودية . لم تستطع أن تشهق . فارقها كل حيل . " أستاذ فراس! " غمغمت بشبه صوت ، " ابعد السكين ، أبوس يدك . "

" اغمديها في صدري قبل أن تطلعي من هنا لأنك لا تحبينني . "

مرة أخرى أزاحت لغته لغة دماغها وحنجرتها .

" لن أطلع . ابعد السكين . "

مدد السكين على الطاولة . تناول الجزدان ومدده بحذاء السكين . فرشت أصابعها على ركبتيها . طوق يديها براحتيه . شدت راحتيها على ركبتيها . إنها فعلا مراهقة ، وليست امرأة في السادسة والثلاثين ، ولا تدري ماذا تفعل . شدت يداه على أصابعها . أصابع لدنة ملساء . انزلقت أصابعه تحت منعطف الركبتين .

" أستاذ فراس ، الله يخليك ، " حشرجت وغمغمت . مد ذراعه الأخرى بين ظهرها والصوفا . طوقها ورفعها ، وشفتاها الطيعتان بين شفتيه . وقف بها ممدودة بين ذراعيه .

الصمت والغياب والتحفز .

أفلتت شفتيها . غيبت وجهها في عنقه لئلا ترى وجهه . صلبت ساقيها فأفلتتهما إلى الأرض . انضوت فيه .

دون أن يزحزح وجهها عنه ، أبعد جذعها قليلا ومد يده إلى أزرار الجاكيت .

متى ، كيف ، لماذا سمحت له بفك الأزرار الثلاثة ، ثم بفك كل شيء آخر ؟ هل قاومت ؟ هل رضيت ؟ الغيب وحده يملك الجواب . لماذا تناصب الذاكرة العداء لحظات خارقة كهذه ؟ ولماذا لا تعمل كاميرات المخيلة أثناءها ؟ لقد غفلت تماما عن أن جسمها راح يتعرى بين يدي فراس الخفيتين . متى تعرى هو ؟ ومتى حملها على محفة ذراعيه إلى السرير ؟

صورة تبرق وليس لها قبل ولا بعد : شفتا فراس وهما تخبان على عنقها وصدرها وسرتها . لقد صارت سرتها مطارا لشفتيه . إن مثل هذا لم يحدث لامرأة من قبل . الشفتان تحطان . تصيران حفارتين . كلمتان أو ثلاث طلبت منه ألا يصير جماع . فقط شفتاه .

صورة جذع نورما وهو ينخطف ويتلوى في خيال فراس . قرصا ثدييها الصغيرين الرخوين ، والحلمتان الكبيرتان الغامقتان . وذلك السوار النحيل الواصل بين الصدر والبطن . كأن الصدر استعير من طفلة في التاسعة ، والبطن والحوض استعيرا من فتاة في العشرين ، وتم لحام المنطقتين على عجل . بلمحة واحدة ، شاهدت عيناه نشازا في التكوين غير معهود .

أحدَ الصور ، أكثرها تجسدا وامتدادا ، كانت صورة عمودي المرمر

المتوازيين المنبثقين من حوض نورما ، الطالعين في العالي ، المروسين بركبتين ملساوين . ركبتان تهبط منهما ساقان بديعتان . امتدادات مليئة بلا انتفاخ ، طويلة بلا ضمور ، صافية بلا بلادة . وقاعدتها ذلك الحوض ، أعجوبة الأعاجيب تكوينا ونقاوة .

يتذكر فراس كيف دس رأسه بعدئذ بين عمودي المرمر المنحوتين ، أنفه وشفتيه ، ثم دس لسانه . وكيف تصاعدت تشهقاتها وتلاحقت ، وكيف تشبثت أصابعها بخاصرتيه وكيف خرخرت ، وكيف تخامدت بعد ذلك الأصوات وانطوت في صيحة واحدة متهاوية : " مون ديو ! "

ثم انقضى زمن طويل ، عشر دقائق من السكون الأخرس . نورما هامدة ، عيناها مغمضتان ، تنفسها غطيط ، وجسدها مازال يطير ويزهر . في أية سماء مجهولة هي الآن ؟ فراس متمدد بإزائها ، مستند على مرفقه الأيسر ، حشاياه شواظ . نقل عينيه بين شفتيها المنبورتين ، شبه السوداوين من شدة الازرقاق ، وحلمتيها اللتين انتفختا كحبتي تمر رطبتين .

وبعدئذ مكان آخر وزمان آخر . إلا فيلم قصير باهت الوقع : نورما بكامل ملابسها وجزدانها تترك لفراس اللابس بيجامة الرياضة أن يضمها ضمة الوداع ، وهي تبتسم بخمول دون أن تشاركه ، ثم مشيتها الهادئة المستريحة نحو الباب ، مع حديث للمرة الثانية عن ضرورة وجودها في البيت " قبل السادسة والنصف ، لأن الجماعة يتصلون من الثكنة ليطمئنوا علي . "

كان لقاؤهما التالي هاتفياً ، بعد أربعة أيام . "باردون ، قطعت عليك نومتك ؟ " . . . كلا لم تقطع عليه نومته . . . هي تريد أن تصل معه إلى اتفاق . ما حدث بينهما لا يمكن بالطبع أن يستمر . هي ستعتبره زلة . . .

وهو سيعتبره ولادة . . . وهي ترى لأنهما يلتقيان بحكم عملهما أن يعودا فقط إلى حالة الزمالة ويكتفيا بها . . .بل إلى حالة الحب ويحتفيا بها . . . لأن ما حدث هو بالتأكيد شذوذ عن العقل وخروج عن الطبيعة . . . أبدا . العكس هو الصحيح ، وهو لن يتراجع عنه . . . ونورما ليست من النوع الذي يسمح لزلة بالقضاء على عشرة عمر مع رجل كرست له عمرها ومشاعرها . . . هي تتكلم وكأنها نسيت الينابيع التي فاضت منها . . . هي لا تحب الحديث عبر الهاتف في أمور كهذه . هل نسي قصة الصرصار ؟ والأمر لا يحتمل التأجيل ، وإلا ترسخت التوهمات في ذهنه وظنها حقائق . عليهما أن يتحادثا . وهي ستجيئه لحسم الأمر نهائيا . هذه المرة ستجلس على الكنبة وتتكلم . لن تسمح للشيطان بغوايتها . لن تهجرها لغتاها العربية والفرنسية .

لا تعرف نورما ، لم تعرف ، أين اختفت ، أين تختفي ، اللغتان . جلست على الكنبة ونطقت بضع عشر كلمة ، ثم تبعثر القاموس من ذهنها . قالت : " أستاذ فراس ، إذا كنت فعلا تحبني كما تقول ، خلنا أصدقاء وبس . "

وكان هو أقرب إلى النشوة والحلم ، غير عابئ بأن الكنز الذي اكتشفه لن يكون ملكه : " أنا فعلا أحبك ، ولذلك لا يمكن أن نبقى أصدقاء وبس . أنا لست من جماعة الحلول الوسط . إما كل شيء ، وإما لا شيء . "

" مستحيل أستاذ فراس أي شيء . أنا لا أحبك . ولا يمكن أن أحبك . لكن أنا ما بودي أخسر الصداقة . "

" وأنا ما بودي أخسر الحب ."

" تقول الحب ، وهو لا حب ولا شيء . صدقني . الذي صار نزوة . هفوة . كل إنسان عنده لحظات ضعف . والشيطان دائما له بالمرصاد . وأنا

ضعفت بسبب امتناني لك . لأنك أنقذت حياتي في فترة كنت فيها منهارة . وأنا أعترف أنك أنقذت حياتي . لكن أنا مرتبطة بمهند فعلا . أنا السمكة وهو الماء . أحبه ولا يمكن أن أتخلى عنه . ومرتبطة بأهلي ، ومن سابع المستحيلات أن أتخلى عنهم . أنت تعرف . أهلي مسألة حياة أو موت بالنسبة لي . لا أفرط بهم مقابل العالم كله ."

" وأنا لن أفرط فيك مقابل العالم كله . "

أدركها الصمت ، وهبط ثقيلاً على غبطتها الخبيئة . وأدركته الريبة . انبثقت لغتها ثم غارت . لم تعرف ماذا تقول بعد . ترقبت انبثاق الشيطان من مكان ما وفي هيئة ما ، ليساورها ويداورها . لم يعرف فراس هل يصدق كلماته المنطادية أم يستغرب خروجها منه . أهو حقا يشعر بالحب الذي حكى عنه ؟ جلسا صامتين منقطعين . توارى الكلام من خاطرها ، وتتابعت نيازكه في خاطره . تحيرت هي : كيف تقاوم هذا الحب الجامح الذي يتفجر منه ؟ وتحير هو : أهو يعني كل الكلام الذي يقوله لهذه المرأة الجائعة ؟

" خلينا نسمع موسيقا . ماذا تحبين ؟ "

" الذي تريده . " ونهضت . نهض إلى المسجلة . " الحقيقة أنا جهزت الشريط قبل وصولك . " تمطت بسرعة وقد فارقها استياؤها . " عندك حر بزيادة . " كانت ترتدي كنزة مديدة ذات عنق . انبعثت أنغام الكمان فالبيانو من دوويت بيتهوفن . التفت مبتسما ، مترقبا تعليقها .

" عندك حر بزيادة . " بنترة رشيقة نزعت كنزتها . نظرت إليه وأحست بالرهبة ، ولكن ليس بالخوف : ماذا سيفعل بها ؟ نظر فراس إليها وأحس بالطفولة ، والسفوح ، وفراشات تطير .

بدت في أوج هشاشتها وتنابعها . نبتة من نوع الزنبق أو عباد الشمس . بدت سوراً غامضاً ولكن آمناً ، غير قابل للتصدع . قميصها الذي بربع كم ، وبعدئذ هي ، نورما البدر ، تتلامح وتتراوح داخل القميص الأسود المنسدل على البنطلون الأسود كي يحملها على ذراع واحدة ، ويسند رأسها على كتفه ، لتضع ذراعها العارية على صدره وأصابعها على كتفيه ، وتنام إذا شاءت . أي حضن حملها هكذا طوال ستة وثلاثين عاماً ، وصار مرجاً وشحارير ؟

وهو ، داخل بيجامة الرياضة التي صارت للنوم أيضا ، نجم صغير من نوع يكثف شعاعاته على عباد الشمس ، يتغلغل في القرص المزهر الثقيل ، يحركه مع تحركه عبر زخم الصباح وطمأنينة المساء . مثلما حدث في اللوحة ، امتدت أصابعه إلى زندها وانطمرت في لحمه القليل . ثم تعانقا . سوّرها وتلفلفت به . وجهاً ملتصقاً بوجه وأذرعة تطير .

الطيران . ذلك هو الحب في أحد تجلياته . " نزلني ! " غمغمت وهي تغمض عينيها وتحشر رأسها في قوس عنقه .

أنستهما الدوويت جسديهما مرة أخرى . وعادت الشمس النبيذية تتسلل من بين فتحات الستائر وتنطرش بالطول على الجدران والتماثيل والرسوم . " نزلني حتى لا تتعب . "

غادرها بيتهوفن . اختفى شعاع الشمس . خفقت الستائر عند جدار " غرفة " النوم . تطايرت الستائر وعلت في فضاء المرسم . انسدلت . ادلهم المكان .

" المطر ينزل الآن . "

" كل لقاءاتنا صارت بالمطر . "

" سأرسم المطر في لوحاتي القادمة . "

" لكن المطر يتوقف . لا يدوم . "

" نحن ندوم . لن نتوقف . "

" أنت تحلم . هذه العلاقة مستحيلة . "

مد يده إلى عمودي المرمر . وبعدئذ كان المستحيل أن يتوقف . اعتكفت نورما في حجرة ذراعيه وصدره ولم تلق بالا لشيء إلا لستارة فصلت " غرفة " النوم عن المرسم . فرحت لأنه لبى طلبها ، ووجمت لأن التلبية عنت استمرار العلاقة .

مارسا الحب كاملا هذه المرة . ثلاث مرات بالنسبة لفراس ، وما لا يعرف كم مرة بالنسبة لنورما . الصمت والسكون . الملامسة بأطراف أصابع قدميها . شبه الإغفاء . الممارسة من جديد . يتكرر السياق ، بلا أية كلمة . الشهيق بـ " مون ديو ! " حتى لحظات الإيغاف ، وبعدها يختلط بالجعير في صيحة متطاولة متعالية متهاوية . نورما تريد أن تنام . ترى هل تعرف أخواتها هذا الفرح والجمال ؟

انفطرا أحدهما عن الآخر ، وتجاورا .

وهو ينظر إليها ، أحس بأن جفوة قد زالت وظهر تحتها قوام صار فجأة شقيقاً ، وأن هذا القوام قد خلع الغربة التي كانت بينهما وتسربل بالغرابة ، وأنه يهجع هجوعاً حميماً بمحاذاة خاصرته ، لاغياً كل مسافة كانت من قبل بينهما ، ومستوطناً الأمكنة التي تهجع فيها روحه . كأنها وجدت هنا منذ القدم .

وأحست نورما المضطجعة إلى جانبه مغمضة العينين أنها قد انسلت من ضلع صدره الأيسر المجاور لنهدها ، قد خرجت لا لتبتعد ، وإنما لتتكون ، وليحس بها ويراها بجواره . هذا الرجل المحدودب هو آدمها .

فقط نظرت إلى ساعتها ورأت أنها السادسة والنصف ، أزاحت الشرشف ونبست : " بودي آخذ دوش . " التفتت إليه وتساءلت . " وأنت ؟ المرة الماضية لم تأخذ دوش ! "

هز رأسه بخمول : " أمسح آثار جسمك عن جسمي ؟ أجدبه بالنظافة بعدما تسمد بالحب ؟ "

" كومساألور ، " وأضافت ببسمة خاوية : " أنا سآخذ دوشين بدل الواحد . "

كانت قد اتزرت بالمنشفة في طريقها إلى الحمام . اعترضها فراس برعونة صبيانية : " الذي على جسمك حب ، لا وسخ . خذيه معك إلى البيت . " مدت أصابعها إلى خاصرته لتنحيه جانبا : "وفي البيت سآخذ حماما كاملا . " فجأة حملق إلى شفتيها : " مستحيل ! هذه ثالث مرة ! "

نظرت إليه مرتاعة من خطر لم تعرف كنهه . طمأنها أنه ابتسم ، ولم يطمئنها أنه قال : " شفتاك كحليتان ! " شدت إصبعيها على شفتيها بالارتياع نفسه : " كحليتان من أي شيء ؟ " " من التبويس طبعا . لكن ، غريب ! ألا يقبل المقدم شفتيك أبدا ؟ "

هرعت إلى الحمام . لحق بها . نظرت في المرآة إلى ازرقاق شفتيها المدلهم ، فإلى وجهه . متى كان للحب كل هذه البصمات ؟ كانت عيناها وفمها ثلاث فوهات مصوبة . " من التبويس ! ؟ كل هذا ! ؟" وعادت تنظر

إلى المرآة . " ماذا عملت فيَ ؟ " دمدمت بسخط معلن . ثم : " وكم سيبقى ؟ متى يزول ؟ " همهم هو : " يعني . . . يمكن ، حتى الصباح . " " وإذا بقي حتى الظهر ؟ وورم أيضا! ؟ "

أمسك بزندها : " اهدئي شوية . المفروض أن لا تزرق شفتاك . أنت متزوجة من عشر سنوات ."

" ساكريه بلو ! معناها سيبقى ! أنت ماذا عملت في ؟ "

داهمتها نوبة يأس منفعل . بلا توان لبست ثيابها . تأبطت جزدانها وخرجت . هكذا دفعة واحدة . ولم ترد على صيحات فراس التي ركضت وراءها مع ساقيه العاريتين . صفقت الباب وراءها وأسرعت نحو المصعد : هذا النذل ! لقد خدعها . دمغها بدمغة الخطيئة .

كانت لبناية المهندسين سوءة واحدة مفيدة هي اللاإنسانية الصامتة المتغلغلة في داخلها . بسببها استطاعت نورما أن تخب إلى سيارتها باستتار متزايد . إن أحداً لم يرها . لكن كيانها هوى عندما وصلت إلى بيتها . ليس خوفا من ورم شفتيها وزرقتهما ، بل لأنها ستدخل هذا البيت لأول مرة في حياتها وهي زانية .

اتجهتَ إلى الهاتف الذي كان يرن . كيف سترد على مهند بهاتين الشفتين ؟ سيسألها : ماذا فعلت ؟ وستجيب : خنتك مع فراس نصار .

رفعت السماعة . الاعتراف هو القصاص الأدنى الذي تستحقه . وسيان رموها في الشوارع أو جروها في الساحات ، بصقوا عليها أو قطعوا ثدييها الفاجرين . هي تستحق . ويجب أن تنزل بها العقوبة .

خيب مهند استعدادها الانتحاري للاعتراف . كانت قد تهيأت ليوم

الحشر . جلست على الصوفا وأمضت ثواني دهرية قبل أن تقول " ألو ! " وقد يبست عروقها .

مساها مهند بالخير . وماذا تفعل ؟ . . . لا تفعل شيئا . . . هل تعشت ؟ . . . ليس بعد . . . ستتفرج على التلفزيون ؟ . . . يمكن ؛ أو تقرأ قصة . . . كيف أمضت يومها ؟ . . . عادي ؛ الواحد لا يعرف كيف يمر كل هذا الوقت . . . هذا طبيعي ، فهي تضجر في غيابه . . . كان عليها شغلات كثيرة وصغيرة متراكمة عملتها ؛ وهو كيف الوضع عنده ؟ . . . مثل العادة ، يلعب وزملاءه الورق والطاولة . . . هل تعشى ؟ . . . بعد قليل ؛ لكنه سيبقى نصف جائع حتى ظهر الغد ليأكل من طبخها الذي ولا أطيب منه . . . لن يأتي قبل ظهر الغد ؟ . . . طبعا لا ؛ ومتى كان يأتي قبل ظهر الغد ؟ . . . متأكد ؟ . . . متأكد ونصف ، وعليها أن تتحمل فراقه وتصبر . انتهى .

من التي تكلمت بالنيابة عن نورما البدر ؟ من التي استسهلت إخفاء جريمة ؟ التي تنهدت بطمأنينة كأن العالم نشيد تنشده الملائكة ؟ هل الحب أقوى من الجريمة ؟ أعادت السماعة .

عبر فضاء متشرشر ترسخ مكانان اثنان في جمجمة نورما البدر : جدار يحمل صورة المدير العام ومرسم يَشرق بتماثيل ولوحات وغرفة نوم . أحاط المكانان بجسدها الهامد على صوفا . اندفع فيه عشرة آلاف كهروب ، وتحفزت على فوهات مسامه .

مدت يداً ورفعت السماعة وضربت رقما . وقالت شفتاها المنبورتان " مرحبا" للشخص الوحيد الذي يجب ألا تكلماه . ماذا يفعل الأستاذ فراس الآن ؟ . . . إنه يتعجب من أنها تناديه الأستاذ فراس . . . هل نسي قصة (الصرصار) لهاني الراهب ؟ . . . هو أصلا لم يقرأها لأنه كان في غابة من

اللوحات والموسيقا ، والريح الهاشلة بستائر بيت عاتم وأعشاب جسدين عطشين . ومن الحب الذي هو مسيح الروح ويطلق ألف فراشة بوجه الصرصار . . .

أغلقت الخط .

اتصلت ثانية . لماذا قطعت الخط ؟ يجب ألا يتكلم هكذا لئلا يسمعه الصرصار . . . أهي فعلا تخاف التلفونات إلى هذا الحد ؟ . . . هي تريد أن تقول شيئا . لا مانع لديها من تلبية طلب رئيس التحرير بشأن اللوحات . لكن عليه قبل أن تقرأ مراجعة " نظام " هذه الورقة ، وأيضا مراجعة لغتها . وعليه أيضا ألا يقول أنها أخطأت في فهم اللوحات حتى ولو أخطأت . لأنها مستعدة لكل مداخلات الآخرين إذا ظل هو صامتاً لا ينطق بكلمة . . . كيف هما شفتاها الآن ؟ . . . هي تشكر الله فغدا ليس عليها سوى أن تطبخ الطبخة اليومية المعهودة " للجماعة " ، وسيمكنها المرور إلى المجلة لتأمل اللوحات هناك . . . لماذا لا تأخذها إلى البيت وتتأملها على راحتها ؟ . . . إلى البيت ! لأنه ، لأنه لا متسع لها في البيت . في المجلة تنفرد بها تماما ، وتتوحد بها . . . بالعكس ، هناك ألف عابر سبيل في المجلة . . . لا ، المجلة أحسن . . . ميراي ستكتب صفحتين للمجلة تنشران بعد الصور . . . لكن دراسة نورما ستكون شيئا آخر . . .

نصف ساعة من التفاصيل المستفيضة . قبل أن يشهق ضجر في داخله : من أين تأتي بكل هذا الحكي ! شهقت هي في أذنه : " الجماعة يمكن أن يتصلوا مرة ثانية . أورفوار . "

أحست أن جسمها قد تعزل مما يحره . لو لم تهتف له لظلت مثل من تتمدد على بساط من الجمر . نصف سعادة الحب خوف عذب . تكورت

على الصوفا في مزيج غريب من الصمت والصدى . بيت يمتص كل صوت ، وجسد يكتظ بالشوارد . ماذا سيقول لو عرف أن مهند لن يقبل بدخول اللوحات إلى بيته ؟ " الآن تكتبين عن لوحاته ، وبكرة تقيمين معه علاقة ، " سيهتف برخاوته المعهودة الزاجرة . لكنه سيمد إصبعه إلى زناد مسدسه لو عرف أن العلاقة قامت وقضي الأمر . تيبست عروقها من جديد . اندحرت .

أين كانت نورما البدر عندما حدث ذلك ؟ أين كان المدير العام ؟

امتص الضوء الخافت جميع الأصوات . شرشرت الشوارد كل بؤبؤ . وهبطت نورما ثلاثا وسبعين درجة فألفت نفسها في سرداب ساطع بالضوء . رخام صقيل كالورد والمرايا يتمدى على أرضه وجدرانه . جدران لا منفذ لها . تشع وتسطع . خرساء . كل شيء يتجه نحو النهاية اللانهائية في آخر السرداب الذي لا آخر له . بيديها تدفع عربة بست عجلات تحمل جثمان المدير العام المسجى . الجثمان يرجرج بلطف داخل ثوبه الأبيض الناصع . وقالت شفتاها السوداوان المطبقتان : " إنها مقبرة تليق بك يا أبي . كلها لك . " قالتا : " بيدي هاتين . " قالتا : " لم أكن أتصور مقبرة جميلة وجليلة بهذا الشكل . " ودفعت يداها العربة .

عشية اليوم التالي وجدت جسدها ممددا على العربة . سوى أنها لم تكن ميتة . وأيضا لم تكن ترى مناماً . إلى جانبها مهند يدفعها بقبضة يده . يرجرجها بلطف لكي ترمي ثيابها . وهي منبطحة متمترسة . تتظاهر بالتعب وبالنعاس والشقيقة والإقياء . . . وهو يدفعها بقبضة يده . حتى تلك الساعة العاشرة من الليل لم ينتبه إلى شفتيها اللتين صارتا فحمتين صغيرتين ، بدل أن يتلاشى " كحلهما " كما قال فراس لها . مرة عابرة فقط سألها : " لطمت شفتاك بشيء ؟ لماذا هما غامقتان هكذا ؟"فخبت إلى المطبخ دونما جواب

ولا دورة دموية . بعدئذ استماتت في اتقاء مواجهته . يجب ألا يتحول ذعرها المتعالي إلى اعتراف منهار . ولحظة بدأ جلسته المسائية أمام التلفزيون ، ووضع في متناول يده صحن المكسرات ، تمنت لو تعرف كيف تصلي ركعتين لتشكر الله .

طمرت شفتيها في السرير . طمرت حلمتيها في نهدية ، لأول مرة منذ عشرين عاما أثناء النوم .

كانت واثقة من هزيمتها أمام إصبعه المعقوفة . عشر سنوات ولم تنجح مرة واحدة في منعه عنها . هذا المساء ، شعورها باقتراب الكارثة المحققة جعل أصابعها أظافر وجسدها ألواح خشب . تشبثت والتصقت . وصاح مهند : " مالك اليوم ! ؟ " فتأكدت أنه سيلمس بيده أين مخرت سفن فراس نصار عباب جسدها . يستحيل ألا يحس بأن لحمها هذا المساء غير لحمها في الأماسي القديمة . سيعرف أن صدراً آخر وأصابع وشفتين قد رمحت على لحمها ، أنها قد أدخلت . . . أدخلت . . .

" أنا أعرفك . الله يرحمه ، قال لي يلزمك ترويض . لكن لا تتمنعي في نومتي معك . أنت لم تنجحي مرة واحدة من قبل . لا أسمع لك . يالله ! مون بيتيت لا بان ! "

لم تستطع الأرنب الصغيرة مغادرة جحرها . قالت : " اتركني اليوم ، أبوس يدك ! ليس اليوم يوم خصوبة . " فهتف : " وإن لم يكن ! ألست رجلا مثل الرجال ؟ " رفع رداء نومها من عند كاحلها . طفرت . هوت عن السرير . " أنت مجنونة ! أي شيء دهاك اليوم ؟ "

شلها خوف . " بودي أطفئ الضوء !" صاحت بفورة . " أنت تعرفني لا أحب الضوء . " دمدم ساخطاً : " طيب أطفئيه . " عام البيت على بحرة من الظلام .

كان قد استنشاط شهوة بسبب تمنعها . لم يعد يهمه أن ترمي ما تلبسه بنفسها ، كما هي العادة ، ليحس أنها تتعرى له . انتزع الرداء بسحبة واحدة . فوجئ بالنهدية فلم يعرف كيف يتخلص منها . اقتلعها . وفوجئ بالمعور . اقتلعه . تمددت تحت شفرة المقصلة لتنفيذ الحكم . اندفع اندفاعاته العادية المألوفة ، لكن جسدها راح يصدها الواحدة تلو الأخرى . تمترست المقاومة في فرجها واكتظت . كأن مهند يضرب في رئتيها وليس في مهبلها . ألف شكر لأنه لا يعرف قبلة الشفتين ، ولا النهدين والسرة والجسد . وإلا لكانت تلك القبل عصات قبر . لقد امتص بجهل كارثي أنين لحمها الجاعر ، أخمد جميع شهبه الهاربة وتقلصاته الرافضة . كان جسدها كارهاً محتدماً راجماً . ها هنا طفلة ترفض ترويض لحمها . حتى تلك النغبشات اللطيفة ، التي هي حصتها من المتعة ، تخلفت عن الحضور . اكتسح الغثيان رأسها دفقة صفراء بعد دفقة . وملأ الاختناق أنفها وأذنيها .

ألف شكر لأن مهند لا يجعل من ممارسته غزوة فضائية لتضاريس جسدها . عياره ثلاث دقائق . مئة وثمانون ثانية . في الربع الأخير منها ، ربما لأول مرة ، مد يده وأدخل ذكره في زوجته . لكن الجوف الذي حاول اختراقه تكتل وتسمط وانسد . كان حلقها يحشرج ، وصدرها ينضغط على رئتيها تحت كتلة مهند الرسوبية . ولم يكن اختراق الجوف ممكنا لو لا أن نورما بنفسها خذلته : إذا لم ينفتح سيعرف مهند ما فعل فراس . عندئذ استسلم الجسد .

أطلق مهند تنهدة وصوتاً : " يالطيف ما ألذك اليوم ! تمنعي على كل مرة . يا سلام ! وكنت ستحرمينني منك هذه الليلة يا بنت عبد المجيد البدر ؟"

لم تستطع أن توقف انهماراً لسيل من الشقيقة والغثيان فيها . وسيل الماء الساخن في الحمام لم يستطع هو الآخر أن يزيل الدبق وقشور الموز عن جلدها . هذا الرجل يعرف جسمها منذ عشر سنوات ، ولم يستطع الليلة ولو لبرهة عابرة أن يحس أنه يرفضه . أم أنه أحس فازداد شبقاً ؟ لم يلمس دمغات فراس نصار ونسغه في داخلها . فقط ذلك الاغتصاب ، ثم فرحه الطائر بفروسيته .

ألفت نفسها تلبس المعور والنهدية ، ثم بيجامة سميكة وجراباً لقدميها . يجب أن تحشر جسدها في شرنقة لتوقف تلك المذلات اللزجة التي ألصقها مهند عليه . لو اكتشف خيانته لكان ذلك أكرم لها . لعنى ذلك وجود تواصل ولغة بين الجسد والزوج الذي احتكره أحد عشر عاما . رباه ! كم يستطيع الرجال إهانة النساء !

كانت قريرة الخاطر خلال الأيام التالية . لقد منحتها العناية الإلهية فرصة للتوبة وللخلاص . ومهند ببراءته وبساطته وقبوله الأعمى بها ، أسدل ستارة على ما كان سيغدو فاجعة لو أنه عرفه . من الآن فصاعداً يجب ألا تسمح لجسدها بالخروج من مدار مهند ، زوجها ، رجلها الذي اختاره لها المدير العام ، الذي لم يختره لو كان غيره أفضل . هذا الجسد حقه ، ملكه . وهي لن تخرج على الناموس .

خلال أسبوع عادت إلى نقطة الصفر المطلق تجاه فراس . كانت موضوعية ولطيفة ونشطة ، في الكافيتريا وغرفة الشغل ومكتب رئيس التحرير . وعندما انفردا انفراداً عفوياً ، أخيراً ، وجلست مقابله تحسو شايها بالحليب ، قالت : " أستاذ فراس ، أعتقد أني سأكتب بعض الملاحظات الهامة عن لوحاتك لجلستنا الأسبوعية . " أحس أنها ليست نورما التي قال لها : أعتقد أني أحبك .

قال: " ملاحظات ؟ تواضعك في غير محله يا مدام . " ابتسمت برصانة : " جلست مع لوحاتك مرتين . وقرأت ما كتبته ميراي في المجلة . لم تعجبني كتابتها . مع أنها جيدة على مستوى الكتابة الصحفية . "

رغم أن " بروده " و " جفاف روحه " استفزاها وأثارا اشمئزازها ، فقد رأت فيهما فرصة أخرى منحتها العناية الإلهية . إنها تمضي قدما في ترويض جسدها . يجب أن تهدم الجسر الذي قام بينها وبين ذلك الوطواط . إنه حتى لم يسألها لماذا لم تتصل . ولو سأل لتلقى الجواب الذي يستحقه .

سألها مهند وهو يحمل صحن المكسرات إلى كنبة التلفزيون : " ماذا تكتب الصحفية الخطيرة ؟ " قالت إنها تطور بعض الملاحظات لتصير مقالة . . . مقالة طلبها رئيس التحرير . هزهز رأسه هزهزات قصيرة هازلة : " النساء حتى في باريس يمتن على رجل يستتهن . وأنت تكفرين بالنعمة ، وتصرين على شغل أغناك الله عنه . "

تفادت الخوض في طلبه المزمن أن تترك شغلها وتتفرغ له . قالت : " ستنزعج أكثر لو عرفت أني سأقرؤها في ندوتنا الأسبوعية . "

" أنا شايف أنك من يوم وفاة المرحوم والدك ، عقلك بدأ يخض . رجعت لهؤلاء المثقفين ؟ " لم تجب . اعتقلت جملته الأولى ذهنها . لم تفهم لماذا . فقط أحست بالخوف كأن سرا مشبوها فيها يهدد بأن ينفلش . قالت : " أنت تشوشني . " ونهضت بأوراقها إلى المكتبة .

لم تخيب مداخلتها توقعات أحد . كانت بهجة حقيقية للجميع .انهمرت عليها المدائح من كل صوب . أطنبوا في الإشادة بذائقتها الراقية ، ولغتها الدقيقة المحكمة ، ومنهجها البنيوي . لقد وجد فراس نصار أخيراً الناقد الذي يستحقه . لكن الكلام الذي أرجحها حقا كان اقتراح فراس

نصار الصاعق : " مدام نورما ، أنت لا يخطر لك الاشتغال على أطروحة دكتوراه ؟ " كان هناك امرأة اسمها نورما أصابها الذعر من ناقدة اكتشفها المجتمعون واسمها نورما أيضاً .

الابتسامة المنمقة التي ظلت تطلقها بوجه المجاملات والإعجابات ، أقفرت بالتدريج . ارتبك فراس . نظرت نورما إليه كمن ترجوه السكوت عن فضيحة . بلا إرادة ، أصر على القول : " ياجماعة أنا لأول مرة أسمع تناولا نقديا للرسم بحسب قيم أدبية فلسفية . هذا المنهج وحده يحصل للمدام نورما على دكتوراه ديتا . ناهيك بالمضمون . وأنتم تعرفون الفرنسيين . "

فتحت الكلمات نفقا في خوامدها الذهنية . ولأنها بطيئة الاستجابة ، أمضت يومين آخرين قبل أن تتصل . لقد عرفت أن رجل الصلصال هذا ربما يعيد تكوينها . لكنها وضعت السماعة أمام أذنيها وشفتيها كأن الحديث لم ينقطع إلا برهة عابرة . " مرحبا . . . هذه أنا . . . مشغول . " وفوراً : "أستاذ فراس أنت جاد في حديثك ذلك اليوم عن الدكتوراه ؟ "

" رجعت إلى " الأستاذ " مرة ثانية ؟ "

" أنت تعتقد بجد أني قادرة على كتابة تيز دو دكتوراه ديتا ؟ "

" ودكتوراه أونيفرسال . تسألين كأنك بحاجة إلى شهادة من أحد ! "

" ممكن أمر بعد . . . أربعين دقيقة ؟ حديث التليفون لا يريحني . "

" بعد أربعين ثانية إذا أمكن . "

بعد أربعين دقيقة فتح لها الباب فأسقط في يدها التي كانت تهم برن الجرس . أرضاها أنه كان ينتظرها . سوى أن لهفته لم تغير شيئا من تصميمها على ألا يكون للزيارة غرض آخر . جلست على الكنبة وجزدانها

في حجرها . رفضت تناول الشاي أو القهوة لأنها يجب أن تعود قبل أن يتصل مهند من الثكنة . وبلا إبطاء : منذ عامين حصلت على قبول مبدئي لفكرة دكتوراه ديتا من جامعة بوردو ؛ هناك شخصية من معارف أبيها سهل لها هذا القبول المرن بما فيه صبره على تباطؤها ؛ يمكنها الآن أن تمضي في معالجة " نصوص " من الرسم والنحت ، على أساس قيم أدبية ، مثلما قال فراس ، ويكون منهجاً بنيوياً . . . ولكن . . .

لم تستطع أن تثب فوق حاجز غامض يمنعها من المتابعة . ارتبكت وتخاذلت عندما رأت عينيه .

" جماعتي غير مقتنعين . يقولون أني كنت طالبة دكتوراه يوم تزوجنا ، ولم أتابع بعدها ، فلأي شيء أتابع الآن . "

" إذا أخذت الدكتوراه وصرت أستاذة في كلية الفنون . . . هذه قفزة كبيرة . وأنت عندك الإمكانيات . "

" وأنت ستساعدني ؟ "

" أنت تحيرينني ، بصراحة . موهبة واضحة ، وثقة بالنفس معدومة . "

" لكنك ستساعدني . عدني أنك ستساعدني . "

" أنا تسعدني أي مناسبة لأكون معك . لكن أنت لست بحاجة إلى أحد."

" ونكون أصدقاء . بدون الناحية الفيزيولوجية . "

" مستحيل . كل حب بلا هذه الناحية مسخرة . "

" يعني الناحية الفيزيولوجية شرط ؟ إما هي وأما لن نكون أصدقاء ؟"

لم يعد فراس يعرف كيف يتعامل مع سؤالها الأخير . قال بنبرة : " الحب ليس فيه شروط . إذا كانت نفسك من الداخل ، غير راغبة . . . خلص ! أنت في أي عصر تعيشين ؟ في هذه الأيام من يرغم امرأة على أن تنام معه بالقوة ؟ لكن أن نكون معاً ونجلس مثل الأخوة . . . هذا كذب على الطبيعة . "

وضعت راحتيها على جزدانها . شردت عيناها : ويسمي الذي بينهما حباً !

وصلتهما أصوات أبواق السيارات من بعيد . ثم عبرت الجدار الزجاجي بروق ملتهبة وسطعت في المرسم . لعيني فراس على الأقل بدا وجهها وكأنه التهب .

هزت رأسها هزة واحدة : " تتكلم كأننا يمكن أن نستمر . هذا شيء مستحيل . أنا غير نوع عن إيما بوفاري . "

تزايد سخطه : " من كل الثقافة الفرنسية اخترت هذه القصة المشوهة! ؟"

" مشوهة ! "

" طبعاً . مؤلف يعاقب بطلته لأنها تحلم . يحتقر حاجتها للحب ويشرشحها بتهمة الرومنتيكية . مع أن ظروفها وشخصية زوجها البليد السمج ، تحتم عليها البحث عن الحب والإنسانية . "

أثبتت راحتيها على الجزدان وساعديها حوله . تأملها فراس في سكونها وانحناءتها الخفيفة ، فرأى متعبدة متعبة ولكن بلا رب تبتهل إليه . بحركة واحدة جثا عند قدميها . احتوت يداه أصابعها .

فتحت نورما كفيها وأمسكت بكفيه ، أخذ يقبل أصابعها وراحتيها .

أبعد الجزدان إلى الطاولة . جمدت يداها . طمر رأسه في حجرها وطوق حوضها بذراعيه .

هدآ . وصلت إليهما الأصوات البعيدة . وحضرت اللوحات ، والممرات بين التماثيل ، والعتم المتشرشر بأضواء من الخارج . رؤوس أصابعها فقط لامست شعره . ثم شدته مؤنبة . انفرك رأسه فيها مستجيبا للتأنيب . ثم صوتها المغلوب على أمره : " أنت لخبطت لي حياتي . " رفعها ذراعه عن الكنبة إلى سماء الشقة . غطت بجذعها رأسه . " نزلني . " مشى بها إلى السرير . وقبلة مستغرقة ، متنقلة من شفة إلى لسان إلى شفتين ولسانين .

بعد دقائق حميمة ، توقف ذراع فراس عن انسياحاته : " أنت لست معي . "

نظرت إليه مرتعدة : " كيف عرفت ؟ "

" جسدك لا يرد على جسدي . لست معي اليوم . "

تفحصته عيناها : " كيف تعرف ؟ "

" كيف لا أعرف ! جسدك كتابي ، وأنا أقرؤه . "

تحول امتقاع وجهها إلى قناع . راقبها بدهشة مختبئة . هبطت عن السرير وقصدت الكرسي المذرع الذي عليه ملابسها . راقبها حتى ارتدت جميع القطع . لم يتحرك . لم تلتفت . كأنها نصبت بينهما ستارة زجاجية وأدارت ظهرها ، غير واثقة أبداً أنه سيتركها ترتدي ملابسها دون أن تنام معه . وفقط وبعد أن انتبهت إلى أن جزدانها ما يزال على الطاولة ، التفتت إلى فراس وغمغمت : " آسفة . جوبوبا . " وخرجت من فتحة الستار .

بعد ثوان سمع صوت ارتطام الباب . لم يكن قادرا على الفهم ، وإنما على الانفجار .

في السكون والصمت اللذين تليا ، كان قادرا على الاضطجاع في المقابر ، وعلى النظر إلى جسمه العاري في أقصى مذلته وهوانه . لم تحتقره امرأة من قبل هذا الاحتقار . لكنه عرف كيف يرتدي ملابسه ويخرج إلى فضاءات المدينة الجرداء . ألم يكتب لها إنها خضراء كالبحار ؟

دخلت نورما بيتها وارتمت على أول كنبة ؛ دخل " حانة المرفأ " وارتمى على مقعد دوار حول البسطة .

انتشلت لوحته من مخبئها ونصبتها على الصوفا تحت صورة المدير العام ؛ جاءه قدح البيرة الأسطواني إلى ما بين راحتيه :

ألم تقل إن حياتها اكتملت بزواجها منذ عشرة أعوام ؟

ألم يقل إن حياته اكتملت بزواجه الأول ، ثم الثاني الذي جاء نكاية بالأول ، فالثالث ؟

ألم تحسد نفسها لهذا الحظ العظيم في زوج يعشق الحياة العائلية ؟

ألم تفعم قبله النشوة لأنه أحس بعمق حبه العظيم لعفاف ثم جوليا ثم سوزان فنجود وسنثيا وربى وألف امرأة ؟

ألم تحب حياتها بامتنان لأن هناك أولاد أخوتها وأخويها وخالها ؟

ألم يعتقد أنه قد علا منذ زمان بعيد فوق النداءات الغاوية وضجيج الأعصاب ؟

أهي حواء في سقوط جديد ؟

أهو آدم في سقوط جديد ؟

الفزع : ذلك هو ما اشتعل في نورما عندما أوحى مهند ظهيرة اليوم

التالي برغبته فيها . ثم النفور . ثم ضربة صاعقة من ضربات الشقيقة . سألته لماذا بعد الظهر ، وعادته هي العاشرة ليلا . استغرب : " ألا تريدين أن أبسطك ؟ " وماذا إذا كانت غير قادرة ؟ " ما حكايتك في هذه الأيام ؟ قبل الحرب كنت تفتخرين برغبتي المتواصلة فيك ! "

همت بأن تتوسل إليه . تذكرت عهدها الذي ضربته للمدير العام بمنح مهند حقوقه الجنسية كلما طلبها . تذكرت أن هذا هو الناموس . هذه هي الشريعة . وهذا هو المدير العام . اختفى الفزع . وقالت لنفسها : ما سيحدث بعد فرشاة أسنانها هو الشيء الطبيعي . اختفى الانحرار .

تأملت قامة مهند السامقة ، المزينة بكرشه الوجيه ، وتحركاته الأليفة التي تعطي لهذا البيت سمة ورونقاً ، إلى الفيض الذي يفيض منه حباً ورعاية وحماية .

لولا هضبة التعب هذه التي حطت عليها فجأة . إن خلاياها تنفرط . تحيرت كيف ستلبي رغبة مهند وهي بهذا النضوب وليس فيها دفقة واحدة . وثب إلى السرير ، ومشت إلى الحمام . فرشت أسنانها .

لحظة وصولها إلى السرير تقلقل الغثيان فيها صعوداً وهبوطاً . انطلقت سوائل صفراء في بدنها . انفتح رأسها عند مؤخرة العنق وخرجت من شقوقه ريح نارية . نزعت ملابسها قطعة باردة بعد قطعة . أخذ قيح يتفشى على جلدها . لماذا وصفها فراس نصار بأنها خضراء كالبحار ؟

كانت قريرة وقانتة . لقد منحت زوجها ما يحق له . أحست بروحها مسفوحة وبجسمها مطفأ ومستريحاً . وصار إحساسها غبطة مع انهمار شذرات السحاح على مفارقها . لكن حربة غادرة انطلقت من مكان مجهول واخترقت عتبة رأسها وهي تعود إلى السرير . قال مهند : " لم تمسحي

الشرشف . " هزت رأسها بأنها ستفعل . تناولت حبتي كافيرغوت ، وجرعتي ماء .

مسحت الشرشف ومسحته . غمغم مهند بنصف تثاؤب :" انتبهي . مزقت الشرشف . " نظرت إلى يديها مستغربة . إنها فقط أربع أو خمس قطرات . تمددت إلى جانبه مرتاحة الضمير . وخلا دماغها من كل فكرة ساخنة . حملتها الذكريات إلى بيت جدتها في عمريت وهناك راحت تنطنط في حديقته الوارفة وهي تمرر الحبلة تحت قدميها ثم فوق رأسها .

فاجأها النوم بما لم تفهم . بحلم رأت نفسها مغمضة الإرادة وهي تقصه على فراس . لقد تحطم زجاج بيت الجدة عن بكرة أبيه ، وانتشر حتى في الحديقة . كل باب وكل نافذة وكل مرآة ، صارت نثاراً . وقد تم ذلك فجأة . بل من لحظة محددة واضحة هي التي سبقت شطف البيت . كان الهواء قوياً وساخناً . الشمس تتدفق وتتغلغل في البيت . وبات مستحيلا على أي فرد من أفراد العائلة أن يخطو خطوة واحدة دون أن تنحشر الشظايا بالعشرات في قدميه الحافيتين . لأن الجميع كانوا حفاة . لذلك أعطت أوامرها الصارمة وبادرت فورا مع شقيقاتها وخالاتها والخادمات ، فشمرن إلى ما فوق الركب وبدأن بكنس الشظايا . كانت هناك عشرون مكنسة ، لكن أخويها وخالها رفضوا أن يمدوا أيديهم على أية مكنسة ، أو حتى أن يشاركوا في تعزيل الحديقة . هتفت نورما أيرضيك هذا يا أبي ؟ فهز المدير العام رأسه بالنفي وقال عيب عليهم . وقد أحبطها أنه لم تعد في الدار كلها مرآة واحدة ينظرون فيها إلى أنفسهم ويرون كم هو حقا عيب عليهم .

قال فراس : " هذه أول مرة أحس فيها أني دخلت لاوعيك . "

فغمغمت باستنكار معابث : " أنت ! ما دخلك ؟ لم يكن لك وجود في المنام . "

قال : " أنا الذي كسرت الزجاج . "

لم تفهم مراميه . ولأنها تنفر من المجادلة ، اكتفت بالقول :" هكذا إذن ! "

قال : " ما نشأت عليه هش مثل الزجاج . وهو انكسر وبحاجة إلى تعزيل . "

نظرت إليه بابتسامتها الفريدة ، التي تفرش شفتيها وتملؤها دون انفراج ، وقد تكورت وجنتاها لترسما إطاراً للابتسامة ، جميلاً هو الآخر . قالت : " لو عرفت أنك ستلقي علي محاضرة لما حكيت لك عن المنام . "

قال متنحاً : " لو عرفت أن محاضرتي لن تؤثر فيك لما ألقيتها . "

دفعت كرسيها ذا العجلات نحو طاولته وأمسكت بيديه : " فراس ، أنا مولعة بك جدا . ويمكن أني أحبك . مون ديو ! يمكن ؟ جو تيم ! جوتيم ! " أسرع يضع أصابعه على شفتيها ويوقف ما بقي عليهما من لغة . عادت إلى الشفتين تلك الابتسامة . ثم سألتا : " لأي شيء ؟ " فقال : " هل هناك حكي يحكى بعد " أحبك " ؟ " وردت معابثة : " كنت أريد أن أقول : ولكن ! " تحرشت به عيناها وهما لا تدريان . ولم يعد عندئذ يكترث بالعالم الخارجي إلا بالقدر الكافي لكي يوصد باب المكتب ويعود إليها . شهقت وارتد جذعها إلى الخلف : " إياك ! " ونهضت للدفاع عن إحداثيات عقلها ، فوقعت بين يديه .

الحلم شعيرات دقيقة ينساب فيها دم الحب . وقد انتشرت نورما على أجنحته عبر ذلك الربيع الغجري المرتعش بالمطر .

ذات مساء سألها فراس حانقاً كيف تهاتفه أحياناً طول ساعة بأكملها ، ثم تمضي ثلاثة أيام فلا يسمع صوتها في المساء . وأجابت ببساطة : " لأن مهند يكون في الشكنة . " . . . يعني ينام هناك ؟ . . . يعني ينام هناك . . . يعني هي وحدها الآن ؟ . . . يعني نعم .

" يا محمد !" صاح شبه مذهول . " لم تخبريني ؟ "

" حتى لا يلعب الفار بعبك . "

" أي عبّ وأي أبالسة ! اسمعي . من الآن فصاعداً ، كل يوم رابع يكون لنا . "

" أنت لم تقرأ قصة الصرصار . داكور ، داكور . لكن اليوم فات الوقت . "

" أي وقت فات ؟ تقولين هو نائم في الشكنة . "

" دائماً يتصل بين السابعة والثامنة . وبعد الثامنة مستحيل . أنت تعرف البلد . "

" أنا أجيء . بعد ثلث ساعة أكون عندك . "

" هس ولا كلمة . لن تراني في البيت . "

سكت . منذ البداية وطول سنين لاحقة ، ظل متمسكاً بألا يفرض عليها أية تلبية لحاجاته . فالحب يفيض بحسب الناموس لا بحسب القاموس . وطول السنين لم تكف نورما عن الدهشة من أنها وعدته ذلك الوعد . كل يوم رابع يكون لنا ! داكور ! لقد قطعت على نفسها عهداً بغمضة وعي . وعندما فتحت وعيها كان قد فات الأوان . ثلاثين مرة صممت تصميماً مارداً على النكث بوعدها وثلاثين مرة وفت به . كأن طريقاً عريضاً

قد انشق عبر حياتها مرة وإلى الأبد ، واستحال عليها بعدئذ أن تتفادى المسير عليه .

بدأ تصميمها في أول صباح تلا ذلك الموعد . أيقظت فراس من نومه كالعادة . قالت له : " قم يا كسلان ! " ولئلا ترى نفسها وجهاً لوجه أمام صراعاتها ، تخيلت سلك الهاتف وقد ازدحم بالصراصير . ثم أغرقت فراس في تيارات من الأحداث والأحاديث المتعلقة بأمها وأهلها وزملائها . ورأت نفسها سعيدة بهذا الضيق المنصت لثرثرتها . لقد جعلته صديقاً وحسب رغم أنفه .

في الصباح الثاني تهاتفا عشر دقائق فقط . وفي الثالث لم يرن الهاتف . لم يبد عليها شيء خاص وهي تلتقيه في المجلة وتطري الكاريكاتير الذي جاء به للعدد المقبل . ولم يشعر هو بغير السعادة لهذا الانحباس المبكر المتستر الذكي . لقد عنى له أن اليوم الرابع زمن آخر مستقل بذاته عن العصور .

نال مهند نصيباً غير عادي من الاهتمام والرعاية . وكذلك أم بهجت . والأخوات والأخوان والخال . حتى زوجة الخال ذات الحركات الخليعة المتمردة . وفي مكان ما من فيافي نفسها ، قبعت نورما البدر وراقبت عودتها التدريجية المؤكدة إلى دروب المدير العام . هي لن تنكر الفيض الذي تحسه تجاه فراس نصار . ولكن ما يعني ؟ هل ولد وليد في سائر أنحاء التاريخ ولم يقمط منذ اليوم الأول لولادته ؟

في الثانية والربع من ظهيرة اليوم الرابع رفعت سماعة الهاتف كي تقول لفراس أخيراً أن العهد الذي قطعته على نفسها عهد مستحيل ولن تلتزم به . حيته أولا ، ثم سألته ما الأخبار . قال إن الخبر الوحيد لديه هو أنه ينتظرها

منذ ست وتسعين ساعة . قالت : " طيب . لكن لن أقدر على المرور حتى الثالثة إلا ربعاً . يعني بحسب زحمة الطريق . "

في مكان ما من أطراف كينونتها أحست أن رأسها اليابس يبث رموزاً منذرة وشيفرات . غير أن هذه كبت في منتصف الطريق ولم تصل . والذي نفذ منها بعثرته رياح وخنقه هدير .لم تعد أذناها تسمعان إلا الموسيقا ، ولا عيناها تريان سوى عشب لحمها ، ولا ساقاها تقويان على الانتظار .

في الثالثة إلا ربعاً ، وهي تمد يدها لتقرع الجرس ، فتح لها الباب . وما إن أغلقه حتى اختطفها عن الأرض . اختطفها فزعقت : " شوية على مهلك ! " وتوقف بها ريثما قفلت الباب مرتين . مشى ، فدمدمت : " نزلني . " وصل بها إلى السرير وهي تدمدم وتلتصق بكتفيه وصدره : " نزلني . " هناك أنزلها . تناولت يده وعادت به إلى الصوفا . " خلنا نحكي شوية . "

كان الحديث الذي ابتدرته بعيداً عن الأقمطة . " بودي آخذ الدكتوراه . يوم كنت طالبة في الجامعة ، كنت أحلم أني سأصير اسماً مهماً . ناقدة ، دارسة ، وأشارك في مؤتمرات وندوات . وتطلع مقالات باسمي . وكتب . وتوجه إلي دعوات . أستلم برامج ثقافية في التلفزيون . كل هذه المشاريع . ياترى ، هذا كله راح ؟ راحت علي ؟ إذا أخذت دكتوراه انكتبت لي حياة جديدة . "

قال فراس بانتشار عابق : " شفت ماذا فعل بك الحب ؟ أعطاك حياة مبدعة . كشف إمكانياتك . يا لله . ابدئي فوراً . المراجع الرئيسية كلها حواليك . "

لمعت عيناها بالسعادة . وقال هو : " لكن أنا رأيي أن يحصل توازن

عندك في الشهادات . المفروض بالأول أن تحصلي على ثانوية عامة في الحب . "

قالت : " اقترح لي العنوان ، " فأحاطت يداه وصدره بها كالأساور .

قال : " الذي ترينه بعينك . " وكانت يداه تفكان ظهرها .

قالت : " خلنا بالأول نشوف التماثيل واللوحات . " لم يرد .

هل يعني منتهى الحب مبتدأ الموت ؟ ذلك هو السؤال الذي عبر جبهة فراس العرقي بعد جولة الحب الأولى . كان قد صنع لنفسه قدحاً طافحاً من القهوة الفرنسية ، وراح يحتسيها جالساً على دوارة صغيرة بجوار نورما الراقدة على صوفا . لقد دخلت كهف الحب ، واضطجعت بانتظار أن تبعث في عصر آخر . كانت شفتاها منتفختين . من بينهما تسرق غطيط خافت هو علامة حياتها الوحيدة .

من سيصدق أنها قبل نصف ساعة كانت تصيح وتفح وتشهق وتخبط في سمائها السابعة ، وأنها ظلت تهتف بالفرنسية : " رباه ! رباه ! " حتى أيغفت .

تساءل وهو يعب تلك الانفعالات : أهذا هو الحب يا ترى ؟ أهو يحبها وهي تحبه ؟ مثل هذه الانفطارات لم يحدث له من قبل .

فكر في كيف يصنع تمثالا من تلك التشهقات ، أو لوحة . وفكر كيف يطلق نورما كسفينة حب في فضاء أكوان الرب الذي تشهق باسمه وتناديه . وعرف أنه إذا أراد أن يحافظ على إيقاعاته وتسارعه فلسوف تلحق بالأفق الأعلى وتقبس شذرة من أرزة المنتهى .

تمدد إلى جانبها . استدارت إليه . ترقرقت شفتاها وأسنانها على

رأسه وعنقه وكتفيه . بوسته وعضعضته . ولم يتوقف صوتها : " جوتيم ! . . . جوتيم ! . . . "

كانت الشمس ترسل كتلة ضوئها المستطيلة عبر النوافذ المتصلة ، وتشعشع على اللوحات والتماثيل . انتبهت آذانهما أيضا لأصوات الشارع المتناشرة . وأيضا : " تصوري ، هذه الصوفا اتسعت لنا . " غمغمت :" أوه ! " جلست : " ما رأيك ؟ ماذا نفعل الآن ؟ " فهم مرادها : " نبدأ شغلنا على الدكتوراه . "

أمسك يدها بيده . أشار باليد الأخرى إلى المرسم : " المكتبة أمامك . تعالي نعمل جولة استطلاعية . "

رفعت يدها الثانية باعتراض باسم : " هذه اسمح لي بها . أريد أن أعمل بنظام . بودي أرى اللوحات أولا وألبومات اللوحات المباعة ، إذا كانت عنك . " نظرت حولها تستطلع محتويات المرسم . " عندك مجموعات مجموعات ، من اللوحات . "

هز رأسه بالموافقة : " على أساس زمني . يعني كل مجموعة انخلقت في فترة زمنية . أتركك وحدك وأعمل لنا قهوة ؟ " لبست ملابسها الداخلية .

قالت : " هذا ترتيب غير فني . أحياناً تبقى بقية من رسمة أو تمثال ، ولا تظهر إلا بعد سنة أو سنين . والله لا بأس بالقهوة . " لبس بيجامته ومضى إلى المطبخ . فارت القهوة مرتين ، لكنه أعدها أخيرا . خرج من المطبخ حاملا الصينية . دون أن تنظر إليه غمغمت : " كنت خائفة من تراكم الغبار . لكنك والله نظيف ولا بأس بك . " اغتنم الفرصة : " خذي قهوتك . " التفت : " عندك تربيزة مبتكرة . "

غابت عنه مرة أخرى . ومثل من باتت تعرف مسالكها ، راحت تعيد توزيع اللوحات بسرعة أكبر ، وتشكل منها مجموعة جديدة .

رآها غافلة تماما عن شخصية المتبتل . ورآها وهي تعبر أمام المدفأة الجدارية الحطبية غير مكترثة بمصدر اعتزازه اللامحدود بمرسمه . خلال دقائق كان قد أوقد الحطب هناك . ومع أول إحساس بتدفق الدفء ، تسلل إلى ركن ورشته . رد الستارة الصغيرة وراءه وتناول قماشة ممسوحة ومؤسسة . لقد آن له أن يرسم نورما في استغراقها العشتاري .

غادرت الشمس المرسم والمدينة . ولم تمهل الغيوم فلولها المنحسرة ، فطمستها بلا توان وفرشت على الفضاء ظلاماً مبكراً . وضاء المرسم بوهج النار .

قالت : " كم الساعة الآن ؟ قم خلنا نعلق اللوحات قبلما أروح . "

أخبرها بالوقت فذعرت . " مون ديو ! متى مر كل هذا الوقت ؟ الجماعة يمكن أن يتصلوا في أي لحظة . ويمكن اتصلوا وصار الذي صار . " راح وجهها يمحو سماته .

راقبها فراس صامتاً وغير مصدق . كلما لبست انطباعاً لبست مسافة . ومع صعود الذاكرة إلى وجنتيها أمست نائية تماماً ، مطوية وملفلفة بالمسافات . وأمسى الصمت اسمنتاً راكداً .

مثل من فقد مهادا من تجليات الطبيعة ، سأل فراس : " ألا يمكن لزوجة المقدم أن تكون خارج البيت بشكل طبيعي ؟ " وقد نطق سؤاله بالمقت أكثر مما نطق بالاستفهام .

بوداعة راضية قالت : " سيسألني اليوم الثاني أين كنت . " وتركته

معلقا ببقية كلام لم تأت . لم تنفلت من صوتها لهفة ولا أسى . كأن عزمها على المغادرة كفارة الختام عن ضلالة مهلكة .

أمسكت بيده : " خلنا نشوف نورما البدر . " مضيا إلى الورشة . عبرا ألسنة الضوء القزحية المترامية من المدفأة ، بلا كلام . رمى فراس حطبة على النار . توجهت نورما مباشرة إلى اللوحة . تأملتها بهدوء ، فيما هو مسترخ إلى جانبها . هل وضع لها عنوانا ؟ عنوانين : " تكوينات الطبيعة " و " تجريد زهرة ، " لكنه يفضل الأول .

" اللوحة لم تكتمل على أي حال . " علقت جزدانها بكتفها : " كل لوحاتك لم تكتمل . " قال : " وحياتي كذلك . " استدارت واستدار . مشيا بين أشكال الخشب والصلصال والحجر ، والجدران المحملة . " لا تنس اللوحات . علقها كرمى للمرة القادمة . "

ارتحلت نورما عبر مرج أخر من مروج السماء ، وما إن أغلقت باب شقتها حتى رن جرس الهاتف . أي توقيت رائع رهيب ! تناولت السماعة ويدها تخفق . وبدأت حديثها الروبوتي مع مهند .

استغرقت الأسئلة والأجوبة دقائقها الخمس أو الست . وانتهت . استعادت إحساسها بأوراق عشب تميل بقوة الرياح وتناغش جسدها من جميع الاتجاهات . رأت نفسها عارية ، وجسدها يصنع أشكالا رسمها فراس بالأخضر الغامق . تمرجحت على مراجيح لوناء من الموج والينابيع والعاصفة . ما دامت هذه الجدران صماء بكماء ، وما دام هذا الباب مقفلا ، فهي لن تخرج من تحت لحاف العشب ، ولن تفتح ولو كوة صغيرة لاحتمالات ظهيرة اليوم التالي . عندما يعود مهند من الثكنة ستهتم به .

رمت ملابسها كارهة . في أية أغوار بحرية كانت خافية هذه اللآلئ

الخضراء ؟ في أية امرأة ؟ والآن تفرض عليها العادات وبرد المساء أن تلبس البيجامة بدلا من أن تسري في البيت كالهواء الذي يناغشها ، وتلتفت نحو جميع المرايا .

فوجئ فراس بهاتفها . لم تكترث بحالته : " لازم أحكي انطباعاتي عن لوحاتك قبلما تفرقع . لأني نادرا ما أصطلح مع اللغة . أولاً ، يا أخي أنت عندك انطباعية ، لكنها شيء غير انطباعية الانطباعيين . ثانياً . وبصرف النظر عن حجم المتعة التي يستمدها المشاهد ، لوحاتك تثير الخيال والذهن . ثالثا ، وهذا سيكون موضع أطروحتي ، في لوحاتك خمس تيمات . ماذا تقول بالعربية ؟ التيمة الأولى شفت فيها حياتي أنا ، شفت رغوة وهيولى ، وشفت تكوينات ودوامات . وهذه وضعتها في مجموعة . التيمة الثانية ، أنت عندك في عدد من اللوحات لب ، جوهر ، مركز تنتشر منه اللوحة . وهذا غريب لأنك أنت توحي بأنك متشرد وحياتك بلا مركز . في المجموعة الثالثة ، شفت غابة ، وشفت القسوة والظلام ، والأزرق ضحية يفترسها القرمزي . وعندك لوحة صغيرة لزهرتين مثل بومتين تماما . ومجموعة رابعة من الأزهار ، ألبابها لها شكل حشرات سوداء بشعة مخيفة . كأنك تقول إن القبح هو جوهر الجمال . هذه انطباعتي . المجموعة الخامسة هذه مجموعة فاسقة المفروض أن تهتم الشرطة بها وليس النقاد . . . اسمع ، اسمع ، رجاء . لا تنس الصرصار . رابعاً ، بحسب اللوحات ، أنت تعيش حالات ذهنية وإبداعية متضاربة في نفس الفترة . يعني أنت تشتغل أحياناً على ثلاث تيمات في فترة واحدة ، كأنك ثلاثة أشخاص ، أو كأنك مجتمع يفشل في أن يعرف أو يرتب نفسه . ونادراً ما تكون عندك لوحة مكتملة . هذا هو كل ما عندي . انطباعات أولية . إذا علقت اللوحات مثلما رتبتها لك ، أجيئك في الصباح ومعي دفتر ملاحظات ، وأكتب آراءك في ملاحظاتي . "

ظل فراس متلبكاً وحائرا . كل هذا الارتباط به ، عشقاً وعقلاً وعملاً ، وتتركه لارتباطها الأخرق بهاتف زوجها !

سألته : " ما هي مشاريعك ؟ " لم يعرف . لم يقرر بعد هل يخرج إلى المدينة أم يمضي بقية الليل مع لوحة بات يعتقد أنها خرجت منه إلى غير رجعة دون أن تكتمل . " تعال ! " لم يرد . لأنه لم يصدق . " ماذا ؟ ألا تريد أن تزورني في بيتي ؟ " قال : " أنت تطلقين في رأسي خمسة عشر جنياً . أنت جادة ؟ " هي جادة . وخمسة عشر جنياً ، أليسوا كافين لحمله على المجيء ؟

كان لقاؤهما في البرج مختلفا هذه المرة . مذ قفلت الباب ورجته بحزم ألا يغادر الصالون إلى أي مكان آخر في البيت ، أحس أن هذه المرأة المتشعشعة هي حقا امرأته ، وأنه يقيناً يحبها .

وقفا أمام لوحته المهداة ، التي علقتها قبل وصوله محل صورة المدير العام . كانت ترتدي قميصة نوم محلولة الرباط . عقدت ساعديها على بطنها واكتسحت وجهه بابتسامتها الخرساء الصادحة .

" أي موسيقا تحب أن تسمع ؟ شوبان ؟ " كان يعرف أنها لا تستطيع التخلي عن شوبان ، فهز رأسه بالموافقة . تقدما نحو الستيريو المنتصب بجوار طاولة السفرة والنافذة . " قف أنت هنا . وراء الشباك جيران يشوفونك . " أوقفت صدره برؤوس أصابعها . " الستارة أسمك من جلدي . كيف يشوفوننا ؟ " يشوفوننا . لا تتحرك ! "

تقدمت بمفردها وشغلت القرص . " هذا الستيريو هدية من مهند في عيد ميلادي . " التفتت نحوه . هدأت عيناها على وجهه انتظاراً لصوت الموسيقا . ومع النغمات الأولى حركت يدها أمام فمها بإشارة شرب القهوة .

هز رأسه بالقبول . همست : " لا تأت للمطبخ . بلا ستارة أصلا . ولا تتحرك من مكانك . "

كانا قد تقاربا دون أن ينتبها . هناك زمنان يتعاقبان على الإنسان متجاورين أو متقاطعين ، زمن يعيشك وزمن تعيشه . إذا عاشك الزمن حسبته بالروزنامة ، وإذا عشته لا تحسبه على الإطلاق : تحس به تراكمات لتكوينات الطبيعة . أحسا بالأمواج والحقول ، عندما أثبت راحتيه على خصرها وطيرها إلى الأعلى . وعلمت هي أن أربعة أجنحة قد انبثقت من أضلاع ظهرها . صرخت مذعورة : " فراس ! أبوس يدك ، نزلني ! "

أنزلها كأنها شذرات . وحاذت ركبتها بطنه فأوقفها هناك ؟ . أثبت ذراعيه على حوضها كالمجاذيف . أغرق وجهه في قميصتها وبطنها . وراح فمه يرضع الاثنين . تلوى جذعها ، وهي لا تعلم فوق أي حقل ، مع أية غيمة ، تطير .

أخذ يمتص الزمن الذي طاش منه خمسين روزنامة وروزنامة .

أحس برأسه ينضوي داخل أصابعها ، وبمرفقيها يكزان على كتفيه . وراحت شفتاها تبثان في أذنه أنفاس أمومة عاثرة . منذ عهد طفولتها السحيق ، إلى زواجها ، إلى موت المدير العام ، لم تر نفسها يوما بمثل هذه الطفولة.

أحبا بعضهما بعضا تحت لوحتهما . مع آخر " مون ديو ! " جلست في طرف الصوفا وراحت تتفحصه بعينيها وأصابعها .

صار لقاء اليوم الرابع نسقاً وديدناً . استمد فيض مياهه من أعماق الأرض والبحار وراح يحشدها طوال ثلاثة أيام ، ثم فاض بها في اليوم

الرابع . كانا ينشآن معا . اندفاعة فراس ورعشة نورما . نظرته التي تتراكم عليها ، وانتفاضة بدنها : " لا تتطلع في هكذا ! " تبعد عينيها عن مرمى عينيه . " تصور لو رأت ميراي عينيك ! "

وأحاديثهما المقتضبة عن مهند . الذي يطالبها بالجنس كل يوم . الذي لا يأكل طبخة من اليوم الأسبق . يحب طبخها ويتلمظه . انتقاه المدير العام من بين مئة شاب يعرفهم . قال لها هذا هو مهند ، ذكي ، حسن الأخلاق ، ابن عائلة ، وسيم ، متخصص هندسة مدنية ، لطيف المعشر . يعتبر أن وجوده في البيت يمنح الحياة نظامها وخطواتها ، وهذا هو أقصى واجباته المنزلية . تقبل كل خططها العائلية وانضبط بها ، مذ شمرت عن ساعديها لتلبي توقعات المدير العام منها كزوجة وربة بيت وسيدة مجتمع . كل ما رأته مثاليا في وسطها الاجتماعي ، في الكتب المتخصصة وغير المتخصصة ، والأفلام والمسلسلات ، طبقته بحذافيره في بيتها . كان مستحيلاً أن تهمل حقاً من حقوقه التي طوبها المدير العام والطبيعة ، وانصياعات أمها ، باسم مهند ووشمها في ضميرها .

وأحاديثهما عن اللوحات بالطبع . قالت إن اللوحة التي رسمها في يوم الحب الكبير هي الوحيدة عنده التي تخلو من أي لون أو شكل يشير إلى المجتمع . لوحاته الأخرى ، كلها فراس نصار وكلها مجتمعه . عندئذ، وللمرة الثانية في علاقتهما ، وضع إصبعه على شفتيها ليوقف مزيدا من الكلام . كان سعيداً حتى الصمت بعقلها ولغتها . وبعد برهة تمتم : " لن يدخل المجتمع في أية لوحة أرسمها عنا . " قالت : " يعني لن ترسم بعد الآن ولا لوحة عنا . "

وحديث عن المجموعة الجنسية . عن صعوبة إدراجها في أطروحة

عنوانها (جوهر الفن : جوهر الحياة) ، لكون إيحائيتها أفدح من صراحتها . لأنه عندما يخرق حرمة المقدسات يعطل لغة النقد . نبر متعجباً : " ماذا تقولين ! ؟ هذا وحده سيجعلهم يقدمون لك الدكتوراه على طبق من إجلال . " وببساطة متناهية نبست : " أنا لا أحكي عنهم . أحكي عنه . لو يشوف لوحة الصَدَفة التي انفتحت وبان فيها ، ليس لؤلؤة وإنما اللسان السفلي الصغير عند المرأة ، لانتسف مشروع الدكتوراه . " ونبر فراس بسخط سافر : " لا أفهم ما علاقة المقدم بالأمر . " فردت هي بضيق وديع : " كيف ! أقدم الدكتوراه غصبا عنه ؟ إذا قال ممنوع ، يعني ممنوع . "

كان خده الأيمن مطمورا في سرتها : " ومع ذلك أنت مصرة على الاستمرار معه . إن تطلقيه نذهب إلى باريس ونظل سوية كل حياتنا . "هس ولا كلمة . "

. . . وذلك اليوم الرابع الذي خرجت فيه من السرير وهمت بارتداء ملابسها لأنه لم يتعهد بالخروج منها لحظة الإيغاف . وصاح هو متحيرا : " لكن أنت لا تحملين ! لماذا أخرج ؟ " وضايقه أنه اضطر لتذكيرها بعقدة حياتها السوداء . نظر إليها معتذرا . ابتسمت هي بصفراوية : " هكذا يقولون عني ؟ يقولون أنا التي لا يجيئني أولاد ؟ " نظر إليها متسائل الدهشة : " المقدم إذن ؟ " كل شيء في وجهها كان يبكي سوى عينيها . إن عينيها ملك للمدير العام ، وقد منعها من البكاء مذ كانتا في الثالثة من عمرها . ضمها فراس إليه . أسندت جبينها على كتفه . " لهذا السبب تتحايلين أحيانا ولا تزورينني في اليوم الرابع ؟ لأنه يكون يوم خصوبة . يعني أنت تحملين ! أنت لست عاقراً ! " ضمته إليها . تماسكت قليلا ، فأخذت تلطمه بركبتيها . " سمّعنا أحلام الشتاء إذا كانت عندك . "

توقف الحديث وانسابت الموسيقا . استؤنف في اليوم التالي ، وفي أيام أخرى خامسة وعاشرة . ولم ينقطع إلا بعد سنوات . قال فراس إنه يجب أن يكون لهما ابنهما . . . وقالت هذا مستحيل وعليه ألا يفكر فيه . . . يجب أن يعرف لماذا . . . انتهى ! هي تعودت على أولاد أخواتها ولم تعد تحس بالحاجة إلى ولد من صلبها . . .

لم تجد شيئا يستحق الإجابة في شبه المحاضرة التي نبرها ضد رفضها القاطع للحمل منه . جثمت أمام تمثال صغير عند الحائط الإسمنتي ، وتأملته .

هكذا نشأت بينهما الحوارات الطرشاء عن ولد يوحد ثنائيتهما عضوياً كما قال فراس ، أو يكون لغماً موقوتاً وسراً كسعير جهنم كما قالت نورما . منذ أول حوار وإلى زمن العري والنار والرياح ، ظلت نورما تقول : " أنا خلص ، أمومتي ضمرت وما عدت أحس بها . " وتسأل : " من قال لك أني متحملة سرنا ؟ أنا أموت من الخوف مئة موتة كلما جئتك .فكيف بولد يقول لمهند : بابا ! وأنت ، كيف تقبل ؟ " يتنهد : " ستعتادين على هذا الوضع . ويصير طبيعياً . وأنا عندي أربعة أولاد وما عندي مشكلة . "

لم يفتها أن تغنج وتقرأ له ما كتبته بالفرنسية عن لوحة يوم الحب : "هل الحب غياب للوعي أم وعي آخر ؟ وعي يجسد نفسه وحسب ؟ لماذا عريتني من الملابس وألبستني الرياح والموج والمطر ؟ شطرت فخذي عن الخاصرة ، وصنعت من السرة ينبوعا ومن حلمتي شراعين ، وجعلت أضلاعي مراوح . كتّلت فوق بطني زوبعتين ونصبتهما ، لهما شكل إشارة استفهام . لماذا أرسلت جدولين من عطر الزنبق ليسيلا بين ثلاثة جداول من الدم فوق فخذيّ وبينهما ؟ هل هذه دم أم نبيذ ، هذه الجداول التي تفيض من

ركبتي ؟" ثم التفتت إليه باضطراب حزين سعيد : " لم يقل لي أحد أني أساوي شيئا مما رسمتني . "

وكان يقول لنفسه إذا كنت حقا أحب هذه المرأة الترابية فعلي ألا أرفع رأسي قط من عمق ترابها ؛ لأنني إذا رفعته فسأترك الجذور وأمسك بجذع بلاستيكي استنبتته المدينة .

أخيراً : " آسفة . الذي رسم لوحاتك فنان ، لا كلام عليه . لكن التماثيل . . . مجرد أفكار . " جلس وإياها على الصوفا . طوق ظهرها بفخذه الأيسر ومدد ساقيها على فخذه الآخر ، ولفلف بقيتها بين ذراعيه وصدره : " هاتي لأشوف . " لم ترد عليه . اللغة عندها مثل مطر الصيف . أغمضت عينيها تحت ذقنه نصف إغماضة ، وهجعت . مد ذراعه إلى ما بقي منها سائباً واحتواه .

سكن المكان إلا من أجنحة موتزارت المنبثقة من المسجلة ، الخافتة في العتم الصافي . " هكذا كان أبي يحضنني ، " غمغمت بخفوت . قبل شعرها : " الله يجيرك ، لأنه صار عندك أب ثان . " غمغمت أيضا : "ياريت . أب. وأخ . وصديق . . . كلهم أنا بحاجة لهم . " دس أنفه في شعرها : " نسيت الأهم . " " لاما نسيت . " " لو تقبلين يجتمع الأربعة في شخص واحد . " " لا أقبل . فكرة الزواج اسحبها من رأسك . أنا لن ألخبط حياتي ." نؤجل حديثهما ياستي . . . " وأخرج أنفه من شعرها : " الآن احكي لي عن التماثيل . "

لم يكن لديها كلام كثير . والذي قالته لم يعط لفراس غير رأي مشوش عن عالم وحشي فيه مخلوقات شائهة . " مخلوقات أم كائنات ؟ " ففكرت لحظة وأجابت : " مخلوقات . " تأمل وجهها برجاء : " ليس فيها أي

حرية ؟ " فكرت من جديد : " يعني . حرية مكرسة . الرسم عندك تجريد . تبتعد عن الكتلة أو الحجم ، فيظهر عندك الجمال والإيحائية . لكنك مع الكتلة . . . لا أعرف . إبداعك ينكمش أمام الكتلة . مجرد أبعاد جسدية . بدل التجريد تبرز الأفكار . "

صمتا . جعلت تميل رأسها مع الموسيقا : " اسمع (كريك) وتعرف ما أعني . لا أعرف لماذا (كريك) مغمور ."

كانا هاجعين على الصوفا . حولهما ثلاثة تماثيل بمتر ونصف المتر ، ومسجلة ، ومنضدة ، وفنجانا قهوة ، وجدار مؤثث باللوحات ، وأصوات وعتمة وأمواج مدفأة . قالت : " جو تيم . "

لم تكن نورما بطلة العالم في عقد المقارنات . ولم تكن بطلة العالم في طرح الأسئلة . مادام مهند لم يسأل ولم ينتبه فهي لن تسأل ولن تنتبه . لقد شاهد تورم شفتيها وازرقاقهما غير مرة ، وهزئ منها وضحك على شكلها . بعدئذ لا شيء . بعدئذ تلك السماحة والعطف والتعالي الذكري المتبلون على نسوتها النافثة . والتمسك الصارم بحقوقه المنزلية .

ثم دقائقه الجنسية الثلاث . لقد تدرجت الآن فصارت لديها زمنا مقتضبا من العماء والقيء . انتظار خائر . مصحوب بعد تنازلي غافل لثوان بطيئة لكنها تنصرم وتنصرم إلى أن يفرغ انفعال مهند ويطلق زفرته الأخيرة إلى جوارها . لقد ساعدها إحساسه الضخم بمجده الجنسي على أن تصدق صممه الكامل إزاء الأغاني التي أنشدها جسدها في اليوم الرابع . ولأن الأبواب أوصدت هنا وأوصدت هناك ، لم يبق للذاكرة سوى أن تهجع في قرارتها وتنام .

لطالما سألها فراس كيف كانت حالة روحها في تلك الأوقات . جوابها

الدائم كان إما الصمت وإما " لا أعرف " . وكان يستشيط انفعالاً وإصراراً ، فلا تزيد على أحد جوابيها أو كليهما . وحقاً فهي لم تعرف . رأت فقط أبوابا توصد وأبوابا تفتح وذاكرة تتثائب وتهجع ، وشرانق تنتسج .

في ذلك الربيع واجهت امتحاناً صعباً من شادية ، زوجة الخال . هذه المرأة التي تدير عقول الرجال وأبصارهم منذ كانت طفلة في العاشرة ، قررت أخيرا أن تنفذ وعيداً أطلقته ذات يوم بوجه المدير العام . فقبل ثلاثة أعوام تناولت جزدانها بهدوء لتغادر مجلسه بصلف وبرود لا حدود لهما ، وأكدت له أنها ستجعله يدفع غالياً ثمن فرضه الزواج عليها من رجل يثير اشمئزازها وحسب في أفضل الحالات . " لا أكون شادية إذا ما خليتك تندم يا عبد المجيد البدر . "

قالت نورما لفراس : " لو تشوف خالي . جسمه الرياضي وطوله . أطول من مهند . ولو تعاشره ! عشرته أحلى من عشرة مهند . لا يعرف غير الابتسام والرضا . أي طلب تطلبه منه ، يلبيه على طول . تصور أنه يغير لأطفاله ويشطف لهم ! ومهند يسخر منه لهذا الشيء . لكنه لا يسأل . مثالي بجميع المقاييس . أصغر مني بثلاث سنوات . تكفله أبي كأنه ابنه لأن والديه قتلا في الحرب . "

لكنها لم تقل ما الذي كانت شادية تفعله لتحقيق وعيدها .

لا أسئلة ولا مقارنات . إلا في عمق النوم . عندما يفتح العتم والبهمة الأبواب الموصودة ، وتنطلق سيارة فارهة تنساب في غابة جميلة منسقة ، يقودها المدير العام وإلى جانبه صهره المقدم ووراءه زوجة المقدم . إن الدروب مفتوحة . لكن الأشجار السامقة والمروج الخضراء التي تعاقبت على عيني نورما ببطء وهدوء ، فرضت عليها أن تسأل أخيرا : " يا جماعة إلى

أين نحن نمشي ؟ " وتتساءل لماذا لا تفرحها هذه الرياض الغناء . والسيارة تمشي . مزيد من البساتين والجداول المسحوبة من النهر ، والعصافير المغردة المتقافزة . ونورما تسأل : " ياجماعة . . . " وعندها تلمحه ، واقفاً مفتوح الساقين ، وبرتقال الشمس ينضح من وجهه وساعديه . هناك على تلة عالية . التلة الوحيدة التي شاهدتها في الغابة حتى الآن . بيده دفة ألوانه وعليها فرشاة . أنزلت زجاج شباكها . كان لا بد من إخراج رأسها وإلا فكيف ستراه جيداً ؟ التفت نحوها حتى تقابلا وجهاً لوجه . ارتفعت يده بالفرشاة ولوحت لها تلويحة استدعاء . خفق قميصه في الهواء . وخفقت شجيرات الزنبق على التلة . وشمت نورما رائحة الزنبق . صاح المدير العام : " نورما ! أنت جننت ؟ " لكنها استمرت تلوح بيدها . وصاح المدير العام : " تفتحين شباك السيارة ! أنت جننت ؟ " قالت : " بودي أشم رائحة الزنبق ." وصاح المدير العام : " اغلقي الشباك ، أقول لك ! "

لم تستطع تذكر المنام إلا بعد ممارسة الحب الثانية في اليوم الرابع التالي . استغرب فراس أنها لم تستوعب شيئا من بياناته المفلوشة الواضحة . حتى سؤالها الذي تكرر ثلاث مرات لم يعن لها أنه اعتراض على مسيرة حياتها التي قادها المدير العام والمقدم .

استنكرت من فراس أن يراها معترضة على حكمة أبيها . واستنكرت مقارناته الشاطة بين السيارة ودفة الألوان ، أشجار الغابة المنسقة وتلة الزنبق . كونها خلف المدير العام والمقدم ووجهاً لوجه مع فراس ، وفتح شباك السيارة التمردي الخطر . . .

" هذه ليست مقارناتي أنا ؛ هذه مقارناتك أنت ، " تمتم باسترخاء . وقال : " أتمنى أن لا يطول ترددك بين عالم أبيك وعالمي . نحن أمامنا مشاريع كثيرة وحياة حافلة نعيشها . "

مدت يدها وأولجتها داخل يده . وذلك كان أشد تحرش عاطفي به يمكنها الإقدام عليه .

وذلك أيضا كان يوما رابعاً مربعاً . تركت نورما فيه السيارة فعلاً ، وأربع مرات استحمت في الزنبق حتى غص حلقها بأمواج شبقها . لم يفعلا سوى الحب والنجاوى وتبديل أشرطة الموسيقا . وعندما أخذ يهيئها لحب خامس صرخت : " لا الله يخليك ! أنا صار عندي كله وجع . " هو أيضا أحس بالكفاية . رفعت رأسها نحوه لتتفحصه : " ما هذا ؟ أكيد أنت تأخذ منشطات ." فأومأ بالإيجاب : " بنت اسمها نورما . كلما أحببتها صرت كأني مضغت ورقة من عشبة الحياة . "

لم تعد تلقى عناء في التعري للمطر والأمواج لحظة يختطفها ذراعا فراس وراء الباب المنقفل . تفتح مسامها لشلال الزنبق الكاسح الآخذ بالانهمار . فرح بلا روزنامة ، وأوراق كثرت في الآونة الأخيرة وعليها مخططات وتعريفات لأطروحة دكتوراه .

ما كان لهذا الحلم أن ينقطع إلا من جانبها هي . ساعة يفرض مهند عليها دقائقه الثلاث ، تعود هي إلى عالم مسور بمخارز . تقبع داخله امرأة يعاشرها رجلان . لمهند تترك جسدها الروبوت ، وتنسى أنها هناك . ليس لشيء في عالم روحها الجديد أن يعطيها القوة لتتأبى على حقوقه الزوجية . مع فراس ، وهي تخوض في غثيان امرأة يمارسها رجلان ، كان بوسعها أن تمتنع عنه بلا أي تفسير ، وتتركه لضرامه وتشظياته ، تتركه بغبطة جهنمية متشفية ، هو الذي لخبط حياتها ، وتنهض في أوج عريها وترتدي ملابسها وتخرج ، أيضا بلا تفسير .

أما أن يجيء انقطاع من ناحية فراس ، فحدث رج كيانها لأول مرة بعد

أن صار بيان الأطروحة جاهزا للآلة الكاتبة . قال إنه رجع من عند الباب لأن الهاتف رن ، لكنه لن يستطيع مكالمتها . " عندك شغل ضروري ؟ " لا شغل عنده . . . ما الحكاية ؟ . . . هو متضايق ويريد الخروج . . . هل يكلمها فور عودته ؟ . . . سيحاول . . . يجب أن تقول له إنها ومهند مسافران إلى باريس بعد أسبوعين لقضاء إجازة الصيف . . . سيتصل ، سيتصل .

كيف بوسع نورما أن تصبر نصف ساعة ؟ هي يمكن أن تضطرب وتدير ظهرها لجبل الزنبق ، أما فراس فمستحيل ! إذا تزعزع فأي مرسى يبقى لها ؟ لبست كيفما اتفق ، وقالت لمهند أنها نسيت أوراقاً مهمة في المجلة . " اتصلي وقولي لهم يحفظونها لك ، " قال بحكمة مندهشة . " أقول لك أوراق مهمة ، تقول اتصلي بهم ؟ ربما صارت الأوراق الآن في خبر كان ."

بعد ربع ساعة كانت أمام المرسم . لم يعد فراس . ثقل الانتظار هو الذي جعلها تنتش ورقة كلينيكس من جزدانها ، تكتب عليها بالفرنسية " أحبك ،" وترسم زنبقة بدلا من توقيع . ربطت الورقة بمقبض الباب ورجعت .

ذلك المنديل ما يزال في درج الخصوصيات في المرسم . لا أحد منهما يستطيع أن يحدد تاريخه . عندما التقيا ثانية ، أمسك أصابعها وشدها : " احتمال أن أعرض في كوبنهاغن أواخر آب . "

نظرت إليه بأسى : " ولم تخبرني ! "

ابتسم : " هذه طبيعة علاقتنا . أنت مركز الدائرة وأنا محيطها . لا تحاولين أن تعرفي ما يحدث معي خارج أوقاتنا . " نظرت إليه بغبطة مندهشة : " أنا فعلا أصم لك أذنيك بتفاصيل حياتي . هل أنا أنانية إلى هذا الحد ؟ "

" اعطني عنوانكم في باريس . . . رقم تليفونكم . . . "

" اصح ! أنت لا تعرفني إطلاقا إذا كنت في باريس ! اوعدني! "

الفصل الثاني

الوشم

قبل عام ونيف قالوا إن الحرب انتهت . وكانوا يقصدون المدافع والدبابات ، والجنود المدججين بتكنولوجيا القتل .

بالنسبة لفراس فإن الحرب لم تنته . الحرب مثل أمواج البحار ، لا تنتهي . أنت تعيش بين الناس في حالة حرب . وأنت وهم في حالة حرب مع أناس آخرين . الحياة نفسها حالة حرب .

ولكن من هذه الحالة يولد الحب والفن ، وتولد الإنسانية .

بُعيد سفر نورما راح يهلع في المدينة . وسرعان ما أدرك أن الحياة لعنة ضرورية . كان قد اتفق مع زوجته الثالثة على عدم الطلاق وحسب ، كرمى لابنتيهما الصغيرتين وليس لأي شيء إنساني آخر . هذا الحل الخلاسي لحربه مع زوجته جعله يتساءل : إذا فشل الإنسان في الحب عشرين مرة فكيف لا تقوم الحرب ؟

وكان قد اتفق مع كلية الفنون الجميلة على التدريس بموجب عقد ، ثم فضل مسؤولوها تقديم أجر له على كل ساعة فعلية يعلمها ، فبتروا خمسين بالمئة من دخله التعليمي . هذا الحل الاقتصادي جعله يتساءل : إذا لم يكن

الإنسان آمنا على عيشه وهو في الخمسين ، فكيف لا تقوم الحرب ؟

وكان قد دأب على حضور القداس صباح كل أحد في كنيسة القديسين بطرس وبولس ، فحاصروه بالدهشة والاستفظاع والقطيعة من كلا الجانبين . جعلوه يتساءل : إذا لم يكن أحد حراً في اختيار مكان صلاته ، فكيف لا تقوم الحرب ؟

عندما تتراكم الحلول التي لا تحل ، تقوم الحرب .

سافرت نورما فتمطت تساؤلاته وصارت أخطبوطا . خلال شهور ماضية كان يرى رؤيا ولا يعرف : هل يطلقها على الورق ، يكتلها في الصلصال ، يحفرها في الخشب أو النحاس . . . أراد الألوان والحجوم معا . ولم يكن هذا ممكنا . أراد أن يرسم أخطبوطاً ذا ثمانية أذرع ، ثماني حروب ، ثمانية دمارات ، ثمانية أدمغة ، مضخات دم وشهد ، والأذرع امتدادات لبدن هش غضيض ، له نسيج البيتونيا ، وألوانها . قبيل لقائه الأول بعد المنتين بنورما ، كان قد التقى في مدريد بلوحة الغرنيكا . نهارين أمضى جاثيا ومتنقلا أمام الأسود والأبيض اللذين كانا كل ما احتاجه بيكاسو من ألوان ليرسم أشلاء القرية المفجوعة . وتحت تأثير بيكاسو ، توجه نحو الرسم وليس التجسيم .

هجعت تلك الرؤيا في خاطره لأن نورما سطعت في حياته . وغابت نورما فحضرت الرؤيا . أنهضتها تشرداته بين خرائب المدينة . لكن خياله عاد يجسدها بدل أن يرسمها . هو شخصيا لن يستطيع أن يختفي منها مثلما اختفى بيكاسو من غرنيكاه .

التمثال الذي سيجسدها سيكون جسداً بشرياً له ثمانية صدور . سينشق كل صدر ويتكرمش كالورق ، مفسحا الفضاء لخروج خلايا

السرطان والأفاعي والأشلاء والخرائب والمسدسات والكتب المقدسة ورونالد ريغان والبنكنوت .

هكذا مضى به الصيف ؛ سوى عشرة أيام قضاها في كوبنهاغن . كانوا أربعة رسامين ، ولكن هناك التقى متشردة فرنسية اسمها سولين ، لم يكن اسمها يمت للشمس بصلة . عاد قبل انتهاء المعرض موكلا أمر لوحاته إلى زملائه .

غير غياب كان غيابه هذه المرة عن المدينة . بعد 14-1 أخرجت نورما الحرب من كيانه . طبعها الوديع ، قوامها الناحل ، شروشها القوية ، أعماقها الزرقاء ،العزيمة التي اختطفتها من مدينة المدير العام وأوصلتها إليه ، الحياة الأخرى التي عاشاها معاً . كيف يغيب عن مدينة نبتت في خرائبها كل هذه الأزاهير ؟ نورما! كل شيء شَتَّلَه فيها أبوها كان ضد اسمها : نورما : الفطرة . لو التقاها لوركا لما كتب تلك المسرحية الهالعة .

أحس أن الصرح الذي سيقيمه للحرب باعتبارها لعنة ضرورية ، خروجاً لمخزون الغباء والوحشية من صدور البشر ، سيكون مشروع حياته . أليس دمار الشوارع وموت المدير العام ما جعل نورما تلج ملجأ الحب ؟ لن يرسم حالة الخروج وحسب ؛ سيرسم حالة البقاء أيضا : بقاء القلب والينابيع والزنبق . . هنا تصير الألوان ضرورية ومستحيلة .

ثم بدأت التمهيدات تلتبس في مخيلته . وفي أوائل أيلول أخذت أفكار أخرى تسقط تحت رأس القلم وتحركه . صور من 14-1 ومن اليوم الرابع ، ومن ارتجافات نورما تحت وطأة نظرته . ولو أنه يحسن الحساب لعرف بعملية بسيطة أن أول التباس ألمّ به كان يوم عادت نورما إلى المدينة .

ولكن أين نورما ؟ التقاها أول مرة يوم انضمت إلى شغل الإخراج

فجأة . " متى وصلت يا مكارة ؟! " صاحت سميرة باستياء محب . أعادت السؤال إذ اكتفت نورما بالابتسام . ولم يكن فراس لينبس . لم يشأ أن يبدو متلهفا .

قالت نورما بلا أهمية : " يعني . من حوالي عشرة أيام . " كانت حريصة على ألا ترمقه . ارتصت كلماتها في صدره . إن نورما التي يراها هي بلا ريب نورما ما قبل 14-1 بدهرين أو ثلاثة . يا للمستحيلات الحقيقية .

في ذلك الدفء الأيلولي الذي جعلها تكتفي بقميص له لون الفستق ، بدت أقرب إلى ارتسام شعاعي منها إلى كيان من لحم ودم . الانهدامان تحت وجنتيها كانا فاغرين ، وعيناها عينين في تمثال يوناني . وعنقها أشبه بشمعة قصيرة صفراء ستقصم في أية لحظة تحت رأسها . مع نظرته السادسة أو السابعة ، انقشعت لهفته العمياء ، وتطامنت كبرياؤه المخذولة . شاهد وجه نورما كما هو : خامداً ، مفككاً ، قبيحاً .

كيف يكترث بامرأة قبيحة ، اتصلت به فور عودتها أم لم تتصل ؟ هل مات حسه بالجمال ؟

من تخوم عينيها راقبت انسراح وجهه المفاجئ . عرفت أنه اتخذ قراراً باللامبالاة . اضطربت . لقد حسبت حساباً لكل رد فعل ، لكنها لم تتوقع أن يتقعر قلبها بين أضلاعها ويهوي . كان من رابع المستحيلات أن يخذلها قلبها ، وهو لم يفعل ذلك مرة واحدة خلال ستة وثلاثين عاما .

عشرة أيام أخرى كانت عداً تنازلياً . لقد اتخذت قراراً بالقطيعة ، لكنه لا مناص منه . إن لها حقاً في إيقاف علاقة غلط ، وربما مدمرة ، أما هو فليس له حق في التظاهر باللامبالاة . عليه أن يتألم وينفعل ويتصل هاتفياً

ويعاقب ويشتم ، فهو يحبها وهي تحبه . لقد أنقذ حياتها ، احتضنها ولمها ، ودخلها ، وفرشها . . وبعدئذ لامبالاة ؟

بعد يومين آخرين اخترقت دماغها فكرة مضادة : تظاهر ؟ أم هو غير مكترث فعلا ؟ رجل حصل على امرأة لفترة من الزمن ، وعندما انقطعت عنه لم يعن انقطاعها غير خسارة صغيرة يمكنه تحملها . أوليس هكذا الرجال ؟ بوسعهم أن يكونوا خسيسين دائما بعد أن يقضوا أوطارهم مع النساء .

في اليوم التالي أصابتها أول نوبة خواء . إحساس بأن جوفها فرغ مما يملؤه . مع ذلك أرادت أن تتقيأ . غير أنها صمدت . لقد اتخذت قراراً وستنفذه . اضمحلت شهيتها ، وفرحت لذلك . إذا صمدت ارتاحت ، وإذا ماتت ارتاحت أيضاً .

لم يكن خيال فراس منشغلا بفيزيولوجيا نورما . كان محتقنا بحالة حرب من نوع خاص : تشنها عليه الذاكرة ، وتشنها اللغة على الذاكرة . ذاكرة 14-1 ، ولغة الغضب والشتائم والإدانات .

كيف يصف أو يرسم الراحة البدنية التي أحسها وهو يجلد نورما باللعنات والصفات المنكرة ؟ لقد هدمها تماما . جعلها مثل المدينة . عاقبها على خيانتها للمطر واستسلامها لوشم أبيها . هذه المرأة الوضيعة ، الخائنة لقداسات الطبيعة ، التي تستحق اسم خديجة أو يرما ، وليس نورما ، المنحطة المشوهة مثل تشوهها البدني .

بعد أسبوعين آخرين غابتهما نورما عن المجلة ، قالت ميراي له إن نورما في المستشفى العسكري . كان مسترخيا على الكرسي كأنه جالس عليه بظهره لا بإليته . قالت ميراي إنها مستغربة عدم زيارته لها ، أو على

الأقل إرسال باقة ورد . نظر إليها بارتياب ولم يتكلم . قالت إنها ظلت اثنتي عشر ساعة تغالب الموت .

اغتلى ارتيابه وانعقد حاجباه . قالت إن نورما تعرضت للخطر لأن جهازها الهضمي يرفض تلقي الطعام . نظر إلى ميراي كمن يتوقع مزيدا من الأخبار السارة . قالت : " ماذا دهاك ؟ أقول لك المرأة مشرفة إلى الموت ، فتبتسم كأنك سمعت بشارة!"

سألها ما المرض ، فأجابت : " رجفان ، حرارة ، برودة ، تعرق . . انقطاع حيل وشهية . . لسان عليه غشاء أصفر مثل الذرة . . انهيار ضغط . لكن الدكاترة لا يعرفون أي سبب لهذا الشيء . "

فتح فراس ملفاً صغيراً وبنشاط محير أضاف بقلم تلوين أسود خطوطاً قصيرة ودائرة ينقص قطرها هلال إلى رسمة قيد التكوين .

" أنا آسف ، " قال متعذرا ، " هذه اللمسات تضيع إذا أجلتها . متى أوقات زيارة المرضى في المستشفى العسكري ؟"

" صح النوم . نورما خرجت هذا الصباح ، لكن إلى بيت أمها . "

كان لمرضها حسنة واحدة ولكن عظيمة . لقد قدم سببا لانقطاعها عنه . إذ لو لم تمرض هي لمرض هو . اعتصم بمرسمه . وضع هاتفاً قرب الصوفا ، وآخر في الورشة ، وثالثاً في غرفة النوم . وجلس في واحد من هذه الأماكن .

أمضت نورما فترة نقاهتها وهي متعمدة أن تبتعد بصرامة عن أي هاتف . هاهي قد دفعت من دمها وعمرها ثمن قرار ضروري ، ولن تترك هذا الثمن يذهب هباء . لم تتخيل مطلقاً وهي تتأبط ذراع مهند في شوارع

باريس أن الامتناع عن إجراء مكالمة سيوصلها إلى حلق الموت . لقد بدا لها الأمر سهلاً تماماً ، وقامة مهند تتهزهز إلى جانبها . كانت تتنورس من حوله بين عجائب باريس الألف ، وفي داخلها تعجب مشرئب غريب : ماذا حدث لها ؟ أو : كيف تطلسمت باليوم الرابع حتى بات قدراً! إنها نورما البدر ، ابنة المدير العام عبد المجيد ، زوجة المقدم مهند ، أخت لأربع سيدات أزواجهن يهزون البلد . ماذا دهاها ؟ كيف تعرض هذه الأهرامات المجيدة للانهيار ؟ بل كيف تغدر بهذا الفرح ؟ هذه الطمأنينة وترمي بنفسها للبحار الهائجة!

في باريس استعادت وعيها بنعمة زوج لا يخونها ، لا يغادر البيت ، لا يحرمها من فرنسا . . . أهناك ضمانة ضد هول الشيخوخة تفوق هذه الضمانة ؟

فقط لولا هذه الآلات والمسابير التي يجبرها مهند كل عام على أن تترك الأطباء يدخلونها في رحمها مرة أو مرتين . . وفقط لولا هذا المنظار الغريب الذي يغرزونه في سرتها ليراقبوا من هناك دخول الذراري المخصبة .

وإلا فإن كل شيء رائع ، رائع وحسب ، بديع وحسب ، مفعم بالأمان والدعة والاستمرارية ، وراحة الضمير . وعندما يقترب العمر بها من الهرم سيكون مهند عكازتها . وهي عكازة لا تستطيع ، لا تريد ، أن ترفع يدها عنها .

إن كل شيء على ما يرام : عقلها ، أعصابها ، جسدها . بل إنها اعترتها وحشة وروع من أنها سمحت ليوم واحد أن يخل بعمر كامل ، اليوم الرابع مقابل سبعين عاماً حاضراً ومستقبلاً! أي طيش! أي عته!

أكسبها شفاؤها مناعة قوية ضد فراس نصار . عشرة أيام وهي تتخيله محوماً حول هاتفه (لم تستطع تخيله جالساً) ، متوقعاً سماع صوتها . أبهجها

شقاوه . وأعطتها البهجة مزيداً من القوة والامتناع . فمثله يجب أن يعاقب لأنه يلخبط حياة النساء . هي ستغتنم أول فرصة وتشتري دستة من الحجابات الشرعية السميكة ، وتبدأ صلواتها الخمس يوميا ؛ إذ لطالما تمنى عليها المدير العام ذلك وطلبه بذات نفسه . لقد اجتازت الدرجة الصفر ، وسترقى السلم الآن إلى حياتها المعتادة الراسخة .

رباه! كم هو فادح ثمن الوقوع في الخطيئة .

أيقنت أيضا أن عشرة الأيام الثانية من القطيعة قد أقنعت ذلك الذئب بأنها لن تكون فريسته بعد اليوم . هي نفسها كانت على يقين بعيد أن اتصالاً هاتفياً تجريه بعد نيف وثلاثة شهور لن يكون سوى منديل وداع معطر بمسك الختام .

الكليشيهات الثلاث الأولى : مرحبا ، كيف الصحة ، ما الأخبار ، ثم فيض من التفاصيل عن باريس وبوردو ، وجامعة لافال في كيبك التي سينتقل إليها أستاذها . بالمقابل ، لم يسألها فراس أيا من تلك الأسئلة المخشية الربداء . لم يسعدها ذلك وحسب ، بل ملأها بالامتنان .

الامتنان وحده جعلها تفكر بتقديم مكافأة ثانية لرجل ذنبه أنه ظهر في حياتها بعد فوان الأوان . في المكالمة التالية أمضت أربع دقائق وهي تستقصي أخباره ، وتسأله عن إبداعاته . واختتمت بتأكيد قاطع أن مشروعه هذا الذي يسميه الأخطبوط سيكون مرحلة متطورة جداً في سيرته الإبداعية .

وقد كتب فراس يومها في إحدى يومياته : " حالتي تحسنت تحسنا كبيرا . حوالي السابعة والنصف جاءني التلفون الأول . استمر ثلاثة أرباع الساعة . وفي التاسعة التلفون الثاني . أحس الآن بالحياة . أستطيع أن أتنفس . وأقرأ وأرسم وآكل وأسمع الموسيقا . وأجرؤ على شيء من الحلم .

الحلم الذي استرديت حقيقته بعد التلفونين ، وإن لم أسترد يقينه . الغولة التي أحببتها تعود فتصير من صنف البشر ."

تعطل الحلم مع بداية كانون . مضت الأيام حتى تأكد أن ذينك الهاتفين كانا آخر تواصل منفرد بينهما . الغولة ظلت غولة ، بل صارت ذئبة أيضاً . زحفت الأفاعي في دماغه وأحشائه ، ولكن لم ينطق وجهه بعتاب ولا فمه بمساءلة . كانا وسميرة يجتمعون مرة أو مرتين أسبوعيا ، أو يلتقيان في مكتب رئيس التحرير . وبعدئذ تزدردهما المدينة والحياة الأخرى . لا هي تذمرت ولا هو .

شيء ما راح يترسب في أعصاب نورما . إن شعرة واحدة لم تهتز فيه بسبب قطيعتها له . كم إنها على حق في هذه القطيعة . إن رجلا يقول لها مئة مرة " أحبك " وتعبر تصرفاته ألف مرة عن هذا الحب ، ليس أقل من خائن وكاذب وغشاش ومنكشف عن أصله الغدار عندما لا يحاول شيئا لإنهاء مقاطعتها له . . (ولو أنها لن تنهيها) . . . هذا الذي رأته كاهنا في محراب الفن ، ليس أقل من " طرطوف " موليبري رخيص . ذئب .

تدحرجت بهما الأيام وانتثرت . وبات فراس قادرا على الاهتمام بابنتيه المراهقتين . أواخر كانون الأول قدم لهما ألفين وخمسمئة دولار هبطت عليه من رجل اقتنى إحدى خشبياته . هل أفاق حبه لهما لأن حبه لنورما البدر أغفى ؟ لكن " الأخطبوط " لم تنبت له حتى ذراع واحدة . ولم يعرف هو هل كان ما يرسمه من تمهيديات فناً أم عتهاً . في العادة يلجأ إلى معيار شعوره . إذا انداحت من داخله كتلة ضاغطة ، عرف أن ما أنجزه استحق العناء الذي بذل عليه . ذلك الشعور هجره أثناء كانون .

وجع العقم عنده قابله وجع الخصوبة عندها . اكتملت المدة وأزيح

الحزام المعدني عن جهازها التناسلي . عشرة أيام ثالثة ، مهلكة في بطنها السلحفاتي ، ولكن مختلفة في الضرام والتجلد اللذين تناوباها دون رحمة . بعد هذه المحاولة الطبية الخامسة : هل هي حامل ؟ صلوات تتلو صلوات . منها ومن أم بهجت والعائلة كلها . تدعو الله ألا تأتيها العادة الشهرية .

العماء العضوي الذي لا يعنيه سوى أن يتحقق كل ثمانية وعشرين يوماً ، اقتحم أخيرا سندس توقعاتهم وطمأنينة صلواتهم بدماء حمراء غزيرة في اليوم الحادي عشر . وما كان للاقتحام أن يدوي هذا الدوي لو أنها اعترفت منذ اليوم الثامن أن تفاقم عصبيتها وتصلب نهديها كانا نذيرين بطمث قادم .

بويضة جديدة تهبط في اليوم الثالث عشر إلى مستقرها . ونورما البدر تهبط إلى قاع يقذف بوجهها أدغاله الخضراء ويخنقها : هذه البويضة كان يجب أن يخصبها فراس نصار . مهند يقبع مدحوراً بين نرجيلته ومكسراته وتلفزيونه . لم يفكر حتى بمطاردة البويضة الجديدة ، كما هي عادته كل حيض . لم يسألها : " فرشيت أسنانك ؟ " ولم يمننها : " يا ناكرة للجميل!"

نورما تتشظى في خواآت الجهات الأربع . يصل بها التيه إلى صفحة الخطيئة في منام داعر : إنها شبه عارية مضطجعة على سرير حوله الشبابيك المفتوحة ، وخماد الهواء يؤذن بليل قائظ ، المدير العام يتلصص النظر إليها وينتقل من شباك إلى شباك لأجل رؤية شبقة من جميع الزوايا .

أفاقت مبهورة . أنعمت النظر في ما حولها . بعد ثوان عرفت من هي وأين هي . وسمعت نداء بعيداً . مدت يدها إلى السماعة .

الكليشيهات الثلاث : صباح الخير ، كيف الصحة ، ما الأخبار . في وعيها أن الصيف الذي مضى لم يمض . . أن فراس هو حاجتها المشرئبة . كان ملاذها يوم وفاة الوالد . الآن سيكون ملاذها يوم وفاة الولد . وحده يوجد عند منعطفات الحياة الكبرى . وهي تريده الآن عند منعطف ولد يبذره في رحمها .

كانت يدها ترتجف ، ولكن ليس صوتها . قالت إن ظروفا صعبة قد مرت بها في الآونة الأخيرة . . أية ظروف ؟ . . ظروف مرت . وهي مضعضعة وفارطة . . هل هي بحاجة إلى طبيب ؟ هل ستدخل المستشفى ثانية ؟ . . لا ، لا ، عليه ألا يقلق . الظروف حياتها وليس صحتها . . في الدكتوراه مثلا ؟ . . لا تعرف . ستتصل به فيما بعد . وربما قامت بزيارته . أورفوار .

أعادت السماعة وتركت يدها عليها . أحست بما يشبه السعادة . لقد ظلمت فراس عندما ظنت أنه لا يكترث بها . إن أخلاق الفنان إنسانيته . وفراس فنان .

كان سهلاً عليها بعدئذ أن تتصل ظهيرة السبت التالي وتخبره أنها نقلت أمها إلى المستشفى منذ سادسة الصباح . . ماذا حدث لأمها ؟ . . الحالة نفسها التي تحدث منذ رحيل المدير العام . غثيان وانهيار ضغط وفقدان شهية . . هل هي في خطر ؟ . . إنها تعالج الآن .

بعد يومين فتحت باب شقته في الثانية والربع ودخلت . كان وجهها مغلقاً ؛ وهكذا صارت يداه . جلست . جلس . حتى الثالثة والنصف ظلا يتبادلان لغتين لا لغة واحدة . لغة " بلغني أيها الملك السعيد" : أخبار تتلو أخباراً عن الحوادث المألوفة والمنغصات المألوفة

والأحاديث المألوفة ؛ ولغة " سكتت عن الكلام المباح " الذي تنطق فيه تيارات البحر العكرة وغاباته الخضراء .

اتحدت اللغتان فقط عندما روت له مناماً : أنها في بيت جدتها القديم ، وقد نزلت درجاته إلى شباك فيه مرآة وشاهدت وجهها في المرآة فبكت . قال فراس : " بيت جدتك هو مكان براءتك وعفويتك الأولى قبل أن تتسلط المدينة عليك . ونزولك الدرج هو استبطانك لنفسك . وأنت تبكين عمراً ضاع منك ."

مد يده إلى ثوبها فتجلدت . كانت آمنة بالصمت عن " الفعل " المباح . هل ستجرؤ على أن تأخذ منه ولداً ؟ خلال ستة وثلاثين عاما تعودت أن تستمد هناءها من قمع رغباتها .

إنها يكفيها حضور هذا العجوز ، وعيناها تمتلئان به . لقد علمها المدير العام أن مسك العصا من الوسط يسبغ على حياتها توازناً منجياً . وهي ستضع يدها على الخط الفاصل بين النصفين .

لكن كل شيء غدا شيئاً آخر . وخاصة أشياء المكان : المرسم ، والموقدة الحطبية . في هذا المكان لا يقدر أحد أن يقف في الوسط ، فهي إما هنا وإما ليست . إما أن تطلب ولداً لهذا الحب أو تنقطع إلى عقم ذلك الزواج .

مد ذراعه وطوق مصبها . أمام مقلتيه نتأت حبة الفريز التي هي حلمتها ؛ مد رأس لسانه وناغشها برخاوة .

سربل الهدوء عناقهما المستغرق البطيء . بذراعها شدت على كتفه . حبة الفريز صارت مدفأة ، ولسانه وأسنانه وشفتاه حطبا . جعلت تلهج ،

تتوهج وتتأجج . أطبقت عليه من الجهات الأربع . اعتصرت ركبته عند ينابيعها . أضرم فمه حبة الفريز وشجرتها أيضا .

أخذ جسمها يشهق . التقطت أصابع فراس الاختلاجات العنيفة لأضلاعها اليمنى . فتح عينيه خائفا . رآها على شفا ذروة فلم يتوقف . جعله الخوف يرفع رأسه . ذراعها الساخطة أعادته إلى مكانه .

ثم مشوار الصعود . لم يبق فلك إلا وعرجت عليه . كان صعوداً مارجاً وفردوسياً . لكنها عند نشوة المنتهى دفعت فراس خارجها . انفجرت بالبكاء . وانفجر بالعويل والعواء . تكلّب على ظهرها وكتفها وخصرها وزندها ، وتصمغ . انهمر وجهها عليه . من بين الدمع والشهيق خرج صوتها بالفرنسية : :" جوتيم . جو تيم ."

" قتلتني . أنت في يوم خصوبة وخفت من الحمل ؟"

اندفعت دموعها وانحبست بين عينيها ووجهه .

" اتخذي قراراً . إما نفترق . وإما نستمر بلا التزامات . وإما نخطط لزواجنا ."

بلا تلكؤ دمدمت : " الزواج لا تفكر فيه . مستحيل ."

" يمكننا أن نعيش في روما أو باريس بكل راحة . هناك يشترون أعمالي أضعاف ما يشترونها هنا . وأنت تجدين شغلاً في مجلة عربية مهاجرة . ويجيئنا أولاد ."

هزت رأسها بالنفي القاطع . قال إن هذا الحب يستحق تغيير أنماط حياتها . . هزت رأسها بالرفض : " لو ظهرت في حياتي قبل إحدى عشرة سنة . لو أنك ظهرت! " قال إنهما سيعرفان الحب يومياً ، والحرية والجمال

والسعادة . . وسيخلصان من الوشم والعقم والعناكب والقوارض . وهزت رأسها بالرفض .

قال إن هذا الحب يريد وسعاً لأنه يكبر كل يوم ، وإلا سينفجر . قالت : " يا أخي حط حالك محلي . بعد إحدى عشرة سنة ، كيف أجيء إليه وأقول له : طلقني ، لا أريد أن أعيش معك ؟ مستحيل . ولا في المنام . ماذا أقول لأمي ؟ وأهلي ؟"

" كوني صادقة مع عمق روحك . إن تساومي تختنقي . سيجيء يوم وتشوفين مهند فيه جلمود صخر يسد كل طرق حياتك ."

كانت حزينة . تلميحاً فقط لمحت لفراس عن الجنين المنتظر الذي رفض أن يتكون في رحمها ، رغم خوارق العلم والتكنولوجيا . لم تشعر أن لها حقاً في حديث يعرض مهند للاحتقار أو الإشفاق . لكن اهتمام فراس الصامت ، وحياديته العاشقة ، جعلاها تروي كل شيء . كانت مضطجعة على الصوفا . جثا أمامها واحتضنت يداه يدها : " وهذا الحزن ، أما يخليك تعيدين النظر ؟ " نظرت إليه باهتمام : " في زواجي ؟ مستحيل . " قال : " في أن يكون لنا ولدنا . " بكت : " وهذا مستحيل ."

تبادلا نظرة عكرة . قال : " يستحق الحب الذي بيننا أن يكون له ولد ."

" ولد أخاف كل يوم أن ينكشف سره الرهيب ؟ يخنقني سره الرهيب ؟ وماذا يصير للولد إذا انكشف سره ؟ سيبصق علي . وربما قتلني . فراس ، لا تقدر امرأة أن تعيش مع هذا السر أبدا . هذا ضد الطبيعة . "وهزت رأسها : " لا يمكن ."

لم تقل إنها ما إن تغلق باب المرسم وراءها ، ثم تفتح أي باب آخر في المدينة ، حتى يشرئب الوشم تماماً مثل الأخطبوط الذي يحاول أن يرسمه . خلف كل باب تهديد بانهيار أو كارثة . ههنا مجتمع يعلق أخلاقه على الستائر ويطلق ثعابينه وراءها . مجتمع أنتج زوجا لا تهمه براءة الروح وإنما عفة الجسد .

فراس يجب ألا يعرف . يجب أن يظل بعيدا عن اضطراباتها الشقية . لأجل هذا سوف تغرقه على الدوام بسيل من التفاصيل ومسلسل من الأحداث .

في طريقه إلى لقاء ابنه ، كان واعيا بتفشي السموم في جمجمته . هذه المسكّنات التي يتناولانها هي كل ما للحب في حياتهما ؟

قبيل وصوله إلى بيت مطلقته الأولى ، كان يقول لنفسه : فليكن! ستنتقي أحلى طالباتك وتنام معها . وهذا الجيل الجديد مولود ليعشق . في اللحظة التالية هاج الغثيان في جلده . نورما ؟ مستحيل! إما حبيبة وإما لا شيء . لكنها لا تحبه! هي فقط مسحورة جنسياً به .

بدا لنورما في اليوم الرابع التالي أنها يجب أن تخبر فراس باختياراتها . " قلت إما نفترق ، وإما نلتقي بلا التزام ، وإما نتزوج . أنا اخترت الثاني ."

التقت أعينهما في نظرة طويلة قلقة . لم يستطع فراس أن يطمئن : التزام بعدم الالتزام ؟

قال : " هذا مركب صعب ."

قالت : " لماذا تريد الزواج ؟ الزواج يقتل الحب . وأنت جربته . طالما هناك مطبخ وحمام وغرفة نوم ، لا حب يعيش ."

" وثلاث ساعات لقاء فقط كل أربعة أيام ، بينما الحب يطلب الحياة كلها! هذه استحالة . تعالي إلي مساء أو بعد الظهر ."

" ماذا تقول! إذا كان في البيت ، فكيف أكون أنا خارجه ؟"

" كيف لا تكونين ؟ إذا أراد هو البقاء ، خليه يبقى! تخرجين بكل بساطة!"

" أخرج لألاقيك ثم أرجع إليه وهو في البيت كأن شيئا لم يحدث ؟ لا أعرف كيف تفكر أنت ."

بدا لها أن المشكلة مفتعلة تماماً . عندما تقع الضرورة فالمناقشة غير واردة : " هذه هي ظروفي . لا مجال لتغييرها . " بصمت أشعلته الدهشة والاستنكار ، أنصتت لفراس وهو يحدثها عن نساء في المدينة يخرجن متى شئن ، أنى شئن ، بين خرائب هذه المدينة الموحشة ، يعشن ويفرحن ويعملن ، فلا تستودع الحياة الزوجية حياتهن في دهاليزها . " أنا لا أفهم . امرأة لها ثقافتك ومكانتك . لماذا تقبلين بحياة الحريم ؟"

لم ترد على فراس لأنها كانت ضائقة ذرعاً به . رأت أنه لا حق له في تفضيل مفاهيمه على مفاهيمها بحجة التقدم والتطور . سوى أن اللغة كالعادة ، لم تهب لنجدتها . بقيت صامتة .

خلال ذلك النهار وأوائل المساء ، رسمت له اللغة لوحة كربلائية ، قطعت أوصال العالم ، وكانت نورما فيها عجراء وقطرانية .

بعد أسبوع آخر التقيا في المرسم . جلسا على الكنبتين المتقابلتين .

لم يكن لدى فراس أسئلة فنورما قد حضرت . جميع أوجاعه تطامنت . حرائقه ابتردت .

لأول مرة ، تفتح أمامه بابا عن حياتها الزوجية وتشكو : هناك مماحكات وتوتر بسبب برود يرى مهند أنه يتفشى بينهما منذ شهور . إنه يشكو من قلة اكتراثها بربطات عنقه ، مثلا ، ومن أنها قالت له : " لا " مرتين في الشهور الأخيرة . هناك توكيد متلاحق مصر لحقوق الزوج في أن يبقي زوجته داخل البيت ، فلا حياة عامة ولا شخصية عامة .

وقفت وقالت إنها يجب أن تغادر . فار فيه غضب ومقت . حقيقة الأمر أنها في غنى عن هذا الحب . وإلا لما نهضت بهذه البساطة الضريحية وأعلنت عن رغبتها في الخروج .

" نحن هذا العام لم نلتق لقاء واحداً كاملاً ."

أشاحت جانباً وتشاغلت بتفحص المرسم . " لا تتطلع فيّ هكذا . " ثم نظرت إليه .

وثب عن كنبته واختطف قامتها النحيلة عن الأرض . لفها على صدره . عقدت ذراعيها حوله . هدآ دقيقتين أو ثلاث . " نزلني . " أفلت ساقيها وراح يلولحهما مع إبطيها المعلقين بيسراه . تعانقا . " جو تيم . " " موا أوسي . " تشابكت يداهما ومشيا نحو الباب . كأنهما تجسدا موجتين على بحر أخضر .

في اللقاء التالي تناولا الطعام في المرسم . فطيرة ضئيلة غشاشة التغذية . ثم تمهيديات " الأخطبوط . " تأملتها وعتم وجهها . " تفكرين في الدكتوراه ؟ " أرعدها دخوله المباغت في ذهنها . طاف بوجهها رجاء حزين . " أنت ماذا دهاك ؟ الدكتوراه ستغير حياتك تماما ." لمعت عيناها بالاهتمام . " أهم شيء ، أنك تستقلين عن تراث أبيك ." عبرت في عينيها تساؤلات . " وإذا هداك عقل الرحمن ، تركت مهند ، وتزوجنا . " تنهدت

وأشاحت : " مستحيل . سينهشوننا . مطلقة ، ومتزوج أربع مرات . مستحيل . " التقط يديها : " نصبر سنة ، سنتين بعد الطلاق . " هزت رأسها : " مستحيل . أنا زرعوني في مكان ثان . لا جذور جديدة بعد ٣٧ سنة . أنت لن تفهم لأنك لا تقبل بالثوابت ."

هذه المرة هز هو رأسه . " لا ، أنا فاهم . مهند مرتبط في وجدانك بأبيك . إذا خلصت منه ستحسين بأنك خذلت أباك وخنته . وأخلاق أبيك تكرس الزواج وليس الحب ."

في اليوم الرابع التالي تناولا وجبة طبختها يداه الكليلتان . كان مهموماً . لكنها لم تبال . انصرفت إلى تمهيدياته بدأب استثنائي .

قالت : " أنا عندي نظرية . " وتوقفت قليلا لتحشد إمكاناتها الكلامية المكبوتة قبل أن تتبعثر أفكارها . قالت إن بيكاسو رسم بالأبيض والأسود لأن مادة الخلق عنده ، وهي دمار قرية عن بكرة أبيها ، كانت من القوة والعمق بحيث لم تتطلب فذلكات كثيرة للتعبير عنها . " نظريتي تقول إن الإبداع هو ما ينتج عن الصراع بين ضرورات الفن وضرورات الصدق . لأنه كلما كثر الفن قل الصدق . وكلما كثر الصدق قل الفن . إذا كان الواقع زاخراً بالمعنى والإنسانية ، لزمه فن بسيط . وعندما يكون هناك قليل فقط من التجربة والواقع ، يلزم فن محذلق لتعويض النقص المعرفي . العيون الجميلة تحتاج إلى كحل قليل ، قليل . لو وضع بيكاسو ألوانا في لوحته لانشغل الناس بالألوان وأهملوا الموضوع الإنساني . كلما زاد الفن في العمل الإبداعي نقصت الإنسانية منه ، لأنه يجيء على حسابها . يقولون ، الفن إعادة إنتاج للتجربة ببنية ثانية ، فيها جمال ومتعة وبصيرة . لكن بنية الفن تكتمل دائماً على حساب بنية التجربة . الفن في جوهره اعتداء على

التجربة أو انتقاص منها . وفي الوقت نفسه ، إذا قدمت التجربة كما هي ، بحد ذاتها ، دون أن تستعمل الإزميل ، ضاع منك جمال الإبداع ، وجمال الوعي الذي تصوغه عن طريق الإبداع . علاقة جدلية . هذه قاعدة ، وأزمة . المبدعون الذين نعتبرهم كباراً ، هم الذين طلعوا من الأزمة بنجاح . دمجوا الإبداع والصدق معاً . وهؤلاء نادرون جدا . مثل بيكاسو . قصدي أقول ، لا تتضايق لأنك بحاجة للألوان في بعض أقسام " الأخطبوط . " لا داعي . صدقني . إنسانية إبداعك ستغنيك عن فنيته الإضافية . أحيانا يجد عمال المناجم ألماسات في عمق الأرض ، لا يلزمها إلا ورقة كلينيكس لمسحها . أو شغل بسيط جدا بالأزميل ، وإلا فهي تحفة ."

كانت تلهث . لأول مرة في حياتها يخرج منها كلام كهذا . قال فراس : " هذا كلام سينزع ثقة رولان بارت بنفسه ، وإن كان يصلح للدكتوراه . وتريدين دفن هذا كله والبقاء مع مهند ؟"

تجاهلت سؤاله : " أنا حكيت عن ٢٥ سنة . وأنا أحكي ، كنت أقول لحالي ، سأتصل بأستاذي في كندا ."

" سنسافر إلى هناك سوية ."

أحست أن الأخطبوط قد خرج منها . أحست أن الحب لن يقبل بالاستتار بين دروز العيش .

لم يدم ذلك الإحساس طويلا . " أحدهم اتصل بك . من معهد الدراسات الإعلامية ، أو شيء من هذا القبيل ، " قال مهند قبيل المغيب وهو يجلس بتؤدة على كنبته . وأضاف : " ناوليني كاسة ماء ." قبل أن يشرب الماء تساءل : " المعهد هذا ، لماذا يريدونك ؟"

صمتت . لم تكن تريده أن يعرف . من وقوفها المذنب فهم كل شيء : " لخبطة جديدة من لخبطاتك ، ما ؟ " غمغمت بهدوء : " ليست لخبطة . هذا كور دو فورماسين أو جورناليسم ."

شرب الماء . ماحاجتها بتعليم هذا المقرر ؟ . . تريد أن تخرج أكثر إلى الحياة العامة . . وهل هي تكره الراحة التي أنعم الله بها عليها ، في بيتها ، ومع زوجها ، وأهلها ؟ . . وأيضا ستكسب ألفي دولار في أربعة أسابيع . . ولكن هي لا ينقصها مال لكي تشرشح نفسها بالتعليم في المعاهد . "عندنا مال خير الله!" . . هي تقصد أن التعليم فرصة لها كي تظهر إمكاناتها ، وتترقى في المجلة ، وتنال التقدير والإعجاب . . لماذا وجع الرأس هذا كله ؟ هو يعطيها التقدير والإعجاب والترقية! "أنت زوجة ، وهذا يكفي!"

قالت بمراوغة : " على كل حال لم يتقرر شيء . نحن سنجتمع يوم الاثنين في الكارلتون . أنا والدكتور كامل زميع والأستاذ فؤاد بلاط . إذا لم تقتنع ، أنسحب ."

" تجتمعون في الكارلتون! " تساءل وقد انصرف عن مراقبة التلفزيون . " تجلسين مع رجال في الكارلتون! برافو! فورميدابل! " تخثرت إلى جواره . وكان يقول : " أنا قلت لك ، أنت منذ وفاة والدك صرت نورما ثانية ."

غمغمت : " طيب نجتمع في المجلة ."

خلال اليومين التاليين لم يفارقها العناء والخوف والوحشة والغربة . سنتان ولا يهدأ هذا الرعب .مهند الذي يرفض جلوسها في ردهة الفندق مع الرجال ، ماذا سيفعل إذا عرف أنها تعرت لفراس ؟ هي لا تعرف أصلا من

أين تأتيها القدرة على التحرك والتقدم إلى موعدها . تعرف فقط أنها لم يعد بوسعها التوقف .

وهكذا جاء يوم قرعت فيه الجرس ثم فتحت الباب . لم يستطع فراس أن يلحق بها ليختطفها . جلسا حول الطاولة . فرشت أصابعها على صدرها علامة التعب . بلا مقدمات أخذت قواها تهبط . رمت جذعها على الطاولة وتوسدت ذراعيها . قالت إنها لم تتناول خلال يومين سوى بعض الماء . جهازها الهضمي رافض إدخال أي أكل إليه . عقلها هادئ ، أفكارها طبيعية ، لغتها وإرادتها طوع بنانها . . إلا هذا الجسد : وحده يتمرد عليها . وحده يكسر إرادتها . " إذا استمر هكذا ، سأدخل المستشفى ."

هل تحتاج الآن إلى طبيب ؟ يأخذها إلى المستشفى ؟ هزت رأسها بالنفي : هو! يأخذها إلى المستشفى ؟

بدأت ترتجف وتقشعر . هل سيباغتها بسؤال عن معاشرة مهند لها البارحة ؟ هتف مرتاعاً : " ماذا نفعل ؟ " راح بدنها يخفق : " أنا بردانة . " تقوس كتفاها . أخذت تهتز كريشة مشطورة أمام مروحة .

" تعالي إلى السرير . " تركته يحملها . ثم نظرت إليه مرتاعة . " لا تخافي . أنا لم أغتصب امرأة في حياتي . " وفي غرفة النوم نزع عنها البلوزة والتنورة . " اسقني ماء . " ركض إلى المطبخ . برز مهند من شبابيك مخيلتها . وجهه المصمم ولسانه المقتضب يطلان من أحد الشبابيك : لم تشلحي ثيابك! اثنين وعشرين يوماً واحداً بعد الآخر ، بلا توقف . جعلها بالوعة .

عاد فراس بالماء . كان يتعرق قلقاً . شربت .

ألغى حركته . أخذت تغط . ثم تحركت . تمددت على جانبها الآخر .

أفاقت . أغمضت . لم تفارقها عيناه خلال ساعة . راقب تحسنها ثانية بثانية . كلما أفاقت بحثت عيناها عنه ، وابتسمت .

بعد ساعة جلسا على الصوفا . سمعا شيئا من ديبوسي . خرجت .

في الثامنة هتفت له . شكرته . كانت مترددة في دعوته إلى شقتها . لكنه ما إن وصله التلميح حتى أعلن أنه سيكون عندها في الثامنة والنصف . شرحت له تفاصيل الطريق .

ارتشقت غرابة وانتعاش وحنين في الجو الهادئ الحميم ، وفي نفسيهما أيضا . استقبلته بالملابس التي كانت ترتديها يوم مارسا الحب أول مرة . القميص المنسدل والبنطال الفضفاض . قالت : " لا تزعل ،" وطلبت منه الرجوع فورا . " أنا مكركبة . " لم يقل شيئا . لم يخف ضيقه ولم يعترض . مشيا إلى الباب صامتين . نظرت عبر العين الساحرة : " جيراننا يظهرون فجأة ، الله وكيلك ."

" إذا خليتني أروح ، ستتضايقين بعد خمس دقائق ."

عادا إلى مكتبها . شغلت جهاز الموسيقا . شوبان بالطبع . جلس على الكنبة المجنحة . جلست على السجادة . اتكأت على ركبتيه . أسندت كتابا على فخذه . أليس شيئا رائعا أنها أحبت هذا الفزاعة ؟ راحت تقرأ بالفرنسية مقاطع باهرة من " السيدة ذات الجرو . " قرأت ونظرت إليه ، وقرأت ونظرت إليه . كانت واثقة أنه معها عبارة بعبارة ، فكرة بفكرة . " كأن تشيخوف كتب هذه القصة عنا نحن الاثنين . " وأضافت بعد برهة : " من حيث المشاعر والمستحيلات ."

" شايفة حبنا من النوع المستحيل ؟"

" هس ولا كلمة . اتركنا مبسوطين . "

قرأت وعلقت وقرأت . كانت صافية وعلوية . وكانت روحها طليقة وفائضة . لم تتزحزح قيد أنملة عن ركبتيه . ولم يأت بحركة . تلك هي نورما التي يحب .

" الساعة العاشرة والنصف ، " قالت بأسى . " لا تزعل ."

خلال عشر دقائق سخنت له بعض طبيخها . أبقته عند باب المطبخ لئلا يراه الجيران . " سأحكي لك شغلة سخيفة من حياتي ، " قالت بتردد مبتسم . نظر إليها مترقبا . " في التاسعة عشرة من عمري ، خطّبني أبي لرجل يكبرني بعشر سنين . دامت الخطبة أربع سنوات . لم أكلم ولم أتطلع بوجه شاب . لأني كنت مخطوبة . وبعد أربع سنين ، شددت حالي ، واستعنت بأمي ، وقلت لأبي : " بابا لا أريد هذا الرجل . " قال : " وماله يا بنتي! لا تريدينه نفسخ الخطبة . " وفسخ الخطبة في اليوم التالي . تصور!"

وضعت الطبيخ في إناء مع بعض الفطائر . " يا الله حل عني ."

سوى أن لقاءهما ظل متعذرا . الصدفة جعلت فراس يعرف أن اليوم الرابع انهار . وريثما عرف ، كانت نورما نفسها تشرف على الانهيار .

لن تنسى تلك الظهيرة الفاترة من أواخر آذار عندما عاد مهند إلى البيت وكان اليوم رابعا . وقف بالباب مثل من يحمل بشرى العمر : " أردت أعملها مفاجأة لك . خلص ، ترفعت إلى عقيد اعتباراً من حزيران لكن من اليوم ما عاد عندي مناوبة" .

في البداية لم تفهم . كرر عليها القول والتفصيل حتى أرغمها على

الفهم . وعندها سقطت الأرض من تحت قدميها . تعلقت هي في الفضاء وضاعت .

ظل واقفاً بالباب ، مترقباً تعبيرها الظافر عن السعادة . وظلت تنظر إليه فلا ترى غير باب المرسم وقد أوصد إلى الأبد . واحد وتسعون يوماً مكرساً للحب كل عام ، شطب من حياتها الآن ، وأضيف إلى استرخاء مهند بين النرجيلة والتلفزيون .

لم يستطع فراس أن يفهم : بعد كل هذا الحب تعود إليها معاناتها كأنه اللقاء الأول! أما آن لها أن تؤمن أن هذا الحب حقها ؟ حتى النساء البلديات يفعلن ذلك ، هنا ، في الحارة التي نشأت فيها .

أشاحت بوجهها . لن تستطيع أن تشرح لفراس شيئاً . هيمنت عليها صور مضنية واحدة . خروجها من المرسم إلى شقتها لتجد مهند هناك . ذلك أمسى واقعها المستحيل .

كان اليوم الرابع يوم الزمان المديد . تعيش الحب والموسيقا والرسم والأفكار والدكتوراه والجمال والحرية ، تفنى وتبعث فيه ، ثم يبقى ما يكفي من الساعات لأن تعود إلى حيث تنتظرها نورما بنت عبد المجيد البدر . تدخل فيها مثل مفتاح في قفل . تنام ، تستيقظ ، ويبقى لديها ست ساعات لكي تزيح الزنبق والأقحوان من بدنها وأمكنتها ، وتسترخي في الطمي الذي مرزغ حياتها .

الآن لم يعد هذا المطهر قائما بين جنتها وجحيمها . صار بين الجنة والنار باب مشترك يفتح عليهما معا . وهي لن يمكنها أن تخرج من المرسم مرتدية حب فراس على لحمها ، لتدخل الشقة وتقوم بإعداد ذلك اللحم

وتقديمه لمهند . هذا م س ت ح ي ل . لا تعرف كيف ، لكنه مستحيل .

سخر فراس من مشاعرها الكاوية . لكنه صمت أمام واحد منها ولم يتكلم . عندما تلفظت نورما بكلمة " الرخص " بعد بحث طويل عنها ، وافقها دون أن يفهم تماما مقاصدها . ثم لم يعد بوسعها أن تنطق بشيء من مشاعر امرأة يتداولها رجلان . امرأة هي امرأتان كل منهما تخون الأخرى ، تكون عكس الأخرى ، ضد الأخرى ، تأثم على حساب الأخرى ، وخاصة فوق سريري القيح والشبق . فكيف لنورما البدر أن تتحمل هذه الفيزياء ؟

ثلاث ساعات حكت وبكت . الوجه الممنع تشقق بالحزن والوجع . حكت عن الجليد والشقاق والقطيعة في حياتها الأخرى . لا ، ليس هناك عنف . مهند وديع وعشور ورجل عائلة . ليس فيه ما ينفر المرأة منه . لكن هناك قطيعة لم ينتبه لها . هي تزداد تفانياً في خدمته كأنها تعوض عن خذلانها له ، وهو يزداد انتقادات وتأنيبات وإيقاظات متعمدة لمشاعر الذنب عندها . " من يوم وفاة المرحوم ، أنت لم تعودي أنت . منذ متى تشتكين من الخضري والكواء ؟"

ثلاث ساعات . نجوى حزينة ، ومسح للدموع بأصابعه وشفتيه . " لن يصدق أبي أنني أبكي . أنت أنقذت حياتي وعلمتني البكاء . " وكان جبينها على كتفه .

عادت إلى البيت وإحساسها أنها تركت باب المرسم مفتوحا ، وتركت عينيها هناك . " أوجعت لك رأسك ، " قالت عبر السماعة . هذا أفضل من أن يقعد بلا شغل . " يا أخي أنت غير . أنت رائع ."

لكنها عندما تعريا للحب بعد ثلاثة أيام ، وتعانقا قرب السرير ،

انفكت عنه ببطء وتمتمت : " فراس ، بودي ألبس ثيابي . لا أقدر . " أمكنه أن يفهم استعصاء جسمها .

أواخر آذار ، جلست تعيد ترتيب أوراقها . يجب أن تلقي بأوراق فراس نصار للريح السارحة . لقد وافق أستاذها في جامعة لافال على استقبالها أواسط أيار ومناقشة أطروحتها . وهي تعد العدة للسفر ، خاصة وأن العقيد فاجأها بموقف إنساني رائع لن تنساه له إذ وافق على السفر وعلى الدكتوراه . أي وقت تتركه سائبا سيجعلها ملكا لفراس نصار . وهي لذلك ستكثر من الأسلاك الشائكة .

تقول أم بهجت : " يابنتي صرت جلداً على عظم . " فتبتسم هي : "أحسن . خليني أخلص من شوية لحم . " وتهمس أختها لصق أذنها : " يا مجنونة! الرجال يحبون اللحم! لا تخسري زوجك . " ويقول مهند : " أنت تتعمدين هذه النحافة . لكن خاب فألك . سأنام معك كل يوم ، يعني سأنام معك ."

وينام معها . وكان ذلك أهون الشرين . أن يغتصبها زوجها خلال ثلاث دقائق ، ثم يعود إلى كنبة التلفزيون ، أسهل عليها من أن يتعاورها رجلان وتصير زانية . هي لا تستطيع أن تتعدد . منذ أحد عشر عاماً طويت باسمه وانتهى الأمر . ليس اغتصابا إصراره عليها رغم نفورها . هذا حقه . حقه المقيت .

ومهند يقول لها : " شادية زوجة خالك ، تصرفاتها لا تعجبني . أقطع يدي إذا لم يكن عندها عشيق . " وبعد أيام يقول لها : " لولا أن خالك حمار ، لراقب تصرفاتها ، وراقب تلفوناتها . " وبعد أيام : " أنا متأكد أن نعمان سيذبح شادية بساطور المطبخ ذات يوم . لأنه لا بد ما يفتح عينيه على تصرفاتها ."

إن تلفونها مراقب حتما . لقد كان المدير العام نفسه من أوصى بمراقبة التلفونات .

تقول أم بهجت : " إذا كنت يا بنتي مهمومة بهم ، والهم يذوب لحمك ، فأحسن شيء تحجبي ، وصلي صلواتك الخمس كل يوم . يرتاح بالك ، وترجع لك صحتك . التي منا تسلم أمرها لله يتعافى بدنها ."

هي حقا تفكر في الحجاب . لكنها لن تتهادن مع هذا اللحم الذي تدافع الرجلان إليه . ستذيبه حتى لا يبقى منه شيء تلتقطه أيديهم الشرهة ، أو حتى يتنابض مع لحمهم .

وفراس يكتب لها ورقة صغيرة في المجلة : "سهل عليك طمر الحب في كفن صغير هو شهادة زواج . أنت لم تخلقي للحب أصلا . ولا وسع في تكوينك للحرية ."

انقطاعها المهمازي أوصله إلى الحافة وإلى روزماري . مكان أنيس وامرأة أمريكية طافحة . من طاولتها البعيدة في كافيتريا الصالحية ، سلمت عليه بيد ترفع كأسا ، فتلفت حوله باحثا عمن يستحق التحية . في المرة الثانية ، اضطر نصف مذعور للاعتقاد بأنه هو . لكن زمام الأعين المجاورة كان قد أفلت . غير الجالسون جلساتهم ، وحاصروا فراس وروزماري بنظراتهم المترقبة المواربة . كانت المرأة ذات شعر فضي طويل مخوتم . وحشائش عينيها تفيض بما يشبه أشعة ليزر مرئية . الفيض الأكبر جاء من لحمها البرونزي الصلب ، الذي اختار لعوراتها الملغومة الكاسحة ملابس متسامحة .

لم يجرؤ فراس على رد التحية ، لا بأحسن منها ولا بمثلها . كانت

المرأة تضج بالجاذبية حتى لكأنها عاهرة . وقالت أعين الآخرين إنهما سيمضيان إلى الفراش بعد ستين ثانية . لم يعد يمكنه أن يجد مكانا يحط عليه نظرته . . سوى كأس النبيذ الذي كان في أواخره .

عندما رفع عينيه رآها تقف أمامه . أحس أن مفرزة شرطة ستسحبه للتو وتلقي به على سريرها . شفتاها المدورتان قالتا بفرنسية أمريكية : " عرفتني الآن ؟ " ولم تنتظر جوابه فذكرته بلقاء قديم في شقة البروفيسور جيرار ، عندما قرأت إحدى الناقدات ورقة عن بعض لوحاته .

ارتخى الكأس من يده . أما هو فانتصب قائما : " إكسكوز موا . جوتانبري . " ولم يقبل سوى أن تتناول معه كأسا من النبيذ يغسل فظاظته من ذاكرتها .

روزماري : روايتان ، ديوان شعر ، وتشرد دائم . سألها : " أي وقت يناسبك أن اتصل بك ؟ " فأجابت : " أي وقت . أريد أن أرى مرسمك ."

لم يشحن لحمها شهوته وحسب ، بل وفراغ أوقاته أيضا . كان امتلاؤها بستاناً . رآها دثاراً وثيراً ينثني فوق ثلمات روحه وينثر عليها ثمالة مثيرة . وأراد أن يعفر بترابها وجه نورما الذئبي البشع .

كان وجه نورما معفرا . في إحدى سهراتها الحاشدة ، كان موضوع الحديث الساخن امرأة خانت زوجها . لم يقل أحد أن تلك المرآة أحبت رجلاً آخر ، وتمنت العيش معه . قالوا إنها خانت زوجها . ووقف مهند وسط البهو الغاص بالساهرين وأعلن : " هذه المرأة حلال ذبحها بالسكين ."

كانا في المجلة عندما همست نورما لفراس : "سامحني إذا خيبت توقعاتك . أنا هكذا ربيت . الحرية تقطع لي أوصالي ."

هي إذن مصممة على القطيعة . لقد شم رائحة الغدر منذ مدة . في الليل اتصل . لا جواب . إن هذا مستحيل . مؤكد أنها في المستشفى . أو في بيت أمها . طبعا سوف تنقرض لأنها تعاند الطبيعة . بعد ليل آرق اتصل في السابعة والنصف صباحا . كانت نائمة . أبدا ، هي على ما يرام . وأمها . . لماذا لم تتصل ؟ . . سكتت . كرر السؤال بعصبية . . أليس هذا أفضل ؟ . . هكذا إذن! إنه يشم رائحة الغدر منذ فترة . . ليس غدرا . . وإذن ترميه بلا مبالاة ولا كأنها تفعل شيئا . . صمتت . . وتعتقد أنه سيقبل بهذا التصرف ؟ يقبله بكل سهولة ؟ . . هي لا تعرف ، لكنها مضطرة . . فلتلبس ملابسها وتأت إليه فورا . . لا تستطيع لأنها مرتبطة بموعد شغل في المعهد . . لن يقبل أن يكون المعهد أهم منه . . ماذا يعني ؟ . . هو مختل ومسموم ويمكن أن يفعل أي شيء . . مثل ماذا ؟ . . هو لا يهدد وإنما يستغيث ، وسيدمرها ويدمر نفسه .

كانت عيناها تجوسان في ظلام مطلق . قالت : " أوكي . في الحادية عشرة ."

بعد دقائق رفع السماعة : " أوعي أن لن لا تجيئي . أنا يمكن أدمرك وأدمر حالي . لن أقبل أن ترميني كما ترمين البذرة . " كان جسده كله يلهث . شيء واحد جعله يتمالك دماغه : عندما تقف أمامه بعد قليل سيدمغ وجهها ببصقة كالزرنيخ .

وجدته جالسا على مقعد لصق الجدار الزجاجي . عرفت أنها غير مرحب بها . وضعت جزدانها على الطاولة . ظل جالسا . عيناه فقط نهضتا إليها وراحتا تلطمانها وتطيحان بها . رغم النبذ والحجارة ، تمترست بحافة الطاولة . لم يكن نداً لها . قام ومشى إلى الصوفا . جلست على الكنبة .

أخيرا دمدم : " تخلي عن صمتك مرة واحدة . اشرحي لي سبب هذه الدناءة والغدر . فهميني ، ألا يقشعر بدنك ؟ أي نوع من النساء أنت ؟ تعودين إليه وتستمرين معه كأن شيئا لم يكن! حوالي سنتين حتى الآن! أنت يا ترى بلا ضمير ؟"

" ليس هكذا ، ليس هكذا . " خلال نصف ساعة استطاعت أن تنبس له بأن شعورها بالذنب لا يحتمل ، وشعورها بالرخص أفظع . خلال الأيام الماضية ، كانت على خير ما يرام مع العقيد ، فهو طيب ومتسامح وغير لجوج ، وما عاد يجد فيها أخطاء وإهمالات ، ولا ينتقدها . أحست بإمكان الاستمرار معه بصورة تحقق لها السلام الداخلي ، وتنسيها تورطها مع فراس .

" بعد كل الحب الذي بيننا ؟ ألا تشعرين بالذنب تجاهي أنا ؟ " لا تعرف . " ألا يختلج فيك ضمير ؟ ألا تتحرك فيك إنسانية ؟ " هي لم تعده بزواج ولم تعده بشيء . .

" ليس ضروريا أن تعديني . مجرد أننا أحببنا بعضنا صرنا ملتزمين ببعضنا . الحب له أخلاقه . عرفت الآن لماذا تشج الشقيقة رأسك ؟ لأن قمعك للطبيعة لا يحتمل . الطبيعة تعاقبك . لأنك اخترت أن تعيشي بلا أخلاق ."

" أرجوك لا تزد بلائي بلاء . يا أخي ، إحدى عشرة سنة! لم ترف عين مهند فيها نحو امرأة ثانية . حفظ اسمي وحفظ كرامتي وراعى عشرتنا . أقوم أنا وأكافئه بالخيانة ؟ أنا مثلما قلت عني من قبل ، امرأة صغيرة . المرأة التي رأيتها في هذه امرأة مقبورة . أنا اعتدت على حياتي . وحياتي ما عادت ملكي . نورما البدر ، أنا لا أملكها ."

" لو أن شخصا عاش عبداً أحد عشر قرناً ، هل يتعود على العبودية ؟ ألا يحلم بالحرية أبدا ؟"

" لا أعرف . قد لا يكون حبا ما أحسه تجاهك ."

بعد عشرين سؤالا ذليلا ، وعشرين فورة دم ، استطاع أن يستخلص منها تفسيرا لآخر كلماتها : لقد أحبته في ظرف خاص ، توفي أبوها وكانت بحاجة إلى شخص يوقفها على قدميها ، فظهر فراس وكان ذلك الشخص . لو لا وفاة المدير العام ، لو كانت الظروف طبيعية ، لما انحرفت هذا الانحراف . لذلك ليس هذا حباً . إنه شطحة . لقد سبب لها آلاما كثيرة . وهي لن يمكنها الاستمرار . هي لا تحبه . متأكدة أنها لا تحبه .

" فرصة واحدة سنحت لفطرتك ، فظهرت على حقيقتها . صرت امرأة حقيقية . الآن ، تريدين متابعة حياتك مع رجل خنته ، وتحبين غيره! كيف هذا ؟"

" الله سيقبل توبتي . أنا أخطأت ولم أكن أملك من أمر نفسي شيئا . لكني تبت إلى الله . سأتبع نصيحة أمي ، أصلي وأصوم ، وأتحجب قريبا . وإذا قبل الله توبتي ، خلص ، سأعيش جارية لمهند ."

" وعندما تتذكريني ، وتلوب روحك للقاء بيننا ، هذه سيغفرها لك الله ؟"

" المهم الجانب الفزيولوجي . الشرع يحكي عن الخيانة الجسدية ."

" والخيانة الروحية ؟"

" هذه ليس فيها نص . لا أعرف . هكذا علمونا ."

بعد صمت قصير قال : " أنا على كلٍ معجب بشجاعتك . وأحس

تماما بالشقاء الذي أنت فيه . وأنا لن آخذ منك حباً بالقوة . " نهضت . تلفتت في أرجاء المرسم . يدها على جزدانها كأنها تأخذ استراحة المحارب . لقد خاضت معركة خلاصها بنجاح . وفراس فهم كل شيء . أخيرا بعد شهور ، نطقت بما تفكر فيه . أنه وداع إنساني على أية حال .

أخذت تهز جسمها على قدم واحدة . " إلى أين وصلت بالأخطبوط ؟ " لم يرد . " عدني ألا تجيء إلى المرسم عندما أكون فيه لأشتغل على أطروحتي . " هز رأسه بالموافقة . " أنا ماشية . بخاطرك ."

لم يتحرك . لم تتحرك . " توقفت عن الأخطبوط ؟ " تلكأ في الإجابة : " الفضل لك . " ابتسمت : " الآن أتركك لتعود إلى موهبتك . " مشت نحوه : " ألن تودعني ؟ عدني أنا سنبقى أصدقاء . " وقف . لأول مرة ستكون هذه هي المرة الأخيرة حقاً . عندما تدير ظهرها وتمضي ، وتخرج من الباب ، سيكون ذلك آخر عهده بها . الكلام الذي أنزلته كالرماح في عينيه وأذنيه ، لن يجرفه مطر ولا طوفان . على الحب أن يتوقف عندما يندرز بالخيانة .

أكثر الأصوات دوياً هو الصمت الذي يعقب وداعاً أخيراً . كان فراس في حالة مختلفة : إن نورما البدر امرأة صغيرة ، وعليه أن يغادرها . لأن الشخصية التي لا تجملها الحرية تمضغها البشاعة .

خلال الأيام التالية ، كان دأبه الوحيد أن يجلسها على مقعد صغير في ذهنه ويمطرها بوابل من إشفاقه وازدرائه . لم تستطع قامتها النحيلة فكاكاً من لغته المحتدمة الهاطلة . كلما أرداها بلغته ارتاح ، وكلما ارتاح اشتاق لها ، وكلما اشتاق لها لعنها من جديد .

كان في صف من أحب الصفوف التي علمها في حياته ، عندما وعى

بأن في رأسه محطتين للكلام في وقت واحد . لا بد بالطبع من إلقاء المحاضرة . وقد أحب إلقاءها وانتشى به . لكن المقعد الصغير داخل مخيلته ، الذي أجلس عليه نورما ، ظل يستدعي العبارات البركانية اللاعنة . وفي وقت ما قبيل انتصاف المحاضرة ، أعياه الفصل بين المحطتين . راحت عباراته الملفوظة من فمه تصطدم مع عبارات مندفعة من ذهنه وخياله .

وقف وتوقف . نظر إليه الطلاب مستغربين تهدج صوته ، ومنتظرين سهولة ألفوها منه ، رغم لغته شبه العامية . بمشقة لا حدود لها ، أعلن انتهاء المحاضرة .

شيئا آخر كان حال نورما . أزاح الوداع خوفها المعتاد وترقبها الثقيل في مشيها من باب المرسم إلى سيارتها . وتلك كانت مكافأة الوداع الأولى . كأن قدميها خرجتا من الصفحة الأخيرة لكتاب انتهى تأليفه . لم تشعر أنها وطئت أرضاً تعرفها ، وإنما أخرى جديدة ، آمنة ، أنزلت السلام بين ممرات أضلاعها . ابتسمت وتنفست وهي تخب على الرصيف مغمورة بشمس شتوية دافئة . إذا شاهدها أحدهم هنا ، فهي لن تكون كاذبة إذا قالت : " كنت أشتغل على أطروحتي للدكتوراه ."

بعد أن أنهت شغل المجلة ، حملتها السعادة إلى بيتها أكثر مما حملتها السيارة . فوجئت بمهند وقد سبقها ، وبأنه يحاول إصلاح حنفية يزرب منها الماء . أطلق ابتسامته الأليفة المحبة . وأثناء الغداء وافق بلا تلكؤ على دعوة اثنين من أولاد أخوتها ليؤنساها حتى نهاية الأسبوع .

فراس نصار حادث طارئ في حياتها . مبرر جنوحها نحوه هو السعة التي تميزه ، التي جعلته رغم عنف القطيعة يسمح لها بالجلوس ساعات في

مرسمه ، فلا ينتهز الفرصة ، ويقتحم وحدتها بشيطانه الذي لا يقاوم . لكنها سعة ضيعتها هي .

أهداها مهند جهاز فيديو " رهيباً " حصل عليه من قبطان سفينة إيطالية . وقد افتتن به حتى أنه عاف التلفزيون تقريبا سبع مساءات متتالية . وكان أكثر ما أحب الفرجة عليه فيلم " مدام بوفاري" ، تلك المرأة التي لاقت عقوبتها المستحقة لخيانتها زوجها .

لكن المفاجأة كانت فيلماً عرضه التلفزيون بالصدفة وسجله على شريط بالصدفة . " هذا الفيلم قصته إنكليزية . خلينا نشوف الإنكليز كيف يحبون ويعشقون ، " قال وذراعه تقودها إلى الكنبة المجنحة .

انضوت تحت ذراعه ، وتربعت إلى جانبه على الكنبة . كلما تقدم الفيلم وتعالت توتراته غفلت عن تخثر بدنها . وراح مهند يطلق عبارات مزدرية ، يشتم الإنكليز وقصص الحب الوثني التي يكتبونها . غفلت عنه . وعن كل شيء خلا الثواني التي هتفت فيها المربية للبطلة كاثرين أن البطل هيثكليف قد سمعها وهي تعلن أنها ستتركه لتتزوج زواجاً اجتماعياً مشرفاً . تفرجت نورما على كاثرين بينما هذه تنظر إلى المربية بانصعاق رجيم من أنها يمكن أن تترك هيثلكيف . هي تترك هيثلكيف! " أنا هي هيثكليف! " فحّت بوجه المربية .

تجلى الخاطر المتحرش في ذاكرة نورما ، وتجسد : الكنبة المجنحة ، ورجل آخر جالس عليها ، وهي متكئة الجذع على ركبتيه وتقرأ له قصة أنطون تشيخوف .

لأول مرة تفرض على مهند شيئا لا يطيقه . إنها مريضة وعليه أن يراعي خاطرها بمتابعة الفيلم حتى النهاية . وفيما راح يتأوه ويتثاءب

ويتذمر ، ويشتم عَبَدَةَ الأوثان ، غابت هي عبر (مرتفعات وذرنغ) العاصفة ، هناك حيث وقف هيثكليف ينبش قبر كاثرين ويستردها من الموت وقد صار وجهه وجه فراس نصار . ذلك حب حقاً . ذلك هو الحب .

" طظ فيهم وفي قصص حبهم ، " سخط مهند ، وهو ينعم على الإنكليز بخلاصة قوله . نهض إلى رف الأشرطة ، وعاد بشريط أخر : " خلينا نشوف مدام بوفاري! " قال بنبرة فخورة .

" مستحيل! مهند ، الله يخليك! " وكانت ضراعتها من القوة بحيث أوقفته عما لا يوقف عنه عادة . " طيب ، ما رأيك في آنا كارنين ؟ " هزت رأسها بالقبول : " هذه أعطاها تولستوي شوية إنسانية ، على الأقل . " أضاف هو : " خلاها تموت تحت عجلات القطار الموتة التي تستحقها خيانتها ."

في الصباح التالي استيقظت قبيل السادسة والثلث لتصنع القهوة ويشرباها معا . وفي السابعة إلا خمس دقائق ، وقفت بالباب تودعه وسط استغرابه . غاب في جوف المصعد وغاب المصعد في جوف البرج ، وهي واقفة .

لماذا غادرت مراجيحها وخرجت ؟ يستحيل أن يكون الدافع تلك القصة الإنكليزية المفتعلة المكركبة . يستحيل أن يكون يدي هيثكليف اللتين تنبشان قبر كاثرين .

في السابعة والنصف ضغطت يدها على الجرس ودخلت . " قم يا كسلان! " نادته وهي تتقدم نحو البهو .

فراس نصار . أمضى الشهر الأخير وهو يضاهي خرائب روحه بخرائب المدينة . وهو واثق أن كومة مدن تثوي تحت قدميه . تلك حياة يستمدها

البشر من الموت . المدن تموت وتظل حية . غدا ستبنى مدينة سادسة فوق خرائب المدن الخمس . وسيندفع الناس من جديد نحو الحب والفن ، ونحو الجمال والحرية والفرح ، إلى أن تنشأ الروبوتات مرة سادسة ، وتخرب أرواحهم ، وتخرب مدينتهم .

كان جالسا إلى جانب روزماري التي دفعت سيارتها باتجاه الرملة البيضاء . لقد انقبضت نفسها من الخرائب . معها حق . اضطجعا على الرمل ، وجهاً لوجه مع القمر والبحر . كيف جاءت روزماري إلى هذه المدينة وهي تعرف أنها مدينة حرب ؟ . . ذلك هو السبب ، أنها مدينة حرب . . غير أنه تظل ملاذا لروحه . . " هذا هو أول شيء لاحظته هنا . الموت شقيق حياتكم ."

ثم تمشيا بحذاء الخط المداجي الذي يخلفه الموج على الرمل وينحسر عنه . ذراعه على كتفيها ، وذراعها حول خاصرته . في ذلك الفضاء الفضي كانا خطين مبهمين ، يرتسمان على الرمال ، ينتقلان وينتقلان . " هل نحن في خطر هنا ؟ " فأجاب : " إذا رآنا قناص في بناية هناك ، وقرر أن منظرنا لا يليق بمنظر الحرب ، صرنا في خطر . ما عدا ذلك ، نحن في أمان ."

ماذا ينقص روزماري لتغدو سيدة خياله ونبضه ؟ مضت العشية كلها وهو عاجز عن أن يحرك شفتيه نحو شفتيها . إنه مصمغ بامرأة خربة مثل المدينة . امرأة هي كومة نساء ، مثلما أن هذه المدينة كومة مدن . لماذا هو مصمغ بكومة المدن أصلا ؟ أو كومة الأولاد الذين أنجبهم ؟ أو التماثيل التي صنعها ؟ أو أي شيء في هذه المدينة ؟ لماذا لا ينقل بضاعته إلى فلورنسا ويترك هذا الجرب ؟

لحظة اختفت روزماري بسيارتها من أمام مبنى المهندسين ، نفرت بقاياها الحسية من أصابعه وأنفه وخاصرتيه . كيف ترك جسدها المكنون يبتعد بينما لم يبق بينه وبين الحب سوى ملمترات ؟ إنه فراس نصار ، بطل العالم في إضاعة الفرص .

كان يعد القهوة عندما أدرك أن نورما قد دخلت المرسم . تابع شغله . تسقطت أذناه أصواتها . ترنحت كبرياؤه أمام بطء وصولها . خرج من المطبخ فرآها متمددة على الصوفا . حمل المغلاة والفناجين . رآها تغط في النوم . وضع حمله الخفيف على التربيزة . من غرفة النوم عاد ببطانية وفرشها عليها . لم يمس ثمة ظهراً ولا فخذين . مجرد أضلاع وعظام . كم هي سخيفة تلك الكبرياء . رباه! إن المرأة التي يحب تنقرض . وهو يتصرف كالمراهقين . وهي : لماذا رُشّت مسام حياتها بمضادات الحب ؟

لم يخطر له أن يسألها كيف جاءت . تمدد جسدها المتلاشي فبدد روحه . جلست . أمسكت بيديه . قالت إنها لا تعرف ما الذي جرى ليلة البارحة . شاهدت فيلماً إنكليزياً ، وبعدها تأبى عليها النوم ؟ قال : " مرتفعات وذرنغ ؟ " أراحها من عناء تلخيص الفيلم . قالت : " الله العليم ، جملة قالها هيثكليف لكاترين ، هي التي طيرت النوم من عيني . تذكر ؟ قال لها إنها عاملته معاملة جهنمية . وإنه لن ينسى هذه المعاملة ولن يغفرها ."

نظرت إليه هو بالذات . تفرست في وجهه . وسألته : " لن تغفر لي ؟ ستنبش قبري بعدما أموت ؟"

" لازم أن تموتي بالأول . وبعدها لكل حادث حديث ."

نظرة عينيها سدت عليه المنافذ . حاول أن يتزحزح هنا أو هناك ، فوجد نفسه مغلولاً وبلا فضاء . الدرب الوحيد الذي تلقاه كان وجهها المتعب

المنادي . اندفع وألصق وجهه به . شكراً لله ، فقبل ساعتين فقط كان قد حلق . أغمضت نورما عينيها كي ترى فراس جوّاتها . شاهدت كيف تفتحت مسام وجهها لتنشبح داخلها مسام وجهه . وقد لف وجهه روحها بمنزر . طوّح بكل غربة عرفها الناس منذ بدأ عمر الأرض . إن الحنين يسافر بها إلى عصور قديمة مندثرة . إلى زمن كان لحمها ولحمه فيه عنصراً واحداً ، لحماً واحداً يحب ذاته بذاته . أية قوة غاشمة جعلت اللحم ينقسم لحمين ؟ أمن هذا الانقسام انفطر الحب ؟

ابتسمت بعناء . جلست . شبه اعتذار على محياها وتصميم مؤكد : " لازم أروح عند أمي ."

" جئت لهذه الخمس دقائق بس ؟ بعد شهر غياب ؟ "

تناولت جزدانها : " أعرف أن لي الحق في الحب الذي بيننا . وهو كل شيء حلو وسعيد ووحده له معنى في حياتي . لكن ما عندي قوة ، فراس . ما عندي قوة . أنا امرأة عادية . هكذا فبركوني ."

" خليني أكلم زوجك في الموضوع . "

أغمضت عينيها كأنها تطرد شيطاناً أدخله في رأسها . " تطلب منه أن يتخلى عن ملكيته وشرفه ؟ سوف يفرغ مسدسه في رأسك . "

تأبطت جزدانها . قال : " أنا لا أتحمل أن أراك تتعذبين وتذوبين مثلما تذوب الشمعة . . أنا أقبل أي صيغة تقررينها لعلاقتنا . . بس ارجعي إلى عافيتك ونومك وأكلك . أتوسل إليك ."

لم تكن محتاجة إلى ما هتفت به : " بس ، بس! الله يخليك ، " فقد غص صوته وغاض نطقه .أما هي فراحت تغمغم : " عندما يقاربني مهند

أحس بالاختناق وبأني محتاجة إلى صبر أيوب حتى ينتهي . لكن كل شيء لحاله ."

و : " فعلا ، أنت أنقذت حياتي ، وأعطيتني السعادة والجمال . أنا لا أنكر أنك كل شيء له معنى في حياتي . لكن لازم نفترق ."

و : " أنا هنا لأني لا أقدر على تركك دفعة واحدة . ولا أعرف إذا كنت سأقدر على تركك حتى بالتدريج ."

مع قولها الأخير طفق فراس يبكي . أرد أن يقول شيئا ، وتحول صوته من اللغة إلى البكاء . كان بوسعها أن تراه جريحاً نازفاً ، أو ممرغاً بالغبار والوحل ، أما أن تراه يبكي فمستحيل . إنه أقوى رجل في العالم . لا شيء يهزه ، حتى إساءاتها . لقد أفسح لنفسه مكاناً كان يحتله المدير العام ، وتأله فيه . لا يحق له أن يبكي .

طارت إليه ، وارتمت عليه ، وانخرطت فيه .

كذلك انخرطت في رسوماته ولوحاته كي تعد بياناً بالأطروحة لأستاذها . وصار مجيؤها إلى المرسم تواصلاً بينهما عبر الجمال والخلق والمعاناة . وجدت نفسها تحدب على روح فراس . هو لم يكن وحشاً ، وإنما وحشياً . وقد رأته ينقض على ألوانه الفطرية مثلما تنقض الفراشات على الضوء ، ويتطوح في مساحات لوحاته مثلما تتطوح أمواج البحار . ورأت عقله يمخر ذلك العباب كسفينة طودية .

وإذن فإن ما عاشته معه سابقاً كان فقط اللحم والدم . أما الآن فهي تعرف رجلاً تطلق لوحاته سلاماً وتسبغه على روحها . وتمد أفقاً وتشلحها فيه . ذلك فراس الذي تحبه ، الذي يمكن أن تتلألأ به ، أن تعيش معه ثلاث

ساعات ثم تعود إلى العقيد طاهرة الذيل . تلك الازدواجية البيضاء التي تسقي روحها وحياتها اليومية .

ظلت الروبوتات تقوم على خدمتها طبعا . اللغة . الأكل . اللبس . تنويم الجسد وسط الأمواج الخضراء والرياح الرمادية . وروبوت يطلق الخيال والحس بعيداً بعيداً ، فيما مهند يمد يداً إلى كشحها وأخرى إلى كتفيها ، ويرش دماغها بسائل من غفلة التماسيح ، أو مبيدات الذاكرة .

البوذيون يصلون في المعبد ، والمسيحيون في الكنيسة ، والمسلمون في المسجد . ونورما البدر تصلي في المرسم . إنها عشتار الهاجعة في أطياف تموزها . ينتشر حولها معبود واحد ، مجرد ، وهي تتواصل معه عبر مئة من تجلياته . تراه جميلاً هنا ، بائساً هناك . خالقاً ومخلوقاً . يتجسد على أوراقها كلمات زرقاء ، تتعرفه وتكتشفه ، وتعيد صياغته .

أمست تعرف اللوحات في باطن القلب ، أماكنها وألوانها وأرحامها وخطاباتها . تعرف اقتراناتها . والتماثيل التي صيغت لتمهد لها أو لتكملها . تعرف كيف يصير الزنبق والسوسن والكالا أحواض نساء ومهابل ، اللون الأصفر هواء أصفر ، وحمرة القنّا حرائق ، وبتلات البيتونيا وجوه خفافيش ، والوردة البيضاء مدينة متشظية ، ولب القرنفل ديداناً كسولة متمطية ، وجمجمةُ بقرةٍ رحماً خصيباً .

لسوف يسألها أستاذها في جامعة لافال : أين هو هذا الرسام العجيب ؟ ولماذا لم تحضره معها ؟ وستسعد بالسؤال الأول وتتجاهل الثاني .

أمسى لها مكتب صغير . انتبه له فراس فتركه كما هو . أربعة ألواح خشبية بمتر ونصف متر ، وضعت أحدها فوق الآخر مقابل المدفأة الحطبية . وجلست إليها بأوراقها وأقلامها . وفي نهارات المطر وانقطاع التيار

الكهربائي ، كانت انعكاسات لهيب المدفأة على اللوحات تقدم لها خدمة جمالية سماوية .

حقاً لقد تغير العالم مع فن الرسم والنحت ، حولها وداخلها . المرأة الكبيرة التي اكتشفها فراس نصار ، تكبر والمرأة الصغيرة التي صلصلها المدير العام ، تصغر . جسدها الذي أضناها نيفاً وعاماً وجد خلاصه أخيراً في كهانة مزدوجة .

كاهن من خصائصه أنه لا يريد لنفسه شيئا . كأنه ابترأ من أدران متقيحة ، وتطهر من أوشال رغباته . وكان فراس يلوح بيده دائما وسط هضبة الزنبق .

فراس اللوحات والتماثيل ، فراس الأطروحات والفيض ، الذي أحيا بفنه ما موتته المدينة والمدير العام . . شقيق روحها الذي لا يبرح . بوسعها أن تحبه أفضل وهو مقيم في ذلك العلو من جوانحها . تحبه وتنام قريرة الضمير لأنها لا تغضب الله . وبوسعها أن تتجول في حجرات عالمها وهي غير مثخنة بالرخص والزنخ والذنوب والفظاعة .

وبوسعها أن ترفع السماعة أخيراً ، وقد اقترب موعد سفرها إلى كندا : " مستغرب ؟ " سألته وهي متوجة على عرش طمأنينتها وسلام روحها .

" أنا مسافرة بكرة ، " قالت وكأنها تزف إليه بشرى .

" الساعة الخامسة والنصف في المطار ."

" هكذا إذن! كيف عرفت ؟ بعض الناس صاروا جواسيس ."

في الخامسة والنصف من الصباح التالي ، التقيا أمام بسطة حجز

المقاعد . انقض شكله المتهزهز المهلهل على عينيها ، فراحت ترتجف داخل بدلتها الرجالية . لم تقل شيئا . كان عشرات الناس يروحون حولها ويجيئون . وكان مهند قد أوصلها إلى المدخل قبل دقائق وعاد .

حجزت مكاناً ، وحجز فراس مكاناً . كتبا بطاقتيهما على إحدى المنصات . " مسافر إلى باريس ؟" فأشار أن نعم .

أمام كوة الجوازات أضاف فمه : " يقولون أن العاملين في إيرفرانس سيضربون الساعة الثانية عشرة مدة يوم كامل . هذا يعني أن موعد وصولنا إلى كيبيك سيتأخر ."

اجتاحها الفضول وراح يحكها فلم تستطع أن تتكلم . وفقط عندما وصلا إلى الكافيتريا سألته : " عندك معرض في كيبيك ؟"

فهز رأسه بالنفي . " لك أقرباء هناك ؟ " نفي آخر . " طيب قل لي لماذا سفرك ؟ " أعاد تثبيت ربطته حول عنقه : " سأساعد شعب كيبيك على الاستقلال عن كندا . " زمجرت : " لن تكون جدياً ؟ لم سفرك ؟"

تأملها طويلا وقد صار وجهه مرسمه : " لأكون معك ."

تذكرت أزهار القنا التي أضرم فيها الحرائق . وأيقنت أن وجهها قد صار واحدة منها . تذكرت أوراق التبغ الصفراء التي صارت هواء أصفر . كان يتبعها إذن ويعرف كل شيء . قبل ساعات فقط كان ثاوياً في غسق الغربة ، لابساً رداء السلام ، وواقفاً وراء حاجز القطيعة . أما الآن فالطاولة التي امتدت بينهما تحولت بقدرة قادر إلى سلك مشحون يوصل تحرشات جسده بجسدها .

شبكت أصابعها على كوب القهوة : " أنا لم أطلب منك المجيء .

وكانت تعني أنها غير ملتزمة تجاهه بشيء . قال بهدوء : " لا تكوني قاسية . " بات واضحاً لها أنها مهددة بانفلات ضرير . كيف سيمكنها أن تتفادى ذراعيه لو مدهما ؟ قال : " تعافيت ؟ " فهزت رأسها : " وزالت اللخبطة . " ابتسم : " المدير العام راض عنك . " فهزت رأسها : " جداً . وأنا راضية عن نفسي . لكن . . بودي أقول . . أنا مرتاحة لأنك معي . "

توجها نحو الطائرة . وأضافت : " إنما لا شيء أكثر . " لاحظت عدم اكتراثه . ألم يأخذ كلامها مأخذ الجلد ؟ إنه غير مستعد للاكتراث بأي شيء على ما يبدو .

جلسا على مقعديهما ، وعلت بهما الطائرة . انفرشت تحتهما بساتين الغمام . لم يظهر عليه أنه مسافر - معها أو مع غيرها . كان وجهه ما يزال مثل مرسمه . نعست ، وانزلق رأسها على كتفه ، وهبطت يدها على كرشه الصغير ، فلم يتحرك إلا ليضع وسادة تحت خدها ، وليستزيد ضيافة إيرفرانس للويسكي .

فلتت أعصاب نورما عندما علمت أن الإضراب قد نفذ قبل ساعة من وصول الطائرة إلى المطار . التفتت إلى فراس وبدأت تشجب كرعه للويسكي ، ولا مبالاته الفظيعة . وظلت عابسة ومتهجمة حتى تسلمت مفتاح غرفتها في فندق المطار واطمأنت إلى دخول حقيبتها هناك . عندئذ تحولت إلى موعدها الذي سيفوت مع أستاذها . وحولت تذمراتها باتجاه كيبيك . تحركت هنا وجلست هناك ، وزفرت ، وابتسمت بحسرة مذعنة .

انفرش فراس على جهاتها الأربع . وكانت عيناه وعاء لم تستطع الخروج منه . " إلى متى ستتشاغلين عن أنا سوية ، في بلد غريب ، وعلى بعد خمسة آلاف كيلومتر عن المدير العام والعقيد المهندس ؟"

نظرت إليه بلا ابتسامة : " يعني عصبيتي كلها هروب من أننا سوية ؟"

" بدل أن تشكري الله أنه قيض لنا هذا الإضراب . سنقضي يوما أو يومين في باريس ."

تنهدت . من أي فلذ يستمد الحب قوته ؟ كيف يمكن لهذا الحب أن يقهر سطوة المدير العام ؟ تشاغلت بالنظر إلى الموائد التي احتشد حولها الآكلون ، ممن توقفت طائراتهم عن المتابعة .

كانت حياة أخرى طارئة قد انبثقت فجأة . وتعين على الجميع ، حتى وهم يتلقون حساء رديئاً موحداً ، وسكبات طعام رديء موحد ، أن يطلقوا أحسن ما في إنسانيتهم بوجه الضيق والخيبة .

" نشكر الله ،" قالت أخيرا . ولم يعرف فراس أذلك لأنها شبعت أم للإضراب .

تمشيا بعد العشاء . اقترح التمشي بجوار الفندق : " المطر نازل ." قالت أنها تريد أن تفرشي أسنانها . اتجهت إلى المصعد دون أن تدعوه . لحق بها : " أين تهربين ؟ أنا لا أعرف رقم غرفتك . " مشيا بعد المصعد في ممر سردابي طويل . قال فراس وعينه تترقب الباب الذي ستقف عنده : " تذكري أننا في المدينة التي صاغت وثيقة حقوق الإنسان لأول مرة في التاريخ ."

قالت : " أعرف . لكن الوثيقة ليس فيها كلمة واحدة عن الحب ."

قال : " نشكر الله أنك تقولين الحب ، عن الذي بيننا ."

فتحت باب الغرفة . دخلا . قالت : " أنا لا أنكر . لكن الحب ليس من حقوقنا . نحن متزوجان . ولاء كل منا لطرف ثالث . وعلينا التزامات تجاه

حقوق غيرنا . فراس ، الله يخليك ، بعد شوية رح إلى غرفتك . البس بيجامتك ، ونحكي بالتليفون .

دخلت الحمام لتنظيف أسنانها . ظل هو واقفا . عادت إلى الغرفة . لم تجلس وضعت ساعدها على صدره ، وعبثت أصابعها بأزرار معطفه : " سلفوبلي . رح إلى غرفتك وكلمني بالتلفون ."

كان عازما على التشبث بلا اكتراثه ، بل وحتى بشيء من الدعابة لو استطاع . غير أن الرعد الذي شب في داخله لم يكن ليلجم . هذا التنكر الفظ منها جعل وجنتيه تنتفضان ، وحنكه السفلي ينفر ويضمر . بلمح البصر غادر الغرفة . هرول حتى أوشك أن يركض . أحس بالباب ينفتح . ضاعف سرعته كيما يغيب في المصعد قبل وصولها .

في اللحظة المناسبة حشرت جسمها بين المصعد وذراعه الممدودة . التقط زنديها وقذف بها نحو الجدار المقابل . قبضت على معطفه كطوق نجاة : " أبوس يديك! لا ترتجف هكذا . " طوح بها ثانية ، لكنه لم يتمكن من خلع يديها عن معطفه . شهقت : " تعال معي إلى غرفتي . لازم أطلب لك " لامبولانس " فراس! جو تامبلور! تنفس على مهلك! تنفس على مهلك! أبوس يديك! "

مددت ذراعه على كتفيها ، وساقت ظهره بالذراع الأخرى إلى غرفتها . تجرجر معها ، وتسند أيضا إلى جدار الممر . " تنفس بعمق . وعلى مهلك . " وكان يفكر في هيكله العظمي الذي تداعى فجأة وصار لحميا .

أجلسته على السرير . استعاد تنفسه الطبيعي . وقف . مشى بطيئاً نحو الباب . اعترضته . انسند إلى الجدار . دست ذراعيها داخل معطفه . ثم وجهها . " جوتيم . . جوتيم . . " رفعت رأسها إلى وجهه : " لا تتطلع فيّ

هكذا . " قال : " أنا تمام ، خليني أمشي . أنت الحب والحرية حرام عليك ."

أوشك أن ينفجر من جديد إذ هزت رأسها موافقة . فتحت ذراعيها أمامه : " لو كنت مكاني ماذا تفعل ؟ منذ بدأت أضب أغراضي وحتى ودعني في المطار . . وهو يقول لي . . عيشي على كيفك . . خذي حريتك ولا تتركي أي شيء يفوتك . . واشتري كل ما يلزمك . . بودي ترجعي سعيدة وراضية . قل لي ، بالله عليك ، كيف أتصرف ؟ " غص صوتها بالبكاء . صار مرهقاً لها أن تتكلم .   لكنها تكلمت : " اترك الأخلاق واترك القيم . هذه الإنسانية منه ، أي امرأة أنا لأخونها ."

بهدوء غير منتظر قال فراس : " لو كان يعطيك حباً كنا فهمنا . أنا الذي يعطيك الحب . ومعي أنا تكونين نورما . وحبك لي ليس خيانة له . إعط ما للعقيد للعقيد ، وما للحب للحب . الحياة ظلمتك ، لكن أنت لا تظلمي نفسك ."

" أنا ما عندي هذه القوة . أنا ضعيفة . إذا عملت مثلما تقول ضعت ."

" مثلما بودك . أنا تارك لك الغرفة ."

نظرت إليه مفزوعة . اقترب منها . تسمرت . أغمضت عينيها ، ومد أصابعه إلى أزرارها . لا أصابعه أصابتها بعدوى الحرية ، ولا هي أرادت ردع الأصابع . لم يبق لها والأردية تتساقط عنها وتهمد على الأرض سوى أن تجمجم : " أح! الغرفة باردة ."

كان وجه فراس ما يزال مرسمه . لكن اللوحات والتماثيل دبت فيها الحياة وصارت لحماً ودماً ، وصارت تترنم لنورما من جهاتها الأربع . لم تعرف من قبل ولا في تلك اللحظة ، كيف تحول معبد إلى مخدع ، والكهنة والكاهنات إلى عشاق . عرفت أن الجسد والروح ينبثق أحدهما من الآخر

وليس يلغي أحدهما الآخر ، وأنهما يكونان مئة وألفا عندما يكونان واحدا .

بعد مجيئين مائدين أفرغا شهوة الجسد وأطلقا غلة الروح ، قررت نورما البدر أن تقيم طقوسها في ذلك المعبد البارد من فندق بارد في مدينة باردة .

جلسا في السرير . مدت ساقيها حوله . مد ساقيه حولها . تقاربا كأنهما سيلعبان لعبة المرجوحة على الرملة البيضاء . تقاربا . التحما . كل منهما استحوز الآخر . اندفع الموج في الرمل الأبيض . شهق وانزاح . انفتح .

لم تدر نورما ماذا تفعل . ولم تحفل بأن تدري . إنها أسيرة الحرية . تلفتت حولها بشراسة ، فلم تر المدير العام ولا الروبوتات . اندفعت أكثر . هوت على كاهنها . طرحته سريراً . من الداخل ، كان فراس يتفرج . مغتبطاً ومتوجساً . ثم سقط على ظهره وسقطت عليه . كلبت يديها على صدغيه . نهشت شفتيه . ارتصت فيه عندما انشد ذراعاه على ظهرها وردفيها . جعلت تنادي إلهها ، وتنادي : " مون بيان إيميه! مون بيان إيميه! " صارت هي الموج . مداً وجزراً وتيارات . وضغطاً جوياً مرتفعاً ومنخفضاً .

كانت الخاتمة دفدفات خفيفة من شفتيها على أذنيه وعنقه ، ونفثات على أجفانه . ومع قطار الليل الأخير الذي خرج من رئتيها ، انزلقت ، وتوسد وجهها ساعديها . لم يبق لفراس سوى أن يوسد جمجمته هو الآخر على راحتيه ، ويحدق في أصوات المطر .

أعلنت ساعة ميدان قريبة الثانية عشرة ليلاً . كان المطر يتشابك مع عشرات الهالات الكهربائية في الخارج ، ويصنع بحراً مشرشراً في الفضاء .

هتف فراس باسم نورما مثنى وثلاث . ثم لاحظ انتفاخات صدرها وانفراغاته . " أنت تبكين ؟ " سألها بغبطة . رفعت جذعها على مرفقيها : " تضايقت مني لأني قمت بدور الرجل ؟ " قطب حاجبيه : " ألهذا تبكين ؟ " " لا . لأني مبسوطة . "

صمتنا زمناً ، في فندق ، في مطار . أية مصادفة عجيبة . هذا المكان من بين جميع أمكنة العالم . تعالى غطيط نورما . خرير المطر وضياء الهالات البعيدة المبهمة لم يتوقفا عن اقتحام الغرفة . في لحظة غافلة ، ربما بعد ساعة ، انتبه فراس من إغفاءة خاتلته .

كانت نورما قد تدرأت من البرد بأحد قمصانه الداخلية الطويلة الكم . أعطاه القميص حساً بأنه يختزن لابسته . وأعطاه أيضاً اندفاعة شوق . لوكانت عارية تماما لنقصت جاذبيتها . هناك لذة فائقة في أن يمد الرجل جسده ليعري جسد الحبيبة .

مرت سنون وسنون بعدئذ على تلك اللمسة فلم تبهت رعشاتها . ليس في الطبيعة شيء يرقى إلى أن يشبه به فخذ نورما في ذلك الهزيع من الليل . يد فراس تنسم عليه ، تصعد ، تصل إلى حيث توقعت أن تلطم بمعور سمج ، فلم تلامس سوى حبة منجة عملاقة . لم يكن اللامس والملموس مجرد جسد يلتصق بجسد . إنها أحاسيس اليفاعة والنضارة والانتشار والدهشة في فراس . وأحاسيس النشوة والسريان وانبثاق الأجنحة وعزة الجسد في نورما . لقد أيقظتها يد تحملها مثلما حمل فلك نوح حياة البشر .

هكذا مضت الدقائق . كلما أوشك أن يغفو ، انتبه ، مد راحته إلى السفوح . أيقظ المرجان والزنبق .

أفاقت حوالي الثامنة . وجدت نفسها لابسة قميصه . أمأمت وتمطت : " أنت فعلا ذلك المتوحش هيثكليف . " وثب عن السرير : " خلينا نعمل زيادة لرودان . " غمغمت : " لازم أعمل تلفون للعائلة . اسبقني تحت ، سيلفوبلي ."

قيل لهما في الفندق إن طائرتهما ستقلع إلى كيبيك بعد عشرين ساعة تماما . " رائع! " غمغم وهو يلتقط زندها ويشدها نحو حافلة الفندق . أبعدت يده : " يا أخي نسيت حالك ؟ نحن في مكان عام ." هز رأسه معتذرا ومؤنبا : " هذه باريس! "

استوقفته أمام الحافلة . " اعمل معي هالمعروف ، وتصرف كأنا التقينا بالصدفة . " صعدا . أمضت الدقائق الأولى من ركوبه وهي متنكرة له تماما ، وتتسرق النظر إلى المقاعد . قال : " على كفالتي ، ولا عنصر من مخابراتنا العسكرية أو المدنية ، ولا أحد من أفراد عائلتك ، موجود في الباص . لا أحد تعرفينه أو يعرفك . اهدأي وارجعي إلى فرح بكائك في الليل ."

أصرت أن تدخل قبله وهما يتوجهان إلى متحف رودان ، وأن يلتقيا هناك بالصدفة . كان رذاذ خفيف وقارس يتطاير حولهما . لم يعترض . لكنه غمغم بأسى : " معقول ؟ بعد كل الحب الذي عشناه في الليل ، تفيقين وأنت خالية من الحرية!" همهمت هي بمرح : " لم يحدث يوماً أن انتصر المعقول على اللامعقول في امرأة عمرها سبعة وثلاثون واسمها نورما . "

كانت حديقة رودان مرسماً فذاً . ووجدت نورما نفسها تدرج على ممرات لم تعد أرضا وشجيرات بقدر ما هي فيض وجداني . (يد الله) أعلتها عبر الرذاذ نحو عرش منير ، وبعثرتها (القبلة) على متون الفرح والزنابق . تماماً مثلما كانت ليلتها الفائتة .

تمشت هناك كوكبة من الناس : أوربيون وآسيويون . التصقت نظرة نورما باثنين في سبعيناتهما . كانا يمشيان بخفة وعزم . وصلا إلى (القبلة) فتوقفا أمام الجسدين الحجريين . كانا متهدلي البشرة ، مجعدي العنقين . تأملا عاشقي رودان اللذين جعلتهما (يد الفنان) أكثر حياة من البشر . تبادلا النظر والابتسامة ، وتعانقت يداهما تحت الشمس والرذاذ .

التفتت نورما باحثة عن فراس . كان وراءها بالضبط . شهقت شهقة خانقة . أسندت جبينها على صدره . ثبت في وقفته لئلا يفسد عفويتها . التصق فمها بصدره . " هذه بوسة ، مدام ؟ " فتمتمت : " جوتيم . لا أقدر إلا أن أحبك ."

" يعني سنصير من عائلة رودان ؟ " وبعد قليل أضاف : " افتحي نفسك للمطر ."

تحركا يداً بيد نحو صالة أواخر رودان . أدركهما قبيل المدخل انفجار مباغت للطقس . انقطع الرذاذ فجأة وانهمرت حبات بَرَدٍ بحجم حبات الكرز . انقشع الخوف إذ دخلا ، وبقي الانفعال والدهشة . وابل من الحبات العملاقة تطاير على الحديقة وجدران الصالة الزجاجية . توقعا ، مثلما توقع الفارون الآخرون ، أن ينشرخ الزجاج في أية لحظة . وعلى الممرات تكاثف البَرَدُ المجنون بحيث تزحلق أرضا كل من مشى هناك . وحدها الشمس تدبرت أن تظل ساطعة في الرئة البيضاء للفضاء العاصف .

" أنا أعتقد أن الحداثة خرجن من هذه الصالة ، " قالت نورما في شبه غياب . " شف! تجريد! وشغل أسلاك ومواد! تصور! واحد يصل في أواخر عمره إلى أوائل عصر جديد! كيف فاتتني زيارته كل هذه السنين ؟"

وجه فراس المتعبد لوجهها كان يتلو صلاة قصيرة : ساعدني يا رب بأن تبقى نورما البدر اسماً على مسمى .

تمعنت وجهه كأنها تحاور فنه مهتدية بفكرتها الأخيرة . قالت : " أنت تماثيلك لم تنجح ، أتعرف لماذا ؟ لأنك لم تبدأ من حيث انتهى الذين قبلك . من بدايتك ، شطحت بعيداً قدامهم ."

" أنا أبدأ من حيث تبدأ روحي ، لا من حيث يبدأ تاريخي . غيري متوقف عند شيء كان جديداً قبل ألف سنة ، وما يزال يراه جديداً . الشطح أفضل ."

" هذه لم أفهمها . أنت تتكلم عن الفن أم عن الحياة ؟ "

" ما الفرق ؟ لا حياة في حياة ليس فيها فن . ولا فن في فن ليس فيه حياة . أو بشارة بالحياة . رأيك أنت أن الفن والحياة ثنائية من جملة الثنائيات الضدية التي تحكم عيشنا وعقلنا . مثل الروح والجسد ، والخير والشر" .

" أنت لخبطتني . عن أي شيء تتكلم ؟ طبعا الحياة كلها ثنائيات!"

" أتكلم عن نورما البدر . خمسين يوما وأنت تحبينني بالفن وبالروح . تزعبرين على عقلك أنهما منفصلان عن الجسد . وليلة البارحة كل هذا الكرتون فرط . وأحببنا بعضنا عن خمسين يوماً مضت . اكتمل الثالوث الإنساني المقدس : الفن ، الروح ، الجسد . ووصلنا إلى الحب ."

" أنا أصل إلى الحب وقتما أكون في متحف رودان . وقتما أكون في متحف العائلة ، أصل إلى متحف المدير العام ، إلى الزواج وحفظ النوع . هذا أهم . الحب والفن ، كماليات . مون ديو! لم أصل إلى الحب ، قال! البارحة وصلت مئة مرة"

" أي شيء قصدك ؟ وهذا الليل الذي سيجيء ؟ "

" سنفرشي أسناننا وننام ، طبعا! "

" هذا يتوقف على قصدك من كلمة ننام ."

وقد تبين أن هذا الكلمة ثنائية أخرى من ثنائيات حياتهما . في الليل ظلت تنتقل بين معنيي الإغفاء والحب دون أن يتذمر منها أرسطو أو اللغة العربية .

أربعون ساعة من الحب والحرية أوصلت نورما إلى خانق غير منظور . عندما خرجا إلى الطائرة ، أحست أنها مهترئة وأنها موجوعة الأحشاء . أنها تعبت من شدة الحياة . مشت باضطراب وعسر وأحنقها أن فراس ظل يعاينها مغتبطاً متشفياً . " أنا أتوجع وأنت تضحك علي! " همهمت وهي تتناول حقيبتها اليدوية ذات القفل السري . قال : " مبروك عليك ليلة الدخلة ."

ألقت عبارته الأخيرة بمشاعرها الجوانية في بحر عكر أخضر ، تتلاطم فيه غابات من النفور والقهر والبعد . لو أنه يجد طريقة ما ليختفي ثم يظهر في بلاد أخرى وروزنامة أخرى . إنها متخمة منه . من كل شيء ، ولكن منه تحديداً . منذ الآن وإلى أن يعودا بعد ستة أيام ، لن تفعل شيئاً سوى أن تتحمله . وتتحمل صوته وظله ، وعظامه الناتئة ، وكرشه النافر المنفر ، وخطواته المتطاولة وظهره الأحدب .

وتعين عليها أن تستتر بتعبها ، وتتحمل بغيظ شعوره بأنه متربع معها على بساط الريح ، حتى استرخت أخيراً على مقعد الطائرة . أغمضت عينيها عنه ، وعن الفندق وروودان والقارات . مثل هذا الضياع الرغيد الحزين لم يحدث لها من قبل .

أفاقت فوق مطار مونتريال . رأته يرسل ابتسامة معاتبة . ووجدت

أنها ، كما في رحلتهما الأولى ، أغفت على وسادة صغيرة وضعها بين كتفه وعنقه ، ولم يستطع بعدها حراكاً . رمقته بنظرة امتنان : " لا أحد يعتني بي هكذا ." فابتسم منطرباً : " لأن لا أحد يحبك هكذا . " اشمأزت . كانت الشمس شبه دافئة عندما جلسا في سرادق المطار ينتظران إقلاع طائرتهما الثالثة إلى كيبيك . كان التعب قد فارقها قليلا . ولكن ليس لسان فراس : " مالك ؟ تبدين كأنك زوجتي . " هزت رأسها بازدراء : " زوجتك أنت ؟ " حاول أن يمتص موقفها بالصمت ، فوجد نفسه يقول : " وإذن زوجة واحد عسكري ؟"

مرت ثوان من انعدام الوزن في ذهنها . جفلت خنادقها من صدام مقبل . لكن صوتاً محتدماً صعد من عمقها وطلع : " أنت لاتعرف شيئا عن مهند . مهند مخلوق ليكون زوجاً . حنية ، ومسالمة ، وسعة صدر . ليس متوحشاً مثلك . مهند حلم أي امرأة . الزواج منه يوصل إلى الحب حتما " . ليس مثلك . أنت الزواج منك يقتل الحب . أنت طلقت مرتين ونصف . السعادة معك عمرها شهر . السعادة معه دهر ."

ظل فراس مبتسماً . لكن قلبه صار أصفر . " إذا كان الأمر هكذا ، فالله يبارك لكم أنتم الاثنين ."

نظرت إليه متلملماً معقود الحاجبين . أوجعها انكساره . وأيضاً فاض فيها ارتياح وارتواء .

لوكان رجلاً يحترم نفسه لما لحق إلى أقاصي المعمورة بامرأة رفضته ، أدارت له ظهرها ، طوال خمسين يوما . ما كان مهند ليفعل ذلك لو أعطوه مال الدنيا .

ظلا صامتين حتى المطار الأخير . لم تسمح لشواظ مشاعرها

المعتكرة بالانفلات نحوه . كانت بحراً هائجاً ولكن ليست هي من تجعله يدفع ثمن حماقة دفعته إلى عبور القارات . ويجب ألا يعرف أنها تراه كتلة وحسب ، ترضي غرورها ونرجسيتها . إن أحداً لم يعاملها بهذا الابتهال من قبل . وليس خطأه أن كل شيء جميل يمنحه لها يشعرها بالغربة عن نفسها .

ظل خيالها هناك ، مع أم بهجت والعائلة . لأول مرة يجرفها هذا الحنين . إنها تفتقد أصواتهم ولمساتهم وإزعاجاتهم . بصورة خاصة تفتقد المرأة الهادئة المستقرة ، التي يقوم على خدمتها جيش من الروبوتات ، العارفة ما هي وما ليس هي ، التي لا تثب في الفراغ والمجهول ولا تتطوح وراء حدودها . هناك راحة لا توصف في أن يعرف المرء ما يمكنه أن يفعل ولا يمكنه أن يفعل ، يعرف مساحة حياته القصوى فلا يخطو خارجها خطوة واحدة . لأن خارجها هو القلق ، الخطر ، التشتت ، الاندفاعات ، والتحولات أيضا ، ورودان .

" انتظري شوية . " هتف فراس وهما يجران حقائبهما بعيدا عن السير . توقفا . " إذا كنت مصممة على هذا البعد عني ، فأنا ببساطة ، أرجع من هنا إلى مرسمي ."

" هذه مسالة تعود لك . أنت قررت المجيء وأنت تقرر الرجعة ."

" ماش . أنا قررت الرجعة . إلى اللقاء في (مواسم) . "

نظر حوله عبر المدى المتلاطم من الناس والأصوات والتكنولوجيا . في رقعة ما من السرادق ، لمح لافتة تشير إلى مكتب السفر . وجه عربته إليها .

أحست نورما أن جميع أحشائها الموجوعة تخرج منها وتمشي بجواره . أمضت دقائق من الخثر والغياب ، ويداها مصمغتان على مقود عربتها . أخيرا مشت إلى حيث غاب .

كان ينتظر دوره أمام الشباك . قالت : " يعني تتركني وحدي في بلاد غريبة ؟ " نظر إليها بلا انطباعات . دمدمت مرتجفة : " على الأقل أوصل معي الأوتيل ، وتطمن علي ، وبعدها إذا بودك سافر ."

نظر فراس إليها ملياً . اضطربت ابتسامتها . قال : " بشرط . ننزل سوية في غرفة واحدة ."

أمضيا الوقت بين المطار والفندق وهي تقول أسباب امتناعها عن الغرفة الواحدة : هي معتادة على النوم في ظلام دامس ، وغير معتادة على النوم بجوار أحد ، ومعتادة على وسادة معينة ، وستتقلب كثيرا وتزعج نومه ، وغير معتادة على أحد يتحرك في الليل أو يقوم إلى الحمام . . . نبر فراس محتدما : " متعودة . . ما متعودة! حتى وأنت في كندا تظلين لا شيء إلا الروبوتات الساكنة فيك ."

فهمهمت بتظلم : " ماذا أفعل ؟ لازم تشفق علي ."

كان ساخط الدهشة . أما هي فكانت مدهوشة وحسب : كيف لا يفهم أنها هنا بالذات ، في هذا المكان الحر ، تنوء بعبء الحرية أكثر من أي مكان آخر ؟ هنا حيث لا روبوت فيها ولا رادع حولها ، ويمكن أن تنفلت إلى حدود لا رجعة منها . إذا أسلمت نفسها للحرية هنا ، أسلمت مهند للعدم هناك . سينقلع منها ويغور في قيعان الأطلسي مثلما غارت قارة أتلانتيس . خمسة أيام في غرفة واحدة ، وبعدئذ كيف ستقبل اقتراب مهند

منها يوم تعود إلى أهلها ومكانها ؟ لن تحكم بالموت على عمرها كرمى لخمسة أيام مع فراس نصار .

يجب أن يبقى شيء من مهند في وجدانها لتستطيع تحمل الحياة معه يوم تعود . ستكون رخيصة ، عاهرة ، إذا عاش وليس بينهما مقدار ولو بسيط من الإنسانية .

" هي خمسة أيام من عمرنا كله . رجاء خليها كلها لنا . مثل هذه الفرصة لن تصح لنا بعد الآن . تحملي قلة النوم ، انعدام النوم . . لأجل أن نكون معا 24 ساعة في اليوم . أرجوك ، خلينا معا وكأنه ليس في العالم كله غيرنا . كوني معي مئة بالمئة . وبعدها سأفعل ما تشائين ."

" يمكن يجيء يوم ويسأل مهند إدارة الفندق ، ويقولون إني نزلت معك في غرفة واحدة ."

حوار آخر من حوارات الطرشان . والأيام الخمسة لم تكن خمسة حقا . لقد حجزا في الفندق غرفتين بينهما باب يفتحانه . نام حتى الرابعة عصرا بتوقيت كيبيك . وأفاقت نورما لتجد نفسها وحيدة في مكان لا نهائي الغربة ، مخيف الصمت . يقولون إن مساحة هذه البلاد عشرة ملايين كيلومتر مربع . كلها صمت وغربة . إنه لشيء قارس ورهيب أن تكون وحدك في القطب الشمالي .

كانت تتأمل الشباك بحنين خفيف . لقد عجزت ستائره عن منع الضوء من التدفق على عينيها وإيقاظها . وقد مضت عصور على آخر انحشار لها في حضن فراس . هذا الحضن الذي يشبه حضن المدير العام . مكان طمأنينتها الوحيد الذي لا مكان مثله . مهند لا حضن له .

دخلت غرفة فراس وبيدها أوراق أطروحتها . داهمها الضوء القادم من

غرفة مزاحة الستائر . ما الذي حببها بهذا الرجل الذي لا يحسن شيئا إحسانه للعري ؟ جثت بجوار سريره وأدارت الراديو : " قم ياكسلان! " غمغمت فوق أذنه ، وإصبعها تلامس منحنى كتفه . يا للجسارة! عنفت نفسها في داخلها . إنها تمد يدها وتلمس جسده من تلقاء نفسها!

من باطن ركبتيها أحست أنها تقلع في الجو على ذراعه ، ثم تهوي على ذراعه الأخرى في الطرف الثاني من السرير . " أي! دوختني! " وأسرعت تضع أوراقها بينهما . كانت تعرف أن الأوراق يمكن أن تتبعثر بهبّة من رياحه ، لكنها لم تعثر على سور آخر يمنحها صك البراءة من جريمة الحب التي سعت إليها .

بين الحب والأوراق أمضيا سبع ساعات . كانت مبهورة بالحب . وقد بهرها أيضا بشغله على الأوراق . كان بوسعه أن يتوقف عند إيغاف أو اثنين ، ويظل في دائرة السحر مع الكلام والأفكار . سوى أنه أحس بجسدها يقلع ويقلع ، فعرف أن الحب يمحو عنه الوشم .

في الحادية عشرة رمت جسدها جانباً ، وآهة طويلة مدللة . " اهترأت . " وبعد قليل لملمت أوراقها ومضت إلى غرفتها . كان ارتواؤها من العمق بحيث لم تعبأ بالحاحات فراس أن تنام على سريره . إنها متخمة منه . وهي ليست مستعدة لأن تتحمل وجوده دقيقة أخرى . " لازم أروح الحمام ،" قالت . وخبخبت نحو غرفتها .

اغتسل هو أيضاً . وعاد فتناول بقية غذائه . ثم مسوك أسنانه . عرف أنها لن تأتي .

اضطجعا كل على سرير . أقبلت الراحة إليها وابتعد النوم . كان الظلام دامساً ومع ذلك استطاعت أن ترى في زوايا الغرفة الأربع كل الذين فكرت

فيهم : المدير العام ، أم بهجت ، مهند . . كلهم . كانوا نائمين . لم يرها أحد منهم . لم يروا حوض الزنا الذي غطست فيه . ظلوا نائمين حتى عندما خرجت من السقف حاملة أوراقها وقدمتها إلى الأستاذ زافييه . لم تدر كم طالت المقابلة مع البروفسور . لقد أثنى عليها ثناء أفعمها بالثقة . وإذ نظرت إلى الساعة هلعت . الثالثة ، ولم تغف! عليها أن تعترف أن فراس نصار على بعد أنملة من خاصرتها . كلما انقلبت على خاصرة أحست به على الخاصرة الأخرى .

لم تدر ما الذي أرادته بالضبط من فراس نصار في ساعة الهجوع تلك . كانت أحشاؤها رضيضة و وجعاء . ومع ذلك اشتاقت إليه .

اندست تحت ملحفته . تعبطها داخل شبكة جسمه ، وهدأ . ثم راح يلثمها ، يلثمها ، في كل ملمتر مربع بين جبينها وكاحلها ، ويمسح شفتيه عليها . عرفت أنه عرف أنها تقبع الآن وراء جسدها بملايين الفراسخ ، وأنها تريد الرسام لذاته ولا تريد ذاتاً سواه .

أحست أنها أسعد سمكة أسرتها الشباك في أعماق البحار . حتى الضوء الخفيف الذي رشه الليل عليها كان سعيداً .

على هذا النحو نامت .

لم يلتقيا طوال النهار . كان محظراً عليه أن يرافقها إلى الجامعة ، لأن مهند والعائلة سيعرفون بذلك ذات يوم ، بالتفصيل . وكان ضروريا أن ترافق البروفسور زافييه للغداء مع أسرته ، وتبقى هناك حتى المساء . لم تسمع الثناء الذي توقعته على أوراقها ، لكنها سمعت ما يكفيها .

ولكن لم يكن ضرورياً أن تعود فتراه مسلماً عينيه وروحه وأعصابه لوجه فتاة كندية بيضاء .

كان ساهياً وغائباً في ذلك الوجه ، بقدر ما كانت الفتاة صنماً تتحرك شفتاه ولكن ليس عيناه .

لم تكن حتى تتنازل وتنظر إلى وجهه .

لم تدر متى ولا كيف قطعت المسافة بين الكافتيريا وغرفتها . خبطت بكفها باب المصعد ليفتح بسرعة . ضربت باب الغرفة بكل عزمها لتتأكد أنه انقفل . فصلت جهاز الهاتف . أخرست موسيقا المذياع الكلاسيكية . أوصدت الباب المشترك . طمست النافذة بالستائر . رمت أوراق أطروحتها في سلة المهملات . ورمت نورما البدر على سريرها غريقة العينين .

لقد تلقت جزاءها خيانة بخيانة . لطالما تنبأت بأن عقوبة إلهية تنتظرها . ولم تتوقع أن تكون بمثل هذا الإذلال والطحن . فراس نصار! بعد كل تضحياتها لأجله ، بعد كل رعبها وعذابها ، بعد حالتي موت! تغيب عنه نهاراً واحداً فيغيب عن كرامتها وحبها وتضحياتها!

راحت تفرك وجهها في السرير لتطرد ديدان الندم . ثمة نهر من المخارز يندفع في أحشائها وخاصرتيها . وذلك جزاؤها . مثلما امتهنت كبرياء مهند وداست على كرامته ، يرسل الله من يكيل لها الصاع صاعين .

لحظة أطلت خارج هجير روحها ، أمكنها أن تسمع صوت تلك المرأة عند باب غرفته .

صوته الغادر وصوت الرقطاء السافلة . من أول لقاء! ؟ يا للرخص! يا للقرف! وهي التي أخرست كل صوت ناداها من عالم المدير العام الأبي ، فانتهت إلى سماع همساتهما وهسهساتهما عند باب غرفته . عند باب غرفته : كي يصل صوتاهما إليها هي ، ليقول لها أنه خدعها بكل خسة وخانها كما هو شأنه مع جميع النساء اللواتي تسافل معهن قبلها .

أمسكت بالتربيزة وقد راحت أطرافها ترتجف وعيناها تدومان . ساقاها اللتان صارتا ماء ، صارتا أيضا أمواجاً وزبداً . وذراعاها جناحين بلا ريش ، يخفقان ويخفقان . تصمغ الريق في فمها . كل شيء فيها تعطل ، إلا خيالها : مهند يفتح الباب ليستقبل خائنة خانها حبيب غادر .

كيف ستتسع لها الأمكنة ؟ كيف تبقى وهذا الوغد السافل الحقير الكلب المنحط القذر يعري في هذه اللحظة فتاته الكندية بلا صوت ولا حياء . تماماً مثلما فعل مع ساندرا وسولين .

كيف يمكن أن تبقى في هذه الغرفة الجاحدة ؟ إن بدنها قنبلة بدأ عدها التنازلي .

أفاق فراس قبيل الفجر . في طريقه إلى الحمام وجد رسالة نورما عند الباب : " ما في داعي تعمل هالعمل لأني تركتك مضطرة طول النهار . كان يمكن أن تقول زهقت منك حلي عني . أنا أكرهك . أنت دمرتني إلى الأبد دمرت روحي وعقلي وحياتي . مارح أعاتبك ولكن أنا أشتعل غضبا ونادمة على كل دقيقة قضيناها معاً وخصوصا بعدما سمعت صوت البنت الكندية في غرفتك . . من الآن فصاعداً لا أريد أن أراك . . قطعت كل معنى لما بيننا بمعاملتك المهينة لي . . . يا أخي على الأقل كان ممكن أن تذهب إلى غرفتها ما في داعي دعوتها إلى غرفتك لتقول لي إنك لست بحاجة إلي . . أنا الآن يستحيل أن أصدق أنك أحببتني أنت فقط استغليت طيبتي وسذاجتي وعدم تجربتي في الحياة لتوصلني إلى ما أنا عليه الآن . . رأيتكما في الكافتيريا وسمعتكم هنا واكتشفت الكابوس الذي أفهم الآن مدى رعبه وقذارته . . . أريد أن أخرج من هذه الغرفة التي بدأت تطبق علي أنت قتلتني قتلتني أنت قتلتني أنا في دوامة في ضياع في متاهة أنا أكرهك أكرهك أكرهك . . . "

ابتسم . نسي الحمام . أسرع إلى الطاولة : " لا تكوني حمقاء . بنت الكافتيريا عمياء . والثانية هي فتاة المطعم جاءت لي بعشائي . " ودس الورقة تحت الباب المشترك .

في الصباح دق بابها فلم ترد عليه . هبط إلى الكافتيريا . لم يرها . أتصل بالهاتف . لا جواب . صار الهلع ضباباً في دماغه .

قال له موظف الاستقبال أن مدموازيل البدر غادرت الفندق في السادسة والنصف صباحاً . وقال فراس : " اعذرني ، لكن مدموازيل البدر لا يمكن أن تغادر الفندق وحدها . أنا مسؤول عنها! " دفع الموظف بدفتره ليقرأه هذا المشرقي الغريب الذي يتشكك في سجلات فندق كندي . قال فراس : " اعطني مفتاح غرفتها وسأثبت لك أنها ما تزال هناك ."

" مسيو! " هتف موظف الفندق بدلاً من أن يقول : أيها المجنون! ثم بدا له أن يخلص من هذا المعتوه بموافقته على طلبه .

كانت الغرفة مقفرة تماماً . سرير مرتب . ستائر مسبلة . خزانة فارغة . قال الشرطي المرافق : " كونتان مسيو ؟ "

سمع فراس أصواتاً لكنه لم يفهم لغة . وشاهد فراغاً ولم ير غرفة . لاجدراناً ولا نافذة . مجرد فضاء رمادي أطرش . قال الشرطي المرافق : " كونتان مسيو ؟ " فانتبه إلى ضرورة مغادرة الغرفة .

وحيداً وملغى وقف بين صفين من أبواب الممر المغلقة . ولم يكن أحسن حالاً بعد أن أوصلته قدماه إلى بهو الفندق ثم وقفتا ملجمتين . ولا عندما خرج إلى شوارع كيبيك ووجد نفسه بعد ثلاث ساعات في لا مكان . أو عندما جلس على مقعد خشبي نخر في حديقة مفتوحة . لأول مرة في

حياته يكون ناضباً من الأفكار والمشاعر والرؤى . خلا صورة بحجم الفضاء لغرفة لم تعد غرفة ، وإحساس بأنه حشرة .

هل يعقل أن تدوس نورما على وجهه وتمضي ؟ هكذا! إن الكلاب أكرم منه . وجرذان البلاليع . يتبعها عبر القارات ، وتغدر به في ثانية! أمام وهم غبي ، تتلاشى ثقتها به! هل هذه امرأة أم عنكبوت ؟ كيف أحب هذه الذئبة ؟ هذه الرتيلاء . ذات يوم كتب لها أنها خضراء كالبحار : من كان يظن أن هذه الخضرة انحرار وعكر ؟

كان لابد من أن تمضي الأيام الثلاثة الباقية . وأن يلتقيا أخيرا وجهاً لوجه في ركن من فسطاط طويل مخصص لانتظار الإقلاع من مطار مونتريال . لم يبد أن أحداً منهما رأى الآخر ، أو غفل عن الأخر . جلسا غريبين بين حشد من الغرباء . هو متيبس وهي راعشة .

توقعت أن يتقدم منها ويكلمها ، على الأقل ليؤكد أنه ما يزال يحبها . لكن وجهه الكظيم ، عينيه المطموستين ، كل أماراته ، أوحت لها أنه لن يطلب الغفران .

ظل اسماهما على قيد الغربة حتى حطت بهما الطائرة في مطار الوطن . هناك انتقل فراس إلى الميتم الذي عاش فيه اثنين وخمسين عاما ، وانتقلت نورما إلى العقيد المهندس .

لم يتضايق من أن الأخطبوط قد هجره موقتا . أو ربما نهائيا . أحس بحاجته إلى هذه الحالة الغريبة من العطالة والاندثار التي تفشت فيه . هدرت حنيناته وصبواته باتجاه أولاده الأربعة . بل إنه استطاع في أوائل الصيف أن يدعوهم وأمهاتهم إلى حفلة صاخبة في المرسم كان مسك ختامها سبعة آلاف دولار وزعها عليهم بلا مساواة .

ذات قيلولة من أواخر حزيران رن الهاتف . أعقب الدوي صوت نورما . كان صوتاً مسلوب النبرات خانس الروح ، انقفل داخل كليشيهاته فلم ينبس بخلجة أو دلالة . أخفقت الكليشيهات في حمل فراس على الكلام . أخيراً : " لن تحكي معي ؟ " سألته ، وبالصوت المسموع نفسه . لم يرد . عادت تسأل :" ألم تفكر فيّ طول هذه المدة " قال : " بلى ، فكرت كثيرا . " صمتت تنتظر الكلام . أخيرا تمتم : " فكرت فيك . . باعتبارك أبشع مخلوقة في العالم . . وأفكر فيك باعتبارك ذئبة برية رضعت دمي . . "

تختر صوتها هي . وصمم فراس على الانتظار . جاءته نبراتها أخيرا : " أنا أحكي من المستشفى . " بغير اكتراث سأل : " من المريض ؟ " رشة ماء : " أنا . صار لي شهر عالسيرومات . "

كان ينظر عبر الجدار الزجاجي . وضع شريط موسيقا في المسجلة وشغلها . قال : " ولم تموتي حتى الآن ؟ "

الفصل الرابع

العناصر

لاقاها العقل والرضا أخيرا عندما أطل مهند من وراء متاريس في المطار . كانت ممسكة بعربة الحقائب فأفلتتها له وأمسكت بيده مثل دلفين أعيد إلى بركته بعد شتات ضليل .

لن تغادر هذا المرفأ الإسمنتي بعد الآن . في الشقة حضر من حضر ، وهتف لها من غاب . أرجعوا أعوامها السبعة والثلاثين إلى زهوة الحياة .

خلال أسبوعين عادت مياه حياتها إلى مجاريها . تذمر مهند من كثرة عنايتها به . ولاحظت سميرة : " لماذا تشتغلين شغل فراس نصار عنه ؟ خليه يشتغل بالأجر الذي يقبضه . " فردت : " لأرتاح من شوفته . بارم خلقته هكذا ، كأن الكآبة والضيق امتيازات حياته الوحيدة ."

وقالت أم بهجت :" الحمد لله أحوالك مصطلحة مع مهند ." وقال مهند : " إذا كان زافييه أعطاك كل هذا الزخم ، ياستي اعملي ثلاث دكتوراه ديتا . . . "

كان في عالم آخر . ما أجمل جهله ، وما أحزه في النفس . ستكرس حياتها له كي تكافئ هذه الشقة الغافية . وسيغفر لها الله معاصيها ، لأنها ستتوب وتتحجب .

كانت فكرة المغفرة مشربة وطائحة في روحها عندما خرجت فقاعة صغيرة من قلب ميناء المدير العام ، وانفجرت على سطح الماء الراكد . وتلك كانت لقاء تصادفياً لمهند وشادية أمام مصعد الأوريان بالاس . هم بدخول المصعد فوجدها تخرج منه . كانت سارحة وسادرة حتى أنها لم تره أو تعبأ به . ماذا كانت امرأة الخال نعمان تفعل هناك ؟ ولماذا تذهب إلى غرفة في فندق ؟

لم تعبأ نورما بالتفاصيل . زارت ومهند شقة الخال في الطابق الثالث من فيلا المدير العام . ولكن لم يكن لدى شادية تفاصيل تعطيها أصلا . رفضت وحسب أن ترى وجودها هناك مدعاة للاستغراب ، وأن ترى لمهند حقا في أن يتدخل في ما لا يعنيه .

قال نعمان : " كانت تشرب فنجان قهوة في الكافتيريا . طلعت إلى تواليت الطابق الأول لأنها أنظف . "

التفت مهند إلى شادية كأخ كبير يؤنب أخته الصغيرة : " أنا أخذ على خاطري منك . كل ضخامتي وكل سمنتي ولم تشوفيني! " قهقه نعمان ، وهز رأسه تحيراً من غفلات النساء .

ونبرت شادية بخفر متمارح : " واحدة طالعة من التواليت . والله استحيت! "

" أصيلة يا شادية ، " هتف نعمان . والتفت إلى مهند : " تصورا!"

لم تكن نورما بحاجة إلى من يقول لها إن شادية تكذب . غير أنها توقفت عند الحدود التي لا يمكن تجاوزها . والخال نعمان زوج حسن النية وليس مهند . حسن نيته أعيا حتى المدير العام . لطالما حذره من أن النساء ناقصات عقل ناقصات دين ، فلم يجد ذلك النقص عيبا .

كان لابد لنورما من أن تتخذ قراراً حاسماً ، وعلى مسؤوليتها الخاصة .

ترقبت فقط مناسبة انفرادية لتلطخ وجه شادية بالحقائق والمستمسكات . شادية هي التي لم تنتظر . في إحدى السهرات العائلية قالت لها ، وهما واقفتان على الشرفة : " أنت لماذا تتعبين حالك وتراقبينني ؟ غريبة! إذا كنت ملبخة بمهند ، ولا تجدين رجلاً يحبك ، اتركي غيرك يعيش ."

قالت نورما وهي تشرئب بقوة سلطانها الأخلاقي : " لن أسمح لك أن تعيشي سفالتك وخيانتك على حساب العائلة ."

زنخرت : " قولي لنعمان يطلقني ، وارتاحوا مني! غريبون أنتم! " رغم العتم ، لمعت عيناها بتلك اللزوجة الزرقاء التي ما أكثر ما تعتعت أفئدة الرجال . دمدمت نورما وهي ما تزال شاهرة سيف سلطانها الأخلاقي : " نحن ما عندنا طلاقات في العائلة . الزواج ، والأولاد ، والأسرة . هذه هي مقدساتنا ."

من جديد زنخرت شادية : " أعطوني حريتي ، أو حلوا عني . أنا لست من هذه العائلة . وليكن في علمك : أنا لا تهمني ملاحقتك لي ، مدام أنسبكتور!"

أحست نورما بالهشاشة . إن التي روحها ملطخة لن يهمها تلطيخ وجهها . لكنها أعلنت : " ستهمك غصبا عنك . والأيام بيننا . " ثم غادرت الشرفة بهدوء كبريائي جليل .

خلال أيام حاصرها حس بالهزيمة . شادية التي ليست شيئا في عين أحد ، رغم مواهبها الفيزيقية ، كانت راسخة كالطود ، صادقة كالمطر ، قوية

كالريح ، شامخة كبرج إيفل . استمدت من فجورها سلطاناً ، وكان أقوى من سلطان نورما الأخلاقي العالي .

ترافق نحولها المتزايد مع عزمها المتزايد على معاقبة شادية . كانت ثمة تلميحات من الجميع بضرورة " لجم " تلك المرأة و " شكمها " . لكن نعمان ظل يبتسم ويقول : " يا جماعة ، المرحوم زوجني شادية ضد إرادتها . أجيء أنا وأحصرها وأضيق عليها ؟ هذه سياسة غلط ."

لكن نورما انهارت ذات مساء وفي الليل نقلت إلى جناح العناية المركزة . كان لابد من إرغام جسدها على تناول الغذاء ، فتمرده العجيب كان يعني شيئاً واحداً : الموت .

بعد ثلاثة أسابيع اتصلت بفراس . عندما أكد لها أنه فكر فيها باعتبارها بشعة وذئبة ، علمت أنه هو وليس الله من كان يعاقبها . رمتها كلماته في جوف ضريحي لم يستطع شهر من المرض أن يوصلها إليه . أخبرته أنها في المستشفى منذ شهر ، لكنه لم يتزحزح . سألها : " ولم تموتي حتى الآن ؟ " صمتت قليلا . وبعد لحظات ماحقة من التردد جمجمت : " وشفت أن الله يعاقبني لأني . . . لأني خذلتك . أنا لا أعرف لماذا أجرحك ، أنت بالذات ."

تخيلت نفسها عندئذ مثل جان دارك وقد أمسك بتلابيبها هاجس قول الحق . غمغمت : " كنت على وشك . أربع خمس مرات . وبحسب ما شفته من ردود فعل الدكتور وأهلي ، أنا فعلا مت وعشت . لو أن الموت يجيء دفعة واحدة ، كنت ارتحت مني . لكن أنا شفت أنه يجيء على مهله ."

لم تكن كلماتها ما جعله يحس أنه فعلا كانت في خطر ، وإنما العياء الذي في كلماتها . كف عن المكابرة ، وصمت . ماذا يفعل ؟ مضى دهر ،

الآن ، وهو يصبها في تمثال ذئبة لها ضروع الأنانية والوضاعة والغدر ، ويشعل في وجهها النيران . كيف سيمكنه أن يفك عن كتفيه أربطة الكراهية ؟

وقد كفى مرور يوم خاو بعد المهاتفة لكي يستمر جسد نورما في سقوطه بين الأرخبيلات المميتة . ما جدوى العودة إلى الحياة إذا كانت هي بشعة وذئبة ؟ في مساء اليوم الثاني كانت الكلمتان قد صارتا في دماغها وشما .

شهقت عندما رأته ينبثق من بين زغاليل عينيها في وضع النهار . تلك هي تقاطيعه العجراء وعظام كتفيه ، وكرشه المستقل . كانت الساعة الثامنة من صباح اليوم الثاني . وكانت هي تتمشى بين الغرف . تأكدت أنه هو فنظرت إلى حالها – ردائها الراشح برائحة المرض ، وجسمها المغمس به . حتى وجهها ، رأته غير ما تراه . والأمنية التي تحققت الآن صارت لتوها ورطة يجب الخلاص منها . كل تلك الثقوب الزرقاء في ساعديها ، والإنهدامات الرمادية في وجهها وعينيها وصدرها ، ماذا تفعل بها ؟ تلفتت حولها خوفاً من عيون راصدة . غمغمت : " مرسي عالزيارة . لكن اطلع فوراً ، سيلفوبلي ."

كانت ممرضة قد دخلت الحجرة ، وهمت برفعها إلى السرير . لكن نورما استمهلتها ، وحملقت بفراس . همست : " لا تزعل . جوتيم . الآن أحسست بالاضطراب لأنك شفتني هكذا . وكما أنه ، لا أريد أن تلتقي بمهند هنا . . . ما بودي صورتكم تلتصق برأسي وأنتم سوية ."

دخلت نورما عهداً جديداً من حياتها النفسية خلال تلك الثواني . الخاطر الذي صار الآن يقيناً قال لها إن الله يعاقبها لأنها هجرت فراس . وتفتحت بوابات روحها وجسدها كي يدخل الرجل الذي تحب .

على أنها يوم تقدمت في الممر الضيق نحو مستودع التماثيل واللوحات والذكريات ، شاهدت في ذهنها صفحات تطوى ، ثم مزيداً من صفحات تطوى - بينما فراس يختطفها عن الأرض ويدور بها في متاهة المرسم ، كزوبعة تريد أن تمسح غبار الكراهية وصديد الغربة والشقاء عن المكان الذي لم تدخله منذ شهور . من قال إن عكراً قد تفشى في بحارهما ؟

وظلت نورما الجوانية تزغرد : " نزلني " إلى أن اكتمل الطي مع أول قبلة لهما منذ كيبيك . منذ عشرة أيام جاءها هذا المشهد وانتزعها من أحضان الموت . وها هي الآن بين أحضان فراس نصار ، تتقلب على المروج والزنبق ، وتطفو بظهرها على الينابيع ، مدركة أنها لن تخونه بعد الآن .

لن يمكنها أن تعود إلى وادي الموت مرة ثانية . لن تحسب حسابها على أساس التخلي عن فراس نصار . إنها لن تتخلى عنه .

أحس فراس بخلجات جسدها وسمع نداءاته . جسد نورما لغتها . هو وليس اللسان . كان النبض طبولاً فشحن جوارحه . تغلغل فيه ومسح الألوان الكالحة عن عينيه . نيف وثلاثة أشهر امحت كما يمحي مقطع عن جهاز كمبيوتر . الحب الذي مارساه كان استمراراً للساعات الست والثلاثين التي عاشاها في مطار شارل ديغول . أما أطلال غرفتها الخاوية في كيبيك فقد انقشعت من خلايا الذاكرة . لم ينطق فمها إلا بالأمأمات و " مون ديو" . لكن فراس عرف أنها من الآن وإلى ما لانهاية لن تخرج منه إلا إليه .

جلسا يحسوان القهوة . ملخص مستفيض لأيام موتها في المستشفى - هذا المكان البغيض الذي لن تترك نفسها تنساق إليه مرة أخرى . تفاصيل خاصة عن مفاجأة مهند لها ، إذ خرجت من المستشفى إلى الفيلا الجديدة في تل الرمان . وعن فرحها القرير بأن هذه الفيلا هي الشيء الوحيد الذي

أنجزته في حياتها ، بعد أن أشرفت عليه بالسنتمتر وبالساعة طوال عامين ثقيلين . عبارات متعثرة عن المنعطف العقلي الذي أوقف استسلامها للموت ، عن سعادتها بما اطمأن إليه عقلها . تجنب مبرم لكل إشارة إلى كيبيك . ثم شادية : لأول مرة تواجه العائلة أزمة حقيقية مهددة . في العام الماضي كان لأختها سميحة أزمة مع زوجها أوصلتهما إلى الطلاق . " وكله بسبب قيم ماتت ، ونحن نظل نتمسك بها ." لكن كل شيء لفلف وطوي ، وتم تجنب الانفجار .

شادية شيء آخر . ونورما لا تفهم لماذا تصر هذه المجنونة على الطلاق من الخال نعمان . إذا رماها ستصير امرأة شوارع . لا بيت ، لا أهل ، لا مال . فقط وظيفة تافهة في البنك العربي . على أية ركيزة عجيبة ترتكز هذه المرأة الهشة بينما هي تدمر حياتها ؟

لكن شادية أوصلت العائلة إلى صعيد جديد من الشقاق والشقاء : لقد حزمت أمرها على رفع دعوى طلاق . سألتها أم بهجت : ألا يهمها طفلان مثل البدور ؟ وتبين أنهم لا يهمونها . وسأل نعمان : أتهون عليها العشرة والحب وخمسة عشر عاما ؟ وتبين أنها هائنة وتهون . وزمجر مهند : "اجرئي على رفع الدعوى ، وأنا كفيل برميك في زنزانة سنة كاملة . " وردت هي بهدوء : " إن كنت رجلاً اعملها . " قالت هادية : " طلباتك . " وقد عرفت أن شادية تريد مزيدا من المال والهدايا . قالت شادية : " الطلاق . ما بودي غيره ."

قال نعمان : " لن تشوفي الأولاد في حياتك . " قالت : " خذوهم عني . أولاد لم يولدوا من الحب . أنا لم أحبب أحداً منهم . " قال مهند : " ستخسرين شغلك في البنك . " قالت : " طلقوني ، وما عليكم مني . بعد الطلاق أفكر في الخسائر ."

اختار نعمان منعطفاً مفاجئاً وجديداً دون إرادة منه . في ذلك القيظ الرطب من أواخر تموز ، انهار بدنه الرياضي القوي ، ونقل إلى المستشفى . خلال أسبوع من الفحوص والتحاليل تبين للعائلة أن ثمة سباقاً مع الموت ، ونعمان هو الذي سيخوضه هذه المرة . انضمت كلمة (لوكيميا) إلى المفردات التي يتداولونها كل يوم ، وصارت في ذهن نورما مرادفاً للهشاشة .

فراس زمجر : " يعني أنت طول أربعة أشهر لم تلمسي أوراق أطروحتك!" فتمتمت : " ولن ألمسها حتى الله يعرف متى . " ونهضت تتفقد آخر تمهيدياته . تبعها . لكن عقلها كان في مسار آخر . أليس مرض نعمان نذيراً من الله لها هي شخصياً ؟ أليس أن الله يقول لها : أوشكت قبل شهرين أن تموتي وأنت زانية ، فرأفت بك ، حذار من أن تعودي إلى زناك ، فتموتي بلا مغفرة" ؟

وهاتف غريب منها ذات مساء من أوائل أيلول : " متى بدأ هيثكليف وكاترين يحبان بعضهما في هذه المدينة ؟ قال : " في مثل هذه الأيام . " وإذ غمغمت مغتبطة : " هكذا إذن! " فهم أنها تقول له : كل عام ونحن بخير . هم بمزيد من الكلام فقاطعته : " يا لطيف ما أضعف ذاكرتك . نسيت قصة الصرصار ؟ " أصر : " اسمعي حتى تبطلي هذه البارانويا . سنتين ونحن على هذا المنوال . يعني لو تلفونك مراقب ، كانت وصلت للعقيد مئة خبرية وكنت تطلقت حتى الآن . لسوء الحظ هذا لم يحدث . " قطعت الخط .

رن الهاتف من جديد . وفوراً سألت : " ما هي أخبار ندوتكم الأسبوعية ؟"

قال : " كيف صار حتى حكيت معي في هذا الوقت ؟ " فطمر جوابها وجهه في جبل من الدهشة : " الجماعة سافروا . " صمت . " سافروا . . .

يعني براة البلد ؟ " صمت . إذا نبست بكلمة فلن يمكنها الفكاك من دعوته إلى البيت . كيف ستحتفظ إذن بالواحد بالمئة ؟ ربما صار مئة بالمئة ، وطوال يومين متتاليين .

" لأي شيء سافروا ؟ " فأجابت : " مع خالي نعمان . الدكاترة قالوا ، أحسن لخالي نعمان أن يتعالج في باريس ."

صمت . " تعالي إلى الندوة . جلستنا اليوم في بيت المهندس جبارة . " ما تمنته كان شيئا آخر ، وقد خرج على غفلة : " تعال أنت ."

لم تعرف ماذا كان يحدث فيها .

فتحت له باب الدخول الجانبي ، وأوقفته بحذاء البراد في المطبخ ، ثم تساءلت لماذا أوقفته هناك . لقد ملأ البيت بحضوره منذ خطا أول خطوة فيه ؛ فلماذا أوقفته في المتر الأول منه ؟ هرعت إلى الصالون ، فإلى جناح الزوجية ، والغرف الأخرى . تأكدت من أن مهند ليس هناك ، وأن الأضواء كلها مطفأة ، والستائر كلها مسدلة ، وأن التلفزيون الشاغل لا يصدر صوتا .

كان مبهوراً بالبيت ، داخله وخارجه ، لذلك لم يبال بتصرفاتها . انتصب قرب البراد وجعل يتأمل التفاصيل المرهفة الذوق ، والألوان الحميمة ، ومنضدة الطعام الرخامية التي أوشكت أن تبتسم .

وقفت أمامه مشبوكة الأصابع . ضمها واحتواها . فرك ظهرها براحته . بوجهه فرك وجهها . وبشفتيه شفتيها . ظلت مشبوكة الأصابع . طفلة بمريول مدرسة ، لا تريد أن تكون مذنبة ، لكنها لا تستطيع أن تقاوم . هم يختطفها فانفكت أصابعها : " أوع! هنا يشوفوننا . " نظر حوله . كان المطبخ مثل مرسح واسع بلا منافذ . تساءل : " أين إذن ؟ " أمسكت بيده .

مشى وراءها . وضعت سبابتها على فمها محذرة . قادته إلى كنبة مثناة . أجلسته إلى اليمين : " لا تتزحزح شعرة واحدة . " جلست إلى جانبه . مد ذراعه وراءها . أعادت ذراعه إلى حضنه . " ولا شعرة . أنت شايف ، البيت كله زجاج . قال : " وكله ستائر . " فأكدت : " يشوفوننا! " قال : " لن يطل أحد من شباكه في هذا الجو العاصف ."

نظر حوله كحيوان محاصر : " وماذا بعد ؟ " ابتسمت : " لا قبل ولا بعد . نتفرج على فيلم فيديو . البارحة عرضوا فيلم . . . كأنه عنا . . . "

" كلما شفت فيلم قلت كأنه عنا . ما حكايتك ؟"

" شايف ؟ كأن كل قصص الحب قصة واحدة ."

" وقصص الحب هذه تحدث كلها على كنبة لشخصين ؟"

" إي . هس ولا كلمة . ولا تمد يدك ."

بات العتم يسمح له بالرؤية . تلفت هنا وهناك متأملاً الشكل السوريالي للبهو . وانتابه حنين حزين إلى شيء غائب غامض . كان المكان مخضبا بالتشكيل والذوق والجمال ، وأبعاده المتكسرة والمنحنية توحي بحرية رعناء كحرية البحار .

" أنت بجد التي صممت هذا البيت ؟ وكسوته ؟"

لم يكن في نيتها أن تريه الفيلا خوفا من غرف النوم . لكنها للمرة الثانية تنقاد بسيل جواني . ستريه أن المرأة التي أحبها قد لا تكون أقل فنية منه . " تعال أشوفك البيت ."

أخذته إلى بهو الاستقبال . . . امتداد متصل بالبهو الكبير ومنفصل

عنه بحسب ما ينزلق باب زجاجي عريض ، أو ينغلق . ثم المكتبة وآلاف الكتب . دهش فراس : " هذه ليست مكتبة . هذا مخزن سري لخمور المعرفة والعقل . " ثم ويا للغرابة : جناح الزوجية . " قف على العتبة وإياك أن تدخل . أرجوك . أرجوك لا تدخل ." كل ما استطاع رؤيته هو التكسرات الكثيفة الداكنة لستارة ملأت الجدار الخارجي بأكمله ولامست السقف والموكيت . ولم يكن مؤكدا أن المربع الأوسط وراءها ، الأقل ظلمة بدرجة أو درجتين ، هو نافذة محكمة الإغلاق . فجأة أيضا ، دهليز صغير مجهول المسار .

انعطفا مع الدهليز يساراً بزاوية قائمة ، ثم يميناً بأخرى . أبواب خشبية سميكة وعتم رفيق . أحس فراس بوحشية هاجعة كالأعشاب في القيعان البحرية ، ومنتفضة كالقرش في صدر البحار . الخباء في الدهليز والخفاء في العتم . غرف زند نوما وشدها إليه . تجرجرت بعكس ما توقع .

لبلبت ذراعيها على خاصرتيه وظهره . وسدّت وجهها على وجهه . " لا أعرف ماذا تفعل أنت فيّ . " ولم يكن واضحا أي النبرات في صوتها هي الأقوى : الحزينة أم السعيدة .

أحد الأبواب لم يكن خشبا ، بل ظلاما متخشبا .

بعد أن أحبا بعضهما بعضاً قالت : " لا أعرف ماذا تفعل أنت فيّ . " ورد مداعبا : " أنا أم العتم ؟"

كان العتم قد شف فسمح لاستغراب وجهها بالظهور : " العتم! ما دخل العتم ؟ " لم يرد وإنما سأل : " لماذا تبعدين عني كلما أحببنا بعضنا ؟ " غمغمت : " لأشوفك . لأشوف أنك معي ."

نبر : " بالعيون وحدها ؟ حرام عليك . إذا ضممتك أشوفك بكل جسدي ، وأنت مثلي . نشوف بعضنا بالأصابع والبشرة والأنفاس ، وأشم رائحة عرقك ، رائحة إبطك ، واسمع نبض قلبك . حرام عليك . أنا إحساسي بك يبدأ بعد أن نمارس الحب . الإحساس المجوهر ."

بحيرة متضايقة قالت : " رائحة إبطي طالعة ؟! أنا متحممة قبل ساعتين! » غمغم مستاء من الحمام : " لحسن الحظ عرقت شوية أثناء الحب . عرق طازج بديع . لكن غير كاف . " ثم أضاف : " إبطك كان مندى . وأنا مصصته مثلما كنت أمص الأزهار البرية في خربة الميناء قبل أربعين سنة . أنت شفت النباتات صباحاً وعليها الندى ؟ " فأطلقت نهنهة ساخرة : " أنا لا شفت ولا عرفت . أنت رومنسي بزيادة . الرومنسية زمانها مضى وانقضى ."

" لكن زمان القهوة لا يمضي ولا ينقضي . وخاصة في هذه العاصفة . " همهمت : " إي والله! منة ميرسي . عدة القهوة في ثاني سمندرة من اليمين . الرف الأسفل في المطبخ . وانتبه لا تقترب من باب الجنينة ."

مع القهوة والضوء الخفيف المنبعث من التلفزيون ومع الكنبة المزدوجة . " بيتك تحفة . والسبب الرئيسي ، هو أن الشكل يوحي بالمضمون . مع أننا الآن سنة ثالثة في الحب ، هذه أول مرة أراك من هذه الزاوية ." ابتسمت بفيض رغيد ومنتظر . " تعنين أنك غير منتبهة أن بيتك هو تماماً شخصيتك ؟ " وضعت فنجانها على المنضدة ، ويدها على ركبته : " قل لي كيف ."

لم يصف لها كيف يبدو البيت من الخارج . الخارج ملك المجتمع ، رغم خصوصيته الواضحة واختلافه عن بقية " الخوارج " في الشارع . أما

البيت من الداخل فهو قسمان متضادان تماما . قسم الحياة اليومية : الصالون غرفة الضيوف ، المكتبة ، المطبخ ، الجدران الزجاجية ، الإطلالة على الحديقة الداخلية . هذا القسم غاية في السعة والبهجة والراحة ، وفي الجمال الراقي بصورة خاصة . وفي الهشاشة أيضا : هذا الزجاج كله في الجدران ، وخاصة الجدران الداخلية شيء غير مألوف . كل حجم من الجمال فيه يقابله حجم مماثل من الخطر . لأن الجمال هش . ويمكن لحبات برد مثل التي لطمت متحف رودان أن تكسره .

" هذا القسم هو أنت في الحقيقة . جميل وهش . ويعتمد على وضع اجتماعي سائد لوقايته من الكسر . يعني تصوري أحدا رماه بحجر! خلص ، انكسر الزجاج . لكن أنت واثقة من عدم رمي الحجارة . لذلك لديك ضوء وافر . شكل داخلي غريب ، وباهر ."

والقسم الثاني ؟ القسم الثاني مرهق . أبوابه السميكة الصلدة ، مرهقة . دهليزه وزوايا دهليزه الحادة ، متاهة . الغرف الخرساء المبهمة . قسم يوحي بأنه يحدث فيه شيء منكر ، وحتى أثيم ، أو قبيح وكريه ، يجب أن يلفلفه الصمت والعتم . " إذا كان هذا عالمك الجواني . . . فحالتك صعبة جدا . هذا القسم غير مفتوح للفضاء" .

ترددت نورما قبل أن تبوح له بسر : " أول باب شفته في الدهليز ، هذا باب يفتح للخارج . " وكان سراً فعلاً ، مباغتاً ومخرساً . إذ كيف لأحد أن يتصور أي شيء في ذلك القسم يفتح للخارج ؟

قالت إنها منذ البداية ، قبل كسوة الجدران ، أحست بهذه الدهلزة . لم يكن الباب مصمماً أصلاً . لكنها عملت فتحة في الجدار الإسمنتي هناك . وجعلت منها باباً . لم تعرف حتى هذه اللحظة لم فعلت ذلك .

قال مداعبا : " هو الباب الذي لم تحسبي حسابه ، دخلت أنا منه" .

قالت : " أنت دائما تحشر حالك في كل شيء" .

بشيء من الشرود والارتباك سألته إن كان يعرف كيف تزوجت . ضحك . هو في الحقيقة لا يعرف أي شيء عنها . بينهما حب فقط ، وليس معرفة .

خلال لحظات اكتسب وجهها وقار جدة تحكي حكاية لأحفادها . لم تدر لم أرادت أن تفتح تلك الصفحات المطوية من حياتها القديمة . كانت ترفرف في فضاء ملأه وجود فراس الرخو بسلام الروح وفرحة الخاطر . والأيام القديمة حضرت ، متشحة بكآبة لا توصف . لقد صار رأسها مثل بيتها الذي تعصف حوله رياح صاخبة .

قالت إنها كانت في المرحلة الأخيرة من الماجستير . وفي ذلك الصيف ، قبل اثني عشر عاماً أخبرها المدير العام أنها ستتزوج النقيب مهند . وفي أيلول كتب كتابهما . وعادت إلى بوردو لاستكمال أطروحتها . فجأة حظي مهند بمنحة عسكرية تخصصية في طولون . وقابل النقيب المدير العام ، وقال إنه يريد زوجته معه في فرنسا . عبثا حاول المدير العام استمهاله ريثما تنجز البنت أطروحتها . لم يستطع . ولم يحتج . حقوق الزوج هي حقوقه . والرجال قوامون على النساء . وكان النقيب جازماً وحاسماً : " عذراً عمي . إما تجيء نورما إلى طولون ، أو هي طالق . " وكان المدير العام آخر رجل في العالم يقبل بكارثة أن تكون ابنته مطلقة - خاصة وأنها بأعوامها الخمسة والعشرين اقتربت اقتراباً خطيراً من العنوسة . وكانت نورما آخر ابنة في العالم يمكنها أن تكون عاصية .

لم يقل فراس شيئا ، لكن نظرته النفاذة في عيني نورما استفزتها . نبرت : " لن أكمل لك! " وقابل عدوانيتها بعدوانية مماثلة : " يعني عندك

شيء للحكي بعد هذه الفظاعة ؟ " نبرت : " عندي . لكن إذا لم تسمع باحترام ، لن أحكي لك" .

تبادلا نظرة صعبة . خلال ثوان صارت ابتسامة . قال فراس : " أنا متأسف . " ابتسمت هي كطفلة لبيت شروطها . عادت إلى ليلة عاصفة من كانون الأول ، يوم تعثرت قدماها في المطار لأن دموعها تعثرت في عينيها . مشت وحيدة ومخذولة نحو الطائرة المندفعة بلا رحمة من بوردو إلى طولون . وهناك ، في طولون ، كان عليها أن تهبط سلم الطائرة لتقدم جسدها لرجل غريب .

تلقاها النقيب في المطار . رحب بها ترحيبا حضاريا مصحوبا بباقة ورد حمراء . وكان من الكياسة بحيث قاد بها السيارة إلى أرقى مطعم في المدينة ، وعاملها كما يعامل أرقى زوج فرنسي زوجته الراقية . وفعل كل ما بوسعه في تلك البلاد الغريبة لكي يخلق حسا بالإلفة والطمأنينة ، ويهيء عروسه للخلوة المقبلة .

لا المنطق ولا التوسل ولا التصلب استطاع أن يقنع النقيب بتأجيل فض البكارة يومين أو ثلاثة ، ولا أربعاً وعشرين ساعة . ولا ساعة واحدة . وهكذا عرفت بغتة أن ليلة الدخلة التي تتغنى بها ثقافة هذه البلاد ، هي آلام اللحم المنفلع المتمزق ثلاث مرات ذلك الليل . و كل مرة مئة مرة . وقد فرح مهند فرحاً خاصاً ببكارتها ، وبأن تلك الليلة كانت الثالثة عشرة في دورتها الشهرية . لقد أراد ولداً منذ الساعة الأولى .

" لهذا السبب إذن ، كلما جئت إلي تبقين نصف ساعة بعيدة عني . تتذكرين ليلة الاغتصاب . "

تأملته وهي تروز كلماته على ميزان مصداقيتها . غمغمت بخواء : " أنت ترعبني ."

أحسا بالجوع بعد الحب الثالث . وأحست وراء جوعها جوعاً إلى حبة منجة تقطفها من جزر فيجي . لكنها كانت مدركة أن أبعد مكان يمكنها أن تهرب إليه هو المطبخ الهامد في الطرف الآخر من البيت .

وصل فراس إلى المطبخ ، فهبت بوجهه صيحتها القامعة الشرسة : " أنا ما عندي طبخ! ولا تطلب مني أن أطبخ لك! أنا ما صدقت أني خلصت من الطبخ له! "

كانت قد وضعت على الطاولة بعض الجواهز الطعامية ، وإذ أضافت الخبز أخيراً اقتنعت أن ستة صحون صغيرة متناثرة على الطاولة ليست أقل من وليمة فاخرة .

ابتسم فراس كطفل يتيم يكره أن يكون عبئاً على الآخرين . جلس إلى الطاولة موحوحاً ومصطفق اليدين لئلا تحس نورما أن صيحتها المباغتة قد آلمته . " أنا غير جائع في الحقيقة . لكن ترتيبك للصحون يفتح الشهية" .

الأمواج التي هدرت في رأسها كانت خافية عنه . لكن المفاجأة التالية أعيت فهمه . فور أن غسل يديه وفمه أشارت له أن الليل قد انتصف . لقد رأت من تناوله الطعام بهذا الرضا أن بوسعه أن يتحمل المزيد من توتراتها . وإذ بقي غافل الوجه ، أخبرته : " حان وقت روحتك" .

وقفت في مبدأ الصالون ، متهيئة لوداعه . تلفت رأسه ببطء ، وجالت عيناه عبر الصالون السوريالي والزجاج المؤطر . ثم نظر إليها . لم تقل شيئا . ظلت واقفة تنتظر خروجه . اندفع برق السماء الغاضبة وفرش وجهيهما بسطوع بنفسجي نافر ، وغاب . غمغم : " ماذا تحاولين أن تثبتي ؟" ولم تجب .

كانت على وشك أن تتخلى عن موقفها الصعب : ما هذا الذي تفعله بمن أنقذ عمرها ؟ ومض في خاطرها مهند ونعمان وشادية . خطت بنفسها إلى باب المطبخ الخارجي . وفتحته .

قالت لنفسها إن مكانه هناك ، في الفضاء ، في الريح والمطر . وكلما أمكنها أن تنضم إليه ، ستفعل بلا إبطاء . لكن الزوابع مكانها الفضاء وليس بيتها . لن تسمح الآن ولا أبداً بأن يلخبط الحب حياتها .

ستتحمل كل شيء وأي شيء ، ولن ترزح تحت احتمالات الفضيحة . لن تسلم صمامات قلبها لمضخات القلق .

قال : "في نفسي لهفة ، أرجوك لبيها لي . أمنية صغيرة ، إنما تعادل عمراً . أريد أن أسترد حوالي خمسين ثانية عشتها معك على سرير باريس . كلها صفاء ولألاء . لم أكن أعرف أن النشوة تعمل الإنسان إلهاً . يومها عرفت . في حياتي لم أحس بهذه الألوهة . حتى وأنا أخلق تماثيلي من الصلصال الذي خلقنا الله منه . عندما أفقت في الفجر ومدت راحة يدي إلى ركبتك . وسحبت يدي إلى أعلى فخذك . كنت أتوقع أن تصطدم يدي بالكيلوت . وهيأت نفسي لسقوط روحي عن عنبر لحمك الأملس إلى جدث الكيلوت الأصم . لكن يدي لم تلمس كيلوت . صعدت وصعدت ولم تلمس كيلوات حتى قوس السماء . لم تكوني لابسة كيلوت . هذا الصعود خلاني أصير خلطة من الإله بعل والإله أبولو . أريد أن أسترده . أريد أن أفيق في الفجر . أمد يدي إليك . ألمسك هنا مثلما لمستك هناك . وبعدها أحضنك . رجاء ."

ظلت ممسكة بالباب المفتوح وتنتظر خروجه . بصمت أصفر خرج خلال ثوان لم يبق لها سوى أن تلملم الغبش الذي خلفه بين عينيها وبين مسافات الفيلا .

بعد يوم ونصف كانت دوامة واحدة ما تزال تلفلفه وتجرفه . شريط

نحاسي يطن في ذاكرته بصورة المهانة والمرارة : حصارها لحركاته في البهو ؛ فحيحها بوجهه في المطبخ ؛ منعه من دخول جناح النوم ؛ طرده من البيت إلى جوف الليل ؛ تحطيم حلمه العنبري . لماذا عليه أن يتحمل كل هذه الإهانات والحقارة ؟

نبرته على الهاتف أشعلت باروداً في دم نورما . لم تعرف ماذا حدث ، فقط أحست به . إنه غلط مبهم ولكنه حجري . عشرين مرة اتصلت ولم يرفع السماعة . خمس مرات ذهبت إلى (مواسم) وإلى الفنون الجميلة . غامرت وسألت الدكتور صائب ، فأجابها بنصف اهتمام : " من يقدر أن يعرف مكان متشرد مثله ؟ " وفقط عندما تجرأت وأفسدت نومه في هزيع الليل ، استطاعت أن تقول له : " فراس أبوس يدك ، تعال . تعال الصبح لنفطر سوية . سيلفوبلي . ادخل من بابك أنت ."

ما الذي جعله يعدها ؟ ما الذي أبقاه يقظاً بعدئذ وهو محتاج إلى النوم ؟ وكيف انقاد إلى بيتها وروحه مقفلة بسبعة أقفال ؟ لماذا تفر منه كرامته كلما هاجمه الحب ؟

من أول نظرة أبصرت دروبه المسدودة . أجلسته في غرفة الضيوف ، مقابل الستائر البيضاء الكثيفة المهفهفة . تكوم بين مسند الكنبة وذراعها ، فلم تستطع جلوساً . لن يمكنها أن تتحمل نأيه الوجيد . كانت تلف جسمها العاري برداء حريري أصهب . أقبلت إليه وفكت ذراعيه عن صدره . جلست على ركبتيه . مدت ذراعها على كتفه ، وأمسكت بيده . هي تعرف أن اللغة لم تكن يوما حليفها في مثل هذه المناسبات . لهذا خاطبته بجسدها .

خمسة وثلاثين عاما قبل فراس نصار ، وجسدها لا يعرف النطق . الآن يكلف بمهمة بلاغية! مددته على حضن فراس وصدره ، وتقنطرت هناك وتبتلت .

كانت الستائر البيضاء ناضحة بالشمس . والكنبة الرازحة ناضحة بالعتم . البرد الخفيف الراشح من فضاء المكان جعل فراس يلتقط بسرعة الدفء المتسرب من لحم فخذيها وأضلاعها .

أراد أن يهرب من شبكتي عينيها المقاتلتين ، فارتطمت عيناه بحلمتها الناهدة . من فتحة الرداء الغافلة ، رآها . كبيرة ونافرة ومنقّطة بالغامق . تبث تردداتها حولها مترقبة ومترهبة . تحمل شفق الآجام والأعوام . أزاحت أصابعه الوجلة طرف الرداء ، وملأت شفتاه ذلك الفراغ .

حملها باتجاه الصالون ، رأسها وذراعها على ظهره . وصدرها متحدب حول فمه الشره .

وصل إلى جناح الزوجية . رفع رأسه : " ندخل هنا ؟ " غمغمت بنفاد صبر : " ادخل!"

بأية قشور أو تمويهات تريد أن تحتفظ ؟ إنها تخون زوجها وأباها ومدينتها . وهي لن تحاول أن تمسك بالعصا من الوسط . الرعب الذي تلطت بها خلال ست وثلاثين ساعة ، من أن فراس قد أدار لها ظهره ، أوشك يطمس غدق الساعات الفرنسية .

خروجه التام من حياتها جعل سماءها تطبق على الأرض . وهي لن تتخلى عن الحياة معه ليتلقفها الموت مع غيره . ستهب له وجدانها وحبها وحلمتيها ومهبلها وشهقاتها . . . سوف تعطيه وتعطيه على الفراش المحرم الذي لن يكون محرماً بعد الآن . . . وستوسده أعماق أضلاعها الخضراء إلى أن يمحي الحرام عن وجه الأرض ، وتقوم الساعة .

قالت له إنها نجت من السفر إلى باريس بأعجوبة . فقد ألح مهند أن

تصطحبه لتخضع جسدها مرة سادسة أو سابعة لمسابر الأطباء ومحاقنهم ومناظيرهم ومخصباتهم . . . وبالمقابل أصرت هي على أن تتبنى طفلا عمره ثلاث سنوات ، التقته في جمعية البر والخدمات الاجتماعية . . . صاح فراس : "ثلاث سنوات! " فانفعلت على غير عادتها : إي وماله ؟ " هز رأسه باستنكار : " أنت مجنونة . ثلاث سنوات يعني شخصيته تكونت وانتهت . كل تفاعلاتك وعلاقاتك معه تكون من الدرجة الثانية ."

غمغمت بانقطاع : " سيدي! مهند رفض بالمرة . مصر على المشاتل والأنابيب ."

شرد فراس قليلا : " تعرفين ؟ حالة العقم عند مهند هي الرمز بعينه ."

" هس ولا كلمة . لا تحك عليه . مهند إنسانيته تكفيه ." وأضافت : " أحسن حل ، ولد من الميتم . " وتنهدت : " بس مهند رافض بالمرة ."

" لكن أنا فاهم منك أنك خلص ، تعودت ، وما عدت تفكرين في الأولاد ."

" فعلا . يكفيني أولاد العائلة . هكذا أراد الله" .

" الله أو أنت ؟ لماذا تحشرون الله في كل شغلة سلبية من حياتكم ؟ لكن لو عشت دائماً صادقة مع نفسك مثلما عشت هاتين الساعتين على الفراش ، كان عندنا ابننا الآن . أعرف عشرين امرأة عندهن أولاد بهذه الطريقة . ما عندهن أي مشكلة ."

" يا أخي أنت لا ترحم . كيف أتحمل رؤية مهند وهو يحمل ابنك ويلاعبه كأنه ابنه ؟ لن يمكنك أن تفهم هذه الفظاعة ؟ على كل حال ، أنا هذه أفكاري . لا تحكم على إنسانيتي حكمك على أفكاري" .

" كل شيء يهون مقابل أن ينجب هذا الحب العظيم بيننا ولداً . بعد سنوات نموت نحن الاثنين . ويموت معنا كل هذا الجمال والفرح لأنهما بلا ذرية . يموت الحب السعيد الرائع . . . وتبقى قسائم زواجي وزواجك ."

جاء اليوم الأخير لعودة مهند ونعمان . ولأنهما لا بد أن يختلفا على أمر ما ، فقد تنافرا بشأن رفضها العنيد لأي تواصل بينهما في اليوم الأخير . أربع وعشرون ساعة هي الحد الأدنى لطرد شياطين فراس منها وتشغيل الروبوتات فيها كي تستقبل مهند .

جلسا في اليوم الأخير على كنبة التلفزيون المثناة بعد أن غادرا الجناح . ستائر البهو وستائر المطر رشرشتهما بعتم خفيف أليف . ورشرشهما التلفزيون بضوء صامت . ذهنه المباشر منشغل بأخطبوطه ، أما ذهنها فمنشغل بالمدير العام . غمغمت بخفوت : " كيف يخطر لك أن تحضنني هكذا ؟" وكانت تقول لنفسها : كيف سيمكنها أن تجلس غداً مع مهند على الكنبة نفسها ؟ قال فراس : " هكذا كنت أحضن ابنتي لتنام . " لم ترفع فمها عن نحره : " وهكذا كان أبي يحضنني ."

من القاع الأبوي الوسنان الذي هجعت فيه ، نتح الندى وحومت الأفاريح . أينما سرت يد فراس عليها ، تركت شحنة من البرق والبرتقال . صيرت جسدها بستانا وتموجات . أطلقت فيه أمنا وضراما . حقاً إن الحب يبدأ بعد انتهاء الجنس .

قال : " كنت دائما أنزعج من عطل تكويني في جذعك . ضيق في القفص الصدري الظهري . رخاوة في الثدي . ضمور في الإبط . لكن شوفي الآن! " أزاح الرداء عن جذعها ، فأسرعت تعيده وتتلفلف به . أزاحه من جديد : " لازم تشوفي!"

تكلم وأصابعه تشاركه الشرح . لقد امتلأ نهداها وتكورا . لم يعودا قرصين كما كانا في السابق . أما إبطاها فاكتسبا فسحة ونمواً ، وبلا ضخامة . وزنداها لم يعودا عظمتين مضمدتين ، بل امتدادان مجدولان نضران . " شوفي كيف اكتمل بناء جسمك بقوة الحب . وشوفي مساحة السرة!"

أسرعت تلفلف سرتها بيديها وردائها : " لا الله يخليك . سرتي معطوبة من اشتغال الدكاترة فيها . " هز رأسه بالقبول : " ماش . بالنسبة للحوض . . . " وضعت يدها على فمه : " سيلفوبلي! ارحمني . أنا لست تمثالا من تماثيلك . أنت تمددني على الموج ، تغرقني وتنتشلني . "

" فعلا ، شغلة تشبه المعجزة ، " قال منشغلاً فقط باكتشافه المذهل . " أول مرة رأيت فيها جسمك ، قلت هذا جسد بقي نصفه العلوي طفلا . الآن نصفك العلوي يأتيه البلوغ ، وأنت في الثامنة والثلاثين! من يصدق ؟ شوفي شوفي!"

جرفتها الأمواج ، وملأ الندى عينيها . " ما بك ؟ " سألها متوجساً ، وهو يمسح دمعها . دفنت وجهها في نحره وغمغمت : " لا أحد يقول لي هذا الكلام . ولا يشوفني مثلما تشوفني . لا أحد يحسسني بقيمة لي . "

ابتسم ونبر زاجراً : " هناك أحد غيري يشوفك هكذا ، وعنده فرصة ليقول لك مثل هذا الكلام ؟ أنت تعترفين اعترافات خطيرة يا مدام . " تابعت فرك جبينها وأنفها بصدره : " مون ديو! لهذه الدرجة يكون الحب رائعا ؟"

رغم ذلك " لا " لأن يعيشا حياتهما معا . ثم إن هناك سراً : إن طبيبها الذي شارك في جميع عمليات الاستيلاد الفاشلة يقول : إن العقم لا بد وأن أصاب رحمها بسبب تلك العمليات . هناك ، حيث ينفطر الجنين ويكون ،

تتلاحق عملية تليّف ، وتنشئ أغشية متناسجة . هذه الأغشية تعدم إمكانية الحمل .

مع خروج فراس ، جعل الضباب ينجلي ، والهشاشة . كل قطعة في البيت صارت مطالبة بأن تنفض منها حضوره وتنفك عنه . وعادت هي من المراجيح لتدخل في المكابح ، وتسترد إلفتها الراكدة . بصورة خاصة مقعد التلفزيون والنرجيلة ، وتربيزة المكسرات . من الآن فصاعداً سيضطجع هنا رجلان ، ولن يتزحزحا . لن يرى أحدهما الآخر . هي فقط التي ستراهما .

عاد مهند متجهماً . أما نعمان فلم يبق منه إلا ما يذكر به . عينان متورمتان ، ومنكبان طويلان امتدا كعلاقة . ابتسامة عليلة تلتمس القبول ، وتحاول إبعاد القلق . لكن نورما رأت أكثر بكثير من الهزال الذي امتص عضلاته وبنيانه الرياضي . كان سخرية مريرة : زوج نقي يتلقفه الموت ، وزوجة بغي تتلقف الحياة . ياله من عطب محير يتفشى في ناموس الكون .

موت نعمان المؤكد المنتظر قدم لها معروفاً غير منتظر : أخرج من ذهن مهند مطالبته بحقوقه الزوجية . جلس وحسب على مقعد التلفزيون – ولكن وسط طيف شاحب صاخب ناتئ العظام مبروم الكرش . نظرت خفية إلى الرجلين المتلابسين : ماذا لو نادياها معاً في وقت واحد ، بصوتين متقاطعين ؟ مضت إلى بهو الاستقبال المظلم . كان فراس نصار ما يزال هناك جالساً على الكنبة التي حملتهما معا . رباه! ماذا لو أراد مهند نسيان حزنه وطالبها بحقوقه الزوجية ؟ إن فراس نصار هناك ، على سريرهما ، وفي الغرف الأخرى ، والحمامات ، والمطبخ ، وكل شبر! متى سيراه مهند ؟ متى ستعترف عيناها وجسدها بأنه لم يغادر الفيللا ؟

في السهرة التي دعا إليها أخوها بهجت ترحيبا بعودة الخال ، انصرف الرجال كالعادة إلى حديث السياسة والمبادئ وغلاء المعيشة . أما النساء

فعرجن على ذكريات الصبا واليفاعة . وفي الشوط الثاني من السهرة ، بدأ الرجال لعب الورق والنرد ، وتحولت جداول الحديث نحو الأولاد : عناء تدريسهم ، عناء أكلهم ، عناء نظافتهم . لكن شادية لم تتلبلب حول أحاديث النساء . شكون من أولادهن ، وكن مغتبطات بالشكاوى والأولاد معا ؛ أما هي فلم تنطق . لم تطفر منها سعادة النساء اللواتي فخرن بحياة مكرسة بالكامل لكل ما عافته روحها .

راقبتها نورما . من موقع اعتبرته زميلاتها المترفعات دونياً ووضيعاً ، ابتسمت لهن ابتسامة امرأة أحست بتفوقها الجسيم على كل من احتقرها . فيما مضى كان حسها بالتفوق ينبع من جمالها الأخاذ ، أما الآن فمن حريتها . وعرفت نورما أن الوسيلة الوحيدة لتجنب احتقار شادية وتعاليها هي أن تتحدث في الثقافة والرسم والموسيقا والمعارض ، وكل ذلك الأفق الأسمى الذي يتسع لعلاقتها بفراس . خلال دقائق كسبت الجولة ، وأرغمت وجه شادية على أن يشحب بالحزن والحسرة لأن تلك العوالم الجميلة لم تكن جزءا من حياتها .

بدأ الشوط الثالث من السهرة . وانتقلت الألسن إلى السوليتيرات والإجازات الأوروبية وتغييرات الأثاث . لم يعد بوسع نورما سوى أن تسترخي على كنبتها الوثيرة ، تعقد ذراعيها على بطنها ، وتستعير من شادية ابتسامتها . كل مكان ليس فيه فراس نصار ، غربة .

بعد أيام قالت لمهند : " حان الوقت لأعلق شوية لوحات في البيت . ومن بينها لوحات أهداها لي بعض الناس ذات يوم . قالوا لي في غاليري ديزارت إنها تكلف ثلاثة آلاف دولار . " جن جنون العقيد : " في ظروف شبه حرب ، يرمي الإنسان ثلاثة آلاف دولار في الهواء؟!"

مضى أسبوعان وهي متضايقة من ردة فعله . كيف إذن ستحرر بيتها من فراس نصار ؟ كيف تستعيد توازنات حياتها مع مهند ، إذا لم تجد نفسها مختلفة عن شادية ؟

كان في رأسها سحب كثيرة . كل ما يشكل نصف العصا الذي إلى يسار قبضتها ، بات معطلا ذلك الخريف : الحب ، نورما البدر التي اكتشفها فراس نصار ، أطروحة الدكتوراه ، دراستها الموعودة لمعهد الدراسات الصحفية ، ندوة المجلة الأسبوعية ، مناقشة فراس في رسومه الجديدة ، مدفأة الحطب ، وإلى حد بعيد : شغلها في المجلة .

النصف الذي إلى اليمين نهب روزنامتها وذهنها : شادية ، نعمان المقترب وئيدا من الموت ، أمها العليلة الممروضة ، شبح الطلاق بين أختها الصغرى وزوجها ، بيتها الجديد ، أولاد نعمان الضائعون ، خواء الحياة مع " الأهل " ، الميتم الذي تزوره خلسة بين حين وحين ، التليف المتزايد المهدد بضرورة استئصال رحمها ، دورتها الشهرية المهلكة كل اثنين وعشرين يوماً ، الشقيقة والصداع اللذان يشلان جسدها فلا تقوى حتى على رفع عود كبريت . . وفوق هذا كله وقبله : مهند وحاجاته . رباه! إن تسعين بالمئة من حياتها لقمة بين أشداق تنين .

شيئان اثنان استطاعت أن تنجزهما : تركت لفراس حقيبة رسم ، هدية لأيام الحب في الفيلا ، واختلست " لوحاتها " التي رسمها في عام حبهما الأول وأودعتهما غاليري ديزارت لتأطيرها مع ثماني لوحات أخرى . بعدئذ تركت نفسها لتتغرق بنوع من المطر لم ينهمر عليها من قبل . هاتفها الدكتور محسن أبو طالب ، مدير الميتم ، فأرسل رعدة في عمودها الفقري . طلب أن تشرف هي وسميرة وميراي وأخريات . . على تنظيم " معرض

الطفولة " فوضعها في " بيبي لاند " حيث ستصطفق حولها جداول الأمومة . لقد بات واضحا لها مع بداية الشتاء أن أولاد أخويها وأخواتها وخالها لن يكونوا أولادها أبداً . سوف يكبرون ويغيبون عنها . وها هو ذا مهند يتخلى عن محاولة التخصيب الثامنة ، والسبب هو يقينه من إصابتها بالعقم . . . فكيف تطرد من عقلها وشرايينها هذا الرعب المقطر ؟ لسوف تأتيها الشيخوخة ذات يوم ، بل قريباً جداً ، ولن يكون حولها أحد! ستكون وحيدة كضبع قطبي .

أفعمتها نشوة يتيمة وهي تدخل مبنى الميتم في الثامنة إلا خمس دقائق كل صباح ، والخامسة إلا خمساً كل مساء . وبين إعداد منصات الكتب وإطارات الرسوم قبل الافتتاح ، واستقبال الأطفال بعده ، شهدت تفتحات الزنبق في جوانحها . كلما خطا طفل حمل قلبها إليه إناء من الحب وسكبه على رأسه وكتفيه وسرته وأليتيه .

لم تعرف سر السحر الذي جلببها المعرض به . كانت مسحورة وحسب . ولحظة التقت فراس في (مواسم) أصابتها بكمة مطبقة وهي تسمع لغته العنيفة الصاعقة : " تشتغلين كالخدامة لمحسن أبو طالب ، وتتركينني أهترئ شوقا إليك! أربعة أشهر! معقول أنك خائنة إلى هذه الدرجة ؟ أنت نسيت أننا نمنا سوية على فراس زوجيتك ؟"

تحملت إهانته بهدوء : " لأني ما نسيت ، مضت أربعة شهور . وليتني استفدت . أنت بعدك هناك" .

جلس مدلياً يديه بين ركبتيه ، رأسه فوق صدره . وجلست ترمقه من زاويتي عينيها اليسراوين ، وتخمن متى سيدرك أن قيامتها قائمة فيهدأ غضبه .

فجأة تكسر صوتها : " أنا مستعدة لأي شيء يخليني أعيش في جو الأطفال ."

رفع رأسه . رآها تبكي . نهض بصمت وخرج .

انطلقت وراءه . المياه التي انحبست فيها طوال أربعة أشهر ، انفلتت وجرفتها إلى المرسم . قبل أن تصل إلى كنبتهما غشيت عيناها بالبكاء . تأملها فراس جامداً . شاهد انتظار كتفيها ووجهها ، الرجاء المستعجل أن يضمها إليه قبل أن ينفطر كيانها ويندثر .

" مئة مرة قلت لي أنك خلص ، ما عدت تشعرين بحاجة إلى طفل . كنت تكذبين علي حتى لا أطالبك بطفل لنا ؟ أنت خائنة! حقيرة ! "

ظل وجهها يستعجله ، ورعشة شفتيها المنتظرتين . التقط يدها فقامتها .

تمتمت : " اليوم نزول البويضة ."

ظلا متعانقين حتى مارسا الحب مرتين . ولحظة افترق جسداهما تغطى وجهها بقلق وليد . عاينها . قال : " إذا حملت ، تتلاشى كل تناقضات حياتك . بحارك تصير زرقاء ."

تأملته وهي تحشد قوى عقلها كي ترسل يقينها على بحار رأيه . عامان ونصف ، فإلى متى ؟ أتظل تنتظر إلى أن يحل العقم في رحمها والرعب في جمجمتها ؟ إن مهند زوج وليس قدراً .

عصة قلب إضافية زحمتها وهي ترى هلعه ولوعته الحارنة . " لماذا تعاملينني هكذا ؟ " سألها وهو يتردى بين السخط والخيبة . أخذت الأمور ببساطة : " كيف يعني ؟ " أمسك زنديها : " أنا محتاج لك ، لا تعامليني

هكذا . " اغتبطت . أحبت ألم زندها النافر تحت أصابعه . بعد كل شيء ، قد يكون هذا العجوز والد الطفل المستحيل ، وينقذ مرة أخرى عمرها .

في حضيض من الأسر والرجاء همهم : " تخصصين لي وقتاً ، مثلما تخصصين وقتاً للطبخ ، أو لمحاضرة المعهد . انتهى الوقت انتهى اللقاء . أنت بعيدة ، منقطعة عني . عن حياتي اليومية ، حياتي الذهنية ، مشاريعي ، آمالي . . أربعة أشهر يا ويلك من الله! أنا محتاج لك ، نورما . كل يوم . رسومي محتاجة لك ، وتماثيلي ، وعقلي ، وحواسي ، وساعاتي . . . "

أجابت بأن خبخبت نحو الممر الصغير ، وتركته وسط فوراناته التي لم تكتمل . أكلّ حبيبين يعجزان هكذا عن مناقشة شقائهما ؟

لم تهدأ طوال ذلك النهار . لكن أشرعة عينيه أبحرت وراءها أينما ذهبت . ورغم أنها لم تلتفت ، فقد رأتها بلا انقطاع .

في التاسعة مساء جلست إلى جانب زوجها ونرجيلته ومكسراته . لماذا كل تلك الشدة ؟ ستجعله لهفته وغروره يصدق أن الولد ولده ، وأنه ليس عقيماً .

انحسر العالم الجواني من عقل نورما غداة نقلوا نعمان إلى المستشفى . كان الجميع يشاهد اقترابه العجول من أن يصير هيكلاً عظمياً أجرد . لكن أحداً لم يكلم أحداً في هذا الأمر . وآثروا باتفاق غير مكتوب أن يعيشوا وكأن نعمان لا يهدده الموت . أم بهجت فقط أعياها التكتم . قبل ثلاث سنوات رحل زوجها ، وهاهو ذا أخوها يتهيأ لمصيره بعد أن فارقه ثلاثة أرباع جسده .

اتصلت بفراس لتخبره بالدرك الجديد الذي هوت إليه حياة الخال الذي

ليس أقل من أخ لها . غمغمت بنبرة معدنية : " كنت تشكو من قلة لقاءاتنا ؛ الآن لا أعرف متى نلتقي ، حتى ."

" على أي حال ، أنا اشتغل في هذه الفترة على رسمتين ، ثلاث ، وأنتظرك أكثر من قبل ، لنحكي في موضوع خالك ، وموضوع الرسمات ، والدكتوراه . إلى أين وصلت في الأطروحة ؟"

هزت رأسها كأن فراس واقف أمامها : " دكتوراه! الله يرحم . ألا ترى ظروفي ؟ "

وسط يقين حزين بأنه لن يكون هناك حمل ولا ولادة ، وأن نورما لن تكون يوماً له ، قدم فراس ثلاث لوحات في الندوة الأسبوعية . أراد بعض تعليقات ونقداً ، ليعرف مبلغ نجاحه . جلس رخواً وساهياً ، ومحتاجاً إلى نوع من التلاشي في جو آخر ولغة أخرى .

ويا للمفاجأة . فقد وقفت ميراي وسط الحاضرين وتكلمت كأن بها مساً صوفياً . لم تعلق ولم تتنقد ، ولم تتقعر كلماتها بالمصطلحات المترجمة . فقط سرحت . خلال دقائق صمت الحاضرون لتتكلم هي . وخرجت رخاوة فراس من بدنه .

كم عاماً وكم دهراً مضى عليه دون أن يحس أن ما ترسمه أصابعه أو تشكله يمكن أن يدفق في بعض الناس هذه اللجة من الاكتشافات والنشوة ؟ إذا كان هذا هو مفعول لوحاته الثلاث في ميراي ، فهو في غنى عن إعجاب النقاد بها .

" أتمنى أن أتفرج على الأتوليه الذي خرجت منه هذه اللوحات ، " قالت ميراي لفراس لحظة انفردت به فيما الحاضرون يهمون بالخروج . وقد

كفت تلك الأمنية لأن ينتبه إلى ميراي جديدة غير ميراي الرعناء التي أبصرتها عيناه من قبل . رأى أيضا صفاء بشرتها وبياضها ، وانبثاقة النهدين ، وانسراحات الشعر الأسود . وقفت أمامه فشاهد كتلة الصلصال البرتقالي المنتظر خليقة جديدة ، وشم منها رائحة الدراق .

خوف صغير جعله يتلكأ في دعوتها . سر صغير . تجربة في الحجر والحديد والفراغات لم يعشها من قبل ، وتوشك أن تتجلى في تمثال لم يحدث له من قبل . وهو لا يمكنه أن يريها لأحد قبل اكتمالها .

" تعالي الآن إلى المرسم ، إذا أحببت ،" قال .

ظل يكتشف ميراي وهي تجوس في المرسم ببطء مرتبك . " كيف ترسم وحولك كل هذه الفوضى ؟ سيتامبوسيبل! " واندفعت تلملم ملابسه المغسولة عن التماثيل واللوحات والكراسي والطاولة . رتبتها بحسب أنواعها . " أين خزانتك ؟ " أشار لها .

وضعت الملابس في الأدراج . سألته : " أنت تكوي قمصانك بنفسك ؟" فهز رأسه : " أشق شغل هو كي الثياب ."

كان واضحا أن في المرأة الطليقة العابثة آباراً من الحنان والإيثار . بدلا من أن تتفرج على المرسم ، تفرجت على البيت . وأكثر ما نال عبارات الزجر منها هو الأماكن والجدران الملطخة بالألوان ، ونثارات الحجر والخشب على كل شيء تقريباً . والمطبخ القذر ، والأطباق المتكومة في المجلى ، واللوحات المفروشة على الطاولات كأوراق التبغ . كان واضحا أنها ليست " ضيفة " وإنما صاحبة بيت . من الحمام انطلقت ضحكتها العصبية الصائحة ، قبل أن تخرج من هناك وتهتف : " بذمتك أنت عايش في القرن العشرين ؟ " ورفعت آلة الحلاقة أمام وجهه المتحير : " في عصر رونالد ريغان وفرانسوا

ميتيران ، أنت تحلق بشفرة ناسيت ذات حدين! وحياة المسيح أنت خيلة ."

تتابع تنقيبها في البيت وتعليقها عليه بحيث استعصى على فراس أن يلحق بأي مقطع من تصرفاتها . كان وجهه شاشة انطباعات متلاحقة . غير أنه اضطر أخيرا إلى الاستجابة عندما رمت ميراي بآلة الحلاقة في كيس القمامة . وأعلنت : " أنا نازلة اشتري لك شفرات وآلة حلاقة جديدة من سوبر ماركت البناية ."

كانا قد اقتربا أحدهما من الآخر حتى باتت المسافة بينهما ساحة مغنطيسية . في ذلك الحيز الضيق تقاطعت أنفاسهما وتمازجت . مرة أخرى هتفت بموضوعية ، كأن الاقتراب لم يقحمها في ذلك المدار : " فنان لا يرتب بيته بطريقة فنية!"

راح فراس يرتب عقله المستقيل . سبقته ذراعاه . وبلا استئذان أمسكتا بزندي ميراي البضين وهيأتا جسمها الضامر لصدره المقترب . " بهذه السرعة ؟ " تلجلج فمها بالكلام . لم تترك السرعة مجالا للعبارة أو إمعان النظر ، فقد تقاطعت شفتاه مع شفتيها .

عبرت وهلة من الزمن حاملة لفراس شعوراً بالراحة والخلاص . ليس أغسل للنفس من امرأة تفيض بالحرية . في مثل هذه التربة فقط يمكن للمرء أن ينمو ويحب .

شعور خافت هو بين الأمنية والحلم ، قال له إن ميراي قد تكذّب تمثال الحجر والحديد و الفراغات المخبأ وراء ستارة سميكة في مرسمه .

جلست على الصوفا وأشعلت سيجارة . أحس هو بالكمد ، وتمناها أن تجلس في مكان آخر . حررت قدميها من كندرتها وتمددت . لدغته

حركتها . رغم حضورها الرائع ، تظل الصوفا متكأ نورما الخاص ، الذي عاش ساعات حب جميلة . كانت ميراي تقول : " أنت تتذكر ما كتبته نورما البدر عن النظام في أعمالك ؛ وهذا رأي ذكي . لكن لا أعرف ماذا كانت ستكتب ضدك لو ذات يوم دخلت الأتوليبيه ووقعت عيناها على الاضطراب الفظيع والفوضى ، هنا . كل شيء خاص بك كشخص ، مخلوط في كل شيء خاص بك كفنان ."

ركع أمام ركبتيها وراحته تلامس فستانها المتسامح . وضعته كلماتها في مدار الحزن . إذا صح كلام ميراي ، فهو يفسر لماذا تعثرت مشاريع الرسم والنحت التي راودته في الآونة الأخيرة . انساب مجداف يده على الامتدادات والمفارق في قوامها . لكنه لم يدر على وجه التحديد : هل أراد أن تكون نورما ميراي ، أم ميراي نورما ؟

قبلها ثانية . قبلة هادئة ، ولكن مفعمة . اختلج جسداهما انفعالاً . ثم أوقفته بحزم عاقل عندما صعدت يده من باطن الركبة نحو الفخذ . كلاهما اطمأن لانسحاب يده . وبالنسبة له فقد رشقته ميراي بلغز عندما أعلنت : " نحن نقدر أن نكون صديقين عظيمين . " فكأن البهجة الحسية الفائقة التي عبرتهما لم تكن سوى أخدوعة صغيرة . وأدرك متعجباً أن مزيداً من تحسسه لبشرتها الفتية النضرة سيحمله إلى أرض غريبة مقلقة .

لن يستطيع أن يمارس الحب مع ميراي حتى ولو قبلت . إنه يحب نورما ، المرأة التي تعصاها اللغة والحرية ، التي تعرضت للإصابة بالحب فانعطبت .

كم هو مدهش ، كم هو سعيد ، أن يكتشف رجل في الثالثة والخمسين أن من يحب يتوحد حقاً .

" تريد قهوة أو نسكافيه ؟ " دلّه صوت ميراي من المطبخ . أسرع إليها ووقف على العتبة . كانت تنتعل ممشاته . صاحت : " أعترف لك أن عندك شوية ترتيب . لولا الشحاطة على العتبة كنت دخلت حافية واتسخت قدماي ."

أعطاها علبتي الحليب والنسكافيه . وبحث عن شيء يأكلانه فلم يجد سوى جبنة الروكفور الفرنسية . لكن ميراي رفضت : " لو كان عندك شنكليش أو جبنة حلوم ."

" جبنة حلوم حاضرة . تلفون صغير للعم سمعان ، وبعد دقيقتين تكون هنا ."

لم ترد . حملت صينية القهوة وعادت بصمت إلى الصوفا . مشيا غريبين . جلسا غريبين .

قالت ميراي : " أنا لازم أكون صادقة معك . واحدة مثلي ، لا بد ما تكون سعيدة لأن فناناً مثلك يرغب فيها . لكن أنا بصراحة ، يعني كأني أدوس على عظام الموتى لو نمت معك . مع أني الآن وأنا أكلمك ، أتمنى لو تنزع عني بلوزتي وتنورتي وتنام معي . لكني أعرف أني لن أستجيب لك . لن أخون الموتى ."

" من هم هؤلاء ؟ أبوك ؟ أمك ؟"

" ما دخل أمي وأبي ؟ لا . شاب ألماني أحبني وأحببته ذات يوم ."

نزل عليه البرد ولكن ليس السلام . أحس بالامتنان لصدق هذه المرأة النقية تجاه ألمانيها الراحل ، الذي استنهض صدقه تجاه نورما الغائبة . دعاها إلى مطعم وحانة وكافتيريا ، لكنها هزت رأسها بالرفض لكل دعوة . أصرت أن يعيدها إلى منزلها .

أعادها . كانت الشوارع مكتظة بالغربة واليباب . لو أنه جردها بالقوة من ملابسها ، مثلما أوحت له ، ليبس بستان من العلاقات الجميلة بينهما مقابل شهقتين أو ثلاث من شهقات الشبق . لو نام معها ، لمات مع نورما .

مضى النهار التالي بعدئذ وهو يحاول أن يقنع نفسه أنه ليس يتيما ولا منبوذا . شيء ما سيحدث ويجعل نورما ملك عينيه .

في النهاية وجد نفسه طفلاً حافياً يعبر الحارات القديمة ويلتمس فيها سلوانه عبر غياب البشر .

عاد إلى المرسم آخر الليل . توجه بلا عجل نحو منحوتته الجديدة . نقلها نحو الجدار الزجاجي ونزع عنها حجابها ، وأمضى أمامها ساعة خاثرة .

فجأة : إذا كان الحب قد أخفق في محو الوشم عن بشرة نورما ، فيجب أن تكون بشرة التمثال بحراً من الوشم . لم يجد صعوبة في العمل من جديد على التمثال .

لأمر ما لم يعه ، تحول الوشم إلى بصمات ، وراحت سكينه الصغيرة ومطرقته الأصغر تنقشان أخاديد إبرية متعرجة ، منبترة ، على الكتل الحجرية المتمفصلة . عشرين يوما وهو يغرق التمثال المتأجج بالسعادة والجمال في بصمات الشقاء والبشاعة . وقد أحس في لحظات غافلة أنه ربما كان يدمر عملاً فنياً متميزاً لمجرد أن يتشفى بامرأة تعجز عن التقاط خلاصهما : هي وهو . نشوة التشفي حالت دون توقفه . ولم يدر أي مشكل وأية معاناة ومعاني تخرج من أعصابه وأدواته إلى أن جاءته ميراي ذاك المساء .

اتصلت به من شقة الدكتور صائب لتسأله سبب غيابه عن الندوة . لم تقل إنها قادمة . وعندما فتح لها الباب لم يفاجأ بها فقط ، بل برزمة من الشطائر والمناقيش دستها تحت أنفه المشمشم .

تناول الرزمة بيد وخصرها بأخرى ، ومشى بهما عبر الممر الضيق . لم تصدر عنها ردة فعل واضحة وهي تعاين التمثال . فقط عاينته : بصمت واستغراق . أخيرا همهمت : " كل لقمة بينما أعمل قهوتي . ولا تنس آلة الحلاقة والشفرات أسفل الكيس . " ودرجت نحو المطبخ .

عندما عادت بالقهوة رأته منقطعا عنها وعن المناقيش ، منشغلا بتمثاله . جلست على الموكيت . أخذت تحسو قهوتها شبه متوارية ، واجمة قليلا ، وراضية إلى أبعد الحدود .

في مرحلة بين مرحلتين من النقش والنقر ، وضع فراس إزميله ومطرقته ، ونظر حوله بهلع صغير . ابتسامة ميراي خففت من لومه لنفسه . ورآها تنهض فتوقف عن المجيء إليها ليتفرجا معا على التمثال .

عبرت في محياها نفرة . سألها ماذا ترى ، وقالت إنها أشياء كثيرة . لتبدأ بأول الأشياء . لا ، ستبدأ بالشيء المفاجيء : قدرته على كره كبير! أحنى رأسه فوق كتفه الأيمن ، متفرساً في التمثال . قال : " وقادر على حب كبير ، كما أنه . " استدار نحوها . تعبطها بذراعيه ، وقبلها قبلة متسلسلة مائجة .

حلحلت جسدها من إساره . " لا تحاول إغوائي ، فراس نصار . أنا امرأة محتاجة للحب . يعني يمكن أستجيب . " لماذا لا تقبلين على الحب ؟ " " لأنه يترك بصمات كهذه على مقدساتي . تجربتي مع غيرهارد هي التي تعطيني معنى ، معاني . لا أريد وشما على هذا المعاني" .

تأمل وجهها باستغراق حتى هتفت : " ما لك ؟"

ها هو يبدأ عامه الثالث والخمسين عاجزاً عن أن يعرف كيف يكون المرء صادقاً فعلاً مع نفسه . إذ لو كان صادقاً لما خطر له ، وهو المنبوذ من امرأة يحبها ، أنه سيلاقي السلوان مع امرأة أخرى .

قال : " في بلادنا تتعلم المرأة أن زواجها من رجل لا تحبه ، أخلاق . وأن تحب رجلاً لا يتزوجها ، شرمطة ."

قالت ميراي : " منذ مرة عرض علي غيرهارد الزواج ولم أوافق . خفت ."

لم يتوان عن مد يديه إلى ملابسها . قالت :" يمكن نندم . " لم يكترث : " حتى ولو عدت ولبست ثيابك . . ما عليه . " كان واثقاً أنه يريدها هي ، وليس نورما . أراد أن يروي غلته ، لا ليستعيد شيئا مع نورما بل ليميت شيئا : عبوديته لها .

كانت استجابتها محدودة لمقدمات العشق التي اعتادها مع نورما . وبعد ثوان أخذت ترمي ثيابها بنفسها . لم يبتهج بهذه الحداثة الجنسية . لقد دخلت فورا إلى الهيكل . لم تنتظر أن يقودها إليه . ولكن ما شأنه وشأن المقدمات القديمة إذا كان بوسعه أن يبتكر أخرى جديدة ؟

كلما نضت ميراي عنها قطعة ، راحت يداه وشفتاه تشرب البشرة التي تعرت . وقد منحته استجابتها حساً بالاعتزاز . لم تكن ثمة بادرة واحدة توحي بالاغتصاب . لقد تركت له حرية مطلقة أن يتضمخ ببخور جسدها وينهل منه .

لا شك أن لكل امرأة جميلة سحرها الذي لا يضارع .

كانت ميراي شريكة ريّا في ممارسة هي منذ الأزل لغز وغواية . إلى أن اضطجعا أخيرا كمحارتين فرغتا من لؤلؤتيهما . شيء واحد فقط أخذ ينوس في ذهن فراس : هذه المرأة الصغيرة الجميلة تهجع على الشرشف نفسه العابق بالحب الذي بينه وبين نورما . كان ذلك كافيا للكمد وكره الذات . الحقيقة هي أن ميراي لؤلؤة . امرأة جعلته يعتقد قبل دقائق أن حبه لنورما ربما كان مصادفة سيئة الطالع . لكنه الآن أحس بغلالة من الابتذال ، الرخص ربما ، تنسدل على جبينه وتنث رذاذ الضيق ورائحة الوسخ . الآن يفهم شقاء نورما مع جسد زوجها .

لم تتحرك ميراي . تحرش بها مداعبا ليعرف في أي طقس شعوري هي . رأي قطرات المطر على أجفانها وخديها .

جثا أمامها شابكاً يديه على ركبتيه . سألها باقتضاب : " غيرهارد ؟" لم ترد . " تحسين بالذنب تجاهه ؟ " " وتجاه مقدساتي" .

لم ير أنه محتاج لمزيد من الشرح . نورما على حق : مثل هذه الأمور لا تشرح . تفهم فقط . غمغمت ميراي : " أنا قلت لك ."

وهمهم هو : " لو عجز البشر عن الحب بعد المرة الأولى لهلكوا . ما فائدة حياتهم ؟"

الحضور المبرم للحاجز بينهما جعل فنجان القهوة في الكارلتون أغنية حزينة شافية . كان كل منهما مزهرية للثاني ، ولكن ليس أكثر . هناك فقط قالت له إن التمثال ذا الفراغات عمل خارق . ليس أن فكرة الفراغات هي أجمل تعبير فني عن قصور الإنسان وهشاشته وهزائمه ، وإنما تنفيذها . والبصمات! كيف خطرت له هذه الفكرة الجهنمية ؟

عاد إلى المرسم وجلس على مقعد صغير . مرفقاه مغروزان في

ركبتيه ، ويداه تتلولحان أمام ساقيه . ماذا يفعل بكل هذه الأمكنة التي ليست نورما فيها ؟ بهذه الصحارى . وكل هذه الأوقات . واللوحات والتماثيل . كيف حدث وصارت مدينة بأكملها تفصل بينهما ؟ وماذا سيحل به يوم يعجز عن تحمل الحواجز ، بعد أن عجز عن السلوان مع امرأة أخرى ؟

تناول سماعة الهاتف وأدار رقمها . من الطرف الآخر جاءه صوت مهند الخائر بالنوم : " ألوه! " تكرر الصوت مرتين ، وهو لا يدري كيف يتصرف . أعاد السماعة .

في الصباح الباكر اتصلت نورما . لم تكن ساخطة ولكن قلقة وجازمة : " أرجوك لا تتصل . التلفونات مراقبة ." كيف عرفت أنه هو ؟ قلبها قال لها . ألم يقل لها قلبها أنهما يجب أن يلتقيا وإنه مشتاق ؟ " لا لم يقل . هس ، ولا كلمة ."

آثرت أن تترك فراس يتميز غيظاً وحسرة على أن تلتقيه وهي خضراء كالبحار : بكامل شوقها وكامل عكرها . لقد جاءتها الدورة الشهرية كالعادة وصار شواظاً كل احتمال لها بالحمل والولادة .

ويوم أدخلوا نعمان المستشفى ، اكتمل انحرارها وانقطاعها ، ورأت بأم عينيها هولاً لم تكن تنتظره : الغرفة التي مات نعمان فيها هي نفسها التي شهدت فراق أبيها . الموت الجديد استعاد موتاً كان وحده شرخ حياتها الأكبر . وعاشت الموتين في وقت معا .

هي أيضا ستموت ، ذات يوم ، وتمضي حاملة جسدها الداعر إلى سعير روحها الشقية . قد يدفنونها إلى جانب نعمان ، لكنها لن تقترب قط من روحه الطاهرة . روحها هي ستدفن في أعماق البحار .

شيء صغير حدث لها في أوائل آذار وأزاح عن عينيها ستائر وعلامات . كانت تخرج بسيارتها من معهد الدراسات الصحفية عند المغيب ، وسرعان ما أجبرتها حركة المرور الكثيفة على التوقف . وسرعان ما انهمر المطر قوياً وصائتاً . لا برق ولا رعد . فقط طبول المطر . منذ شهور لم تنتبه إلى المطر . مدت إصبعيها وشغلت المساحتين . راح فراس يهطل مع المطر ، ويروح ويجيء أمام عينيها مع المساحتين ، بل ويمد يده ويقبض على يدها ويشدها رافضاً ثمن المساحتين ، مطلقاً في أصابعها الباردة دفء أصابعه . . دفء أصابعه . . اغرورق المطر . انغبش وصار ضباباً مشرشراً . ولحظة انطلق موكب السيارات ، نتشت منديلاً ورقياً ليكون مساحة لعينيها .

هذا كله ذهب أدراج المستشفى . في الطابق الرابع ، في تلك الحجرة ، راح المشهد الأخير للخال نعمان يقوض السوسن داخل جوانحها ويهتك المطر .

هذا كله تذكرة من الله . إنه يحذرها من هذه الشروش الآثمة التي سقاها فراس نصار بمطره في وجدانها وجسدها . الحب جميل وسعيد وحر ؛ لكنه مثل غياهب البحار : قادر على أن يُهلك . لأنه لا أحد يستطيع تحمل الخطيئة . الشيء الصحيح هو العائلة والولاء والشرف . هذه الروابط القديمة القديمة ليست قراراً يوقع عليه العقل وانتهينا . إنها شيء ينبع هو الآخر من الغياهب . يأتي حاملاً الرضا والطمأنينة ، والاستمرار . أنساق بيضاء ، لا برق فيها ولا رعد . لا سيول . ولا تهديد .

في لحظة ما بدأ الرضا يختنق بذاته . لحظةٌ أتت بغتة ، تثقب الشرانق ، بل تثقب شرنقة واحدة فقط ، لتخرج منها فراشة واحدة فقط ،

فراشة كانت قبل ثوان دودة مهددة بالموت ، وفي عمق لحظة الاختناق ، نبتت لها أجنحة ، وبطاقة شخصية مكتوب عليها نورما البدر ، وطارت نحو مرسم فراس نصار .

صخب آخر وأصوات أخرى هدرت بوجهها عندما فتحت الباب ودخلت . لم يركض فراس إليها ويختطفها عن الأرض ، كما هي عادته . لم ينطق بكلمة واحدة . استقبلها بعينين مِدْيَتَين . وفوراً انفلش الضجيج في رأسها والخفقان في قلبها .

دقيقتان من الخطى المتقطعة العاثرة ، ثم وقفت أمامه . تأملته منتظرة تغيراً رطباً في موقفه . لن تعترف أنها مذنبة ومجرمة . فليتحرك وينته من وقفته الفاجعة كشواهد القبور .

" ارجعي إلى زوجك ، " قال لها ، " هو كل ما تستحقينه من الحياة . معه تجدين التفاهة والإلغاء اللذين تستاهلينهما ."

لم يقل وجهها المتهدل شيئا . ولا عيناها العاتمتان . أحست بنفرة الدم في عروقه وهو يغادرها إلى المطبخ . اتجهت نحو الممر . أيقنت أنه لن يكترث ، فعادت . وقفت بباب المطبخ . صمتت وانتظرت . " ألن تسلم علي ؟ " " ارجعي إلى زوجك ؛ رجل يدوس على رقبتك ، هذا هو ما تستحقينه ." " هكذا تستقبلني بعدما مات خالي نعمان ؟ " " كان لازما أن يقبروك معه . أنت ولدت ميتة ."

اقتربت منه حتى باتت المسافة بينهما أقصر من وردة . وقفت ، حاضرة مستمرة ، خافقة بالدعوات .

لن يستطيع فراس أن يفهم الهول المدوم في رأسها . ولن يمكنها أن

تفضي إليه بالخبر الكارثي . سيقول إن ابن شادية هو أول ابن حلال في العائلة ، لأنه البويضة الوحيدة التي تلقحت بالحب ؛ وهي لن تستطيع أن تتقبل هذا الكلام . وسيهز عروقها بالملامة والعصبية لأن ولداً مثل هذا ، لم يلد لهما .

" كيف حملت ، والمرحوم نعمان لم ينم معك منذ ستة أشهر ؟ " هكذا زمجر مهند بوجه شادية ، وهو يرغي ويزيد . وغرفت أصابعه الإسمنتية زندها البض فصرخت ألما . وراح يهزها ويسأل : " كيف حملت ؟ كيف حملت ؟ " وهوى كفه الآخر على وجهها يمين يسار .

بقيت شادية صامتة إلا من آهات الألم العاصية . تطوحت تحت كف مهند وكلاليب قبضته ، وسقطت . تحملت الرفس على نهديها وبطنها ، والركل على ردفيها وفخذيها . لم تفتح فمها بكلمة .

أما انفجارات الشقيقة فقد تطايرت من رأس نورما وفيه . كل شيء غدا مشوشاً ومريعاً . كان مهند مهنداً وكانت شادية تحدياً فاجعاً لجبن نورما البدر وصدقها وكرامتها . أوليست أنسجة هذه المرأة مثل أنسجة نورما ؟ لماذا يخلو عقلها من وشم مقدسات الآباء والأجداد ؟

كان الجنين يكبر في بطن شادية ، والفراغ يكبر في رأس نورما ، والمسافة تتمدى بينهما وبين فراس . لقد بلبلها هذا العاشق الأربد بانفعالاته وغضبه . إنها تجهد أسبوعاً كاملاً ، وتلتف منة التفافة على ظروفها وواجباتها لكي تلتقيه خلال ساعتين من صباح يوم جمعة . تأتي فيلطمها حزنه أو سخطه أو لهفته . . لغته وإلحافه . هاتان الساعتان هما ملاذهما ومنجاتها . تعيشهما بالثواني وثواني الثواني . وما إن تنهض للخروج حتى يكفهر وجهه ، وتلسعها ملامته وتذمراته . ودائما ينتهي بالقول : " كل حاجاتي لك

تدوسين عليها! تأتين كأنك جئت إلى البنك لتدفعي فاتورة . لا شيء فيك ينطق . لا شيء يوحي . ليس فيك لهفة ولا لغة . . إلا ثرثرات العجائز ."

حقيقة الأمر هي أن الحياة لم تعد تحدث لها مثلما كانت تحدث في عهد اليوم الرابع . إنها فقط تمر . أما الألق ، أما التبرعم والتفتح ، والمطر والشوارع والمساحات ، فهذه أخيلة . حتى تانك الساعتان تمران . إنهما تنتهيان قبل أن تبدآ .

وقد اختتم كل شيء عندما قال لها الطبيب ذات مساء : " الاحتمال أضعف من ضعيف أن تحملي بعد الآن . " كان ذالك فزعاً فضائياً . لقد استطاعت فيما مضى أن تصمد بوجه عقم مهند ، وتسلم أمرها لله . أما أن تصير هي عاقراً! أن يصير رحمها مقبرة لبويضاتها! فذلك هو الأجل الدامس المرعب الرهيب الأعمى . إنه قطيعة رعب مع جميع الأشياء الحية والآمنة في عمرها .

كان عليها أن تخوض نضالاً هادئاً عنيداً مضنياً لاستنهاض نخوة مهند في الحفاظ على شادية بدلاً من قتلها ، وفي التفكير في مستقبل الجنين بدلا من رفضه الأعمى كابن حرام .

أرادت العائلة أن تخلص من الأم والجنين معا . لم تنجح نورما في زحزحة أحد عن موقفه أو يقينه . حبسوا شادية في البيت إلى أن جردوها قانونيا من حضانة " ندوشة " وزياد بفعل " تغيبها " عن حضور المحاكمة . وبعدئذ فتحوا لها الأبواب والنوافذ لتخرج إلى حيث شاءت ، وتبتعد عنهم بعارها وشنارها . قال مهند : " زياد وندوشة يعيشان معنا ." لكن أم بهجت رفضت كل نقاش في الموضوع . إنهما رائحة نعمان ، وسيبقيان عندها .

وأحسست نورما بالراحة . طفلة في العاشرة ، وطفل في الثامنة! ماذا تفعل بهما وهما لن يقولا لها يوماً : ماما .

ثم سمعت صوتا يقول لها : شادية ستتشرد حتى تلد ، وبعدها ترمي الولد على عتبة من عتبات المدينة . وفيما مهند يعيد ترتيب الجمرات على نرجيلته ، قالت هي : " الطفل الذي في بطنها ، ما ذنبه ؟ " فزنخر مهند : " ابن حرام . هذا هو ذنبه ."

كان يهم بالإيعاز إليها أن تستحم وتفرشي أسنانها . التفت إليها وأدهشه أنها تبكي . همهم مستغربا : " لماذا تبكين ؟"

سألته بعينيها لماذا تقفون هذا الموقف من شادية . لقد منعتم عنها الحب . ومنعتم عنها الحرية . قلتم إن الزواج والأولاد هم كل شيء في حياة المرأة . تبين أن كلامكم غلط . كيف تكون امرأة سعيدة وهي لا يمكنها أن تتخذ قراراً واحداً . أنتم جنيتم عليها . أنتم أوصلتموها إلى الهاوية . . .

تمتم مهند : " يعني أنت لن تنطقي بأي كلمة! بكاء وصمت ، هذا هو حظي منك هذا المساء ."

لماذا بحق السماء لا تنهض وتتخذ قراراً مرة واحدة في عمرها ؟

" أنا بودي هذا الولد . " سألها مستغربا : " أي ولد ؟ " توغل العزم فيها : " ابن شادية . لم تعد العلة فيك وحدك . أنا ما عاد يجيئني أولاد . نحن لن يجيئنا أولاد . وأنا بودي هذا الولد . أرجوك . أبوس يدك . بودي هذا الولد . سأكون لك جارية ."

ابتسم مهند مشفقا : " هذا هو كل شيء ؟ يا ستي بودك الولد ، نجيء لك بالولد!"

نظرت إليه بارتياب . أهو يستدرجها ؟ أخبروه شيئا عن حبها لفراس نصار ؟ في أي لحظة سيكشف عما يعرفه ؟ ومتى سيعمد إلى مسدسه فيفرغه في رأسها ؟

قال : " سأكلف بعض عناصر الأمن ، يتابعونها ويجينون بأخبارها ."

تشاغلت بلملمة ملابسه عن الموكيت . هل قالت حقاً إنها تريد ذلك الولد ؟ وهل قال مهند فعلاً ما قاله ؟ جفلت من اقترابه منها . " أنا فعلاً أحكي حكي جد . أنا ما قدرت أعطيك الولد . خلينا نربيه معا ، ونكسب ثوابه ."

عندئذ أيقنت أنه قال ما قال .

عندما اقتربت السنة الثالثة لوفاة المدير العام من نهايتها ، بدا أن كل شيء قد عاد إلى نصابه في عالمه المحكم الوطيد . أقامت ندوشة وزياد مع جدتهما . وشادية طواها النسيان .

اثنان فقط تذكراهما وتتبعاها . منذ أوائل أيلول حتى الثامن والعشرين من كانون الأول ، يوم ولد ذلك الطفل أخيرا ، كان مهند يأتي بالأخبار ونورما تحولها إلى صور . قال لها إن شادية مازالت تعمل في فرع البنك في شارع كليمنصو . تنفست الصعداء . لاشك أن الله قد ضرب لها مثلا مأساة شادية ، لتهتدي وتؤوب إلى الصراط المستقيم .

التقت فراس بعد إعادة اكتشاف شادية . أعطته موجزاً انتقائياً للأخبار وسألته : " ما رأيك بمهند ؟ تصور كم هو نبيل!" ردة فعله الساخرة جعلتها تنكمش وتتجمد : " أنا لا أفهم لماذا هذا التأليه لمهند . هو لم يفعل غير ما يجب أن يفعله أي إنسان يمتلك ذرة أو ذرتين من الإنسانية . رجل عاقر .

ظل يجبرك على اللقاح الاصطناعي حتى صرت أنت عاقراً مثله . أين النبل في أن يسمح لك بتبني ولد ؟ وأيضاً هو بهذا يشغلك بالولد ليضمن أنك لن تحبي رجلاً غيره ."

رأت نفسها عاجزة عن الاستقبال والإرسال معاً . هي تعرف أنها تخون زوجها ، ولهذا السبب لا تشعر أن لها حقوقاً عليه . وتعرف أنه لاتلتقي فراس بقدر ما يشتهي قلبه وقلبها ، ولهذا لا تشعر أن لها حقوقاً عليه .

زنخر هو متابعاً : " هذا الشيء الذي ليس غير بند من البنود على لائحة واجباتك اليومية ، تسمينه حباً ؟ أنا أراهنك أن عندك شغلة تشتغلينها مباشرة بعد خروجك من هنا ."

في فورة عزم مستقل أعلنت أنها ماضية إلى السوق فعلا . عندئذ صارت نظرته سربالاً من الموت انسدل عليها . لم تر في عينيه غضباً ولا في وجهه ، وإنما بحراً راكداً لا خلجة فيه من اليأس والمهانة . أخيراً تمتم ورأسه يترنح يميناً ويساراً : " لا أقدر ، نورما . لا أقدر على الاستمرار ، وليس عندك لأجلي غير فتات وقتك ."

غمغمت تريد تأجيل الأزمة : " أنا لازم أمشي ."

أعطاها الهروب استغراقاً في صور " طفلها " المنتظر وتوهجاً في القلب . راحت تقلب الملابس الصغيرة الزاهية في السوق بنشوة تتفتح . هل سيكون الولد نحيلاً ؟ سميناً ؟ قصيراً ؟ طويلاً ؟ نحيلاً قصيراً ؟ طويلاً سميناً ؟ طويلاً نحيلاً ؟ قصيراً سميناً ؟ ذكياً ؟ مرحاً ؟ هل سيمشي في العام الأول ؟ هل سينطق ويتعلم اللغة ؟ . . .

فاجأتها يدها وهي تلامس بطنها وتمسح عليه . لقد أرادت فقط أن

تعرف أبعاد الولد ومساحاته . هل سيكون ذكياً ؟ حساساً ؟ حنوناً ؟ هل سيحبها مقابل العالم كله ، ويتعلق بها حتى الموت ؟

حتى مهند لم ير القماطات والملابس الجديدة . ولم يلحظ أحد التهجدات التي سرحت فيها وهي ترتب أشياء القادم الجديد ، وترمقها ، وتعيد ترتيبها ، وتنقلها إلى مكان آخر ، وتلمسها . . .

عشرين مرة اتصلت بفراس خلال أسبوع ، وهي لا تعرف كيف تجرؤ أن تزف إليه تهللات الأمل . عشرين مرة سألته عن إبداعاته الجديدة كأنها تسأله هل عثر على وليد ضاعت أمه . اعتذرت أنها لم تستطيع أن تواكبه في السنة الأخيرة . " لكن أرجوك لا تنقطع عن الرسم . ولا عن النحت . " وعندما شاء احتياجه إليها أن يفشي سر تمثاله رغم كبريائه ، هتفت هي بحبور : " أنا كلي تجاويف . معك حق . " غمغم : " لم أقل كلك . " قالت : " لكن تجاويفي ستمتلئ قريباً . اصبر علي شوية" .

أحست أن وليد شادية سيكون جزيرة صغيرة تعلو من قاع المحيط الأخضر الهائج ، وتحمل قدميها الحافيتين ، بحيث لا تغرق . ومن يدري فربما أمكن لهذه الجزيرة أن تمنحها القوة التي لم تملكها قط كي ترسل إلى فراس وداعاً نهائياً .

لقد قالت بصريح العبارة : " أنا لا أستحق كل هذا الحب ، ولا كل هذه السعادة . " لم تقل بأن ثلاث سنوات من الحب والفرح أكثر بكثير مما تتوقعه أو تحلم به امرأة مثلها ، وأنها بسبب ذلك صارت عبئاً . لم تقل إنها تعلم علم اليقين أن ساعة النهاية آتية لا ريب فيها . إن لم يكن غداً فبعد غد . أما وليد شادية فسيكون بداية لا تنتهي .

قالت لمهند وهي تقدم له فنجان القهوة : " لا أعرف ، لكن أعتقد أن

الله يعاقبنا نحن الاثنين لذنب مجهول . حرمنا الولد نحن الاثنين ."

رشف مهند بعض القهوة وقال باقتضاب : " شادية زارت الدكتور محسن أبو طالب . أخبرته عن وضعها وأنها تريد أن تترك طفلها لجميعة البر . . ."

شهقت نورما . لكن صوتها خرج ضعيفاً ومبحوحاً : " وأنت قابلت أبو طالب وحكيت معه ؟"

هز مهند رأسه بالإيجاب : " قابلته وهو موافق . وشادية تعهدت أن تتخلى عن الولد بعد الولادة . كانت ممنونة وسعيدة . الخلاصة ، بعد شهرين من الولادة يعطونك الولد . مبسوطة ؟ " لأول مرة في عمر زواجها تثب إليه وتعانقه وتمطره بالقبل . وفجأة ارتدّت عنه : " هل ستعرف شادية ؟" هز رأسه مرتين قبل أن يقول : " إطلاقاً . لن يذكر في قيوده أي شيء عن والديه . لقيط ؛ هذا هو كل شيء" .

تقرير مقتضب ، غير أنه جعل الرجل الرخو المتلهي بمكسراته ونرجيلته يرقى إلى مصاف الأولياء .

مضت ثلاثة أشهر بعد الولادة قبل أن يخبر مهند زوجته أن الأوان قد آن لرؤية الصبي ، وأن عليها الحضور شخصياً صباح يوم الجمعة إلى جمعية البر للتوقيع على أوراق تبنيه .

وكان الشتاء قد مر بغيوم وفيرة ومطر شحيح . تماماً مثل تلك الأسئلة التي ازدحمت في خاطر نورما وهي موقنة أن الوليد القادم سيملأ ليس فقط كل الدنيا التي تمتلكها ، بما فيها الوقت المخصص لفراس ، وإنما أيضا كل الاهتمامات والتكريسات والمشاعر .

الفصل الخامس

شقائق النعمان

أقبلت نورما . تأنت وهي تقفل الباب وتتقدم في الممر . رغم تمرينات عديدة ، لم تصل إلى " بروفة جنرال " لتكشف له أخبارها المصيرية . سلمت عليه ثم قالت : " طالعة بعد شوية عند أمي . مهند ما اعترض على أننا نتبنى ولداً من الميتم . لازم أخبر أمي . لم أقل لها ولا لأحد حتى الآن . الولد مثلما قلت لي أنت ذات يوم ، عمره أسبوعان أو ثلاثة . يعني مثلما قلت أنت سيربى معي وكأنه ابني . ويقول لي : ماما! من قلبه وكيانه . . . مالك ؟ هوو! أي شيء جرى لك ؟ "

كان عاجزاً عن الكلام . عضلات وجهه خفقت كالمرجل .

أخيرا تمتم : " حاسس كأن قيامة تقوم ."

" أنا لم أتوقع هذا الانفعال منك . أحببت أن أخبرك ، لأنه ، نوعاً ما لك علاقة بالموضوع ."

التفت إليها كضبع جريح ، فأفجعها . وفاضت كلماته وانهمرت : " نوعاً ما لي علاقة بالموضوع ؟ ماذا سيبقى لي من حياتك إذا جئت بهذا اللقيط ؟ أنت بدونه لا وقت عندك لي . . ."

" كنت أقول لحالي هذا الكلام . "

" كيف تقبلين بولد ابن حرام ، وترفضين طول ثلاث سنوات ولداً من صلبنا نحن بدعوى أنه ابن حرام ؟ أنت تدفعينني إلى الجنون . "

قالت : " سأحمل منك أيضا ، ويصير عندنا ولدان! وهذا أحسن . " كانت محاولة بائسة وخسيسة لجعله يهدأ . وبعدئذ : " على أي حال ، نحكي في الموضوع . حالياً أنا ماشية عند أمي . وبعدها نروح للميتم نشوف البيبي . أورفوار . "

بين سوبر ماركت العم سمعان والسيارة كان في جبينها منظر واحد : السرير المصندق الذي يتشعبط فيه ابن شادية . ولكن لماذا : ابن شادية ؟ لقد تخلت عنه وانتهى الأمر . إنه الآن ابن العناية الإلهية ، رسالة أرسلها الله لها ، ابنها هي ، ابن نورما البدر! لم تكن أم بهجت أقل سعادة . لم تنفعل انفعال نورما ، سوى أنها ارتدت ملابس الخروج بثماني دقائق . وعندما دخلت المرأتان الحوش الواسع النظيف المخصص للأسرّة المصندقة ، لم يكن في أبخرة نشوتها أي عكر أو خلل أو بطء . فقط دهشة خفيفة من كثرة أولاد الحرام في المدينة .

رأت شعرات قليلة ملتوية على جمجمة الولد المدورة ، وعينين منتفختين ، وفماً وذقناً وأنفاً كنقاط الحبر على ورق نشاش . التفتت مرتاعة نحو أمها ، وكان فكها السفلي يتدلى ويرتعش وعيناها تخضلان بالدمع . أسرعت أم بهجت ترفع الولد من سريره ، وقد أدركت أن ابنتها لن تملك القوة لفعل ذلك . قدمته إليها ؛ التقطته . جمد ذراعاها في الهواء . راح ذراعا الوليد المنمنمان يلولحان أمام وجهه ، فأمام وجهها ، ثم وصلت أصابعه المجهرية إلى أرنبة أنفها ، وعيناه رأتا عينيها : أجل رأتا عينيها!

رغم ارتياعها من أن تفلته يداها الهلاميتان ، نجحت في ضبط خفقان عروقها وأوصلت الجسد الضئيل القصيم إلى وجهها . وأخذت راحتاه تلطمان أذنيها وصدغها .

التفتت إلى الدكتور محسن : " ألم تر كيف ابتسم لي ؟ ولاعبني ؟ شف كيف يضحك لي . ويحرك يديه لأحضنه ."

ظلت نورما ابنة أبيها طول الطريق الحاشد بين الجمعية وبيته . هناك رمت جزدانها على كنبة فتدحرج على السجاد ، وهوت في حضن أمها وبكت . مضى ربع ساعة قبل أن تتمكن أضلاعها من التوقف عن الانتفاضات والنهنهات . قالت أم بهجت : " أول مرة في حياتك تنكشف عواطفك . " وقد حملتها بقية ذلك اليوم غمامة ندية بيضاء .

في الثامنة صباحا أيقظت فراس من نومه . " قم يا كسلان! " هتفت بحب وسعادة . بعد ديباجتها المثلثة أخبرته أنه لن تثنيها ظروف مهما كانت عن متابعة الشغل على الدكتوراه ، وعليه مساعدتها في القسم النظري ، لأنها ضعيفة في التجريد ولا قبل لها به . قال : " اتركي القسم التنظيري للآخر . بعد أن تبلوري مكتشفاتك النقدية ، وأطروحاتك ، وتدافعي عنها ، تعودين إليه . على ضوئها تكتبينه ."

" لا ، لا . أنا لا أعرف أمشي خطوة واحدة بدون فكرة تقودني . أنا لست مغامرة ."

" إذا بدأت بالنظري ، فيمكن أن تصلي حتى إلى أن سيزان وبراك اكتشفا النسبية في رسومهما قبل أينشتاين . لا تضيعي وقتك في هذا . بعد أن تنجزي الجانب النقدي التطبيقي ، خذي من النظري حاجتك . لماذا تضييع الوقت ؟"

سيزان و براك قبل أينشتاين! والنظرية النسبية! كم يفهم هذا الرجل الذي أحبته . " لا ، لا . أريد بيان الأطروحة الأساسي وإلا ضعت" .

«يا ستي! إذا كنت مصرة أن تلخمي حالك بالأفكار المسبقة ، أنت حرة .»

" أي أنا مصرة . أنا ملخومة خلقة ."

في آخر الحديث فقط قالت وكأنها لا تقول : " مرينا البارحة ، الماما وأنا ، وشفنا الدكتور أبو طالب . " لم يعقب بشيء . لم يستزدها الكلام كما أملت ، ولا هي تابعت .

كيف ستنقل له أخبار . . . ما اسمه ؟ ماذا ستسميه ؟ بأية أحرف ستنادي هذا الذي سيملأ ليالي شيخوختها القادمة ؟ سامر! سامر ؟ سامر .

تمتم فراس : " أنا عندي شيء أقوله لك . " جهامة صوته أكدت لها هبوط القيامة . تمتم : " بشأن هذا اللقيط . . . إما أنا وإما هو . وأنت اختاري ."

بعد صمت موتي قصير جاءه صوتها : " نحكي بعدئذ . أورفوار ."

صباح الجمعة جاءه هاتفها : إنها قادمة . بعد عشرين دقيقة شاردة استحم بسرعة ، وارتدى بيجامة بترولية أهدتها له منذ عام ، وكنس ممرات المرسم .

دخلت وابتسمت . وابتسم هو للفستان الذي كان هديته في باريس . كاشف عن النحر ، حيث بدت قلادة صغيرة تحمل تاريخ ميلادها وأحرف اسمها بالفرنسية ، هي أيضا هدية منه . يا للأعجوبة : لقد تزينت له! رآها قداساً للحب والأنس . لكن الصمت كان سيد فضاء المرسم ، ومثقلاً بيأس هادئ .

تكلمت نورما أولاً . قالت إنها باتت تخاف منه مثلما كانت تخاف من أبيها . أعلنت أنها لن تغفر له أن يمنعها من تبني سامر . قالت إن حبها للولد مختلف تماما عن حبها له ، والحبان لا يتضاربان . وإذا ما جاءهما ولد ثان ، لم تعد هناك مشكلة . وتشجعت أخيرا فأعلنت : " سواء قبلت أو لم تقبل ، أنا مصممة . . . " منعتها عيناه الضريحيتان من المتابعة . قالت : " أنت مصمم على أن أختار بينك وبينه ؟"

أخيرا نطق . قال إنها هي التي فرضت هذا الاختيار . رفضت طفلهما لأنه سيكون ابن حرام ، وهاهي تتبنى ابن حرام غيره .

صمتت . إنها لن تترك الولد إلا بشهقة موت . أوه! لو أن فراس يطرد هذا اليأس . كيف يخطر له أنها لن تجد وقتا لهما ؟ أو أنها يمكنها الاستمرار بدونه . " لكن لازم أمشي . " وخرجت .

المرسم وجمجمة فراس صارا فراغين أدهمين .

لن! لن ينتظر وقتاً يجيء فتقول له نورما البدر : " متأسفة ، زوج وطفل! لم يعد لك مكان في حياتي . " وتتركه مثلما فعلت في كيبيك .

هياج عقله بالمذلة والهوان دفعه للاتصال ليلاً . لكن أحداً لم يرد . رن الهاتف ورن حتى أوشك يوقظ الموتى . وبعد قليل أعطى صفيراً متطاولاً وانقطع .

كانت نورما في المستشفى العسكري . جلست على كرسي بلاستيكي في غرفة الإسعاف وقد طغى ذهولها على خوفها من الموت . مهند! يقع أرضاً! يعجز عن الحركة! ماذا يقول الرب لها ؟ بماذا ينذرها ؟ هل سيموت مهند مثلما مات نعمان ، لأنها زنت مثلما زنت شادية ؟

جاء الطبيب المناوب ووقف أمامها بأدب جم : " مدام ، سيلفوبلي . اشرحي لنا بدقة الشيء الذي جرى لسيادة العقيد . "

تشرح بدقة ؟ إنها لا تستطيع حتى أن تتذكر . رأته يعيا . يضع يده على طاولة السفرة لئلا يقع . كتم شهقة صغيرة ندت من حلقه . لكن ركبتيه تهاوتا . وقع! صاح . صيحة من نوع الحشرجة . أدركته ورأت قطرات العرق على جبينه وصدغيه . كان يتنفس بالتقسيط . وبعدئذ . . . بعدئذ انطرح على بلاط المطبخ ، وصار كتلة رخوة هامدة . جاءت سيارة الإسعاف ، وكان قد أفاق ، وبعدئذ جاءوا به إلى المستشفى .

خلال أيام استعاد مهند عافيته وعنجهيته . وفي السهرات العائلية شن على نورما حملات عتاب ساخرة للهلع والذعر اللذين أصاباها . اكتفت هي بالابتسام والتقبل . هذا الرجل الذي لم تعش معه فرحاً أو تحققاً ، ما يزال الذي يمتلكها والذي يتصرف بها . ما يزال حمايتها من تيارات فراس المجنونة الجارفة . ماذا كان سيحدث لو أن اعتلاله تفاقم ؟

كانت ستجد نفسها وجهاً لوجه مع فراس نصار . مع القلق والجموح والمغامرة والهجرة والتبعثر . لكنها كانت ستشكر الله .

لم يبد على مهند أن عارضا صحيا مريبا قد ألم به . فبعد خروجه من المستشفى أصر على أن تفرشي أسنانها قبل النوم عشرة أيام متتالية .

وكلما انقضت جولة من جولاته الليلية وأوشك عمرها أن ينقضي معها . قالت لنفسها : غداً سأدخل في شلالات فراس . استعادته مثل بيرق من الخلاص . ولكن لم يمكنها البتة أن تخبخب إلى المرسم وليس بين جسده وجسد العقيد سوى عشر ساعات . سيظل العقيد متهضباً على لحمها ، لاصقاً بمسامها . وستحس بالرخص ، بجسدها منتهكاً ومرذولاً ووسخاً بحيث

يستحيل على فراس أن يشمها ، وأيضاً يغسل المضاضة المهندة من ذلك اللحم المستباح .

لن يمكن لجسدها أن يلامس جسده ويشرب منه شهوة الحياة . اتصلت بالمرسم لتلغي موعدها . صباح الخير ، وكيف الصحة ، وما هي الأخبار . قال : " أفقت منذ السادسة . تحممت ونظفت المرسم كالعادة . وأنا بانتظارك ."

ماذا تفعل ؟ كيف تحبط هذا الحب ؟ ستقوم قيامته إذا لم توافه . سيزمجر ويرعد ويطالبها بأن تطلق مهند . وسيقول إنه سيغسل لها جسدها من لوث مهند . بينما لن يمكنه أن يفعل شيئاً سوى أن يجعل اشمئزازها واحتقارها لنفسها زرنيخاً يملأ رئتيها . " نصف ساعة ، " وأعادت السماعة .

عندما دخلت ووقفت أمام الكنبة ، أدركت أن الحبيب غير واع البتة بحضور الزوج . رأت عينيه تسرحان داخلها ، كأنهما تتعبدان لقوام نسموي . وعندما فتح ذراعيه ليختطفها إلى صدره ، اقشعرت خلاياها . أمسكت بيده وأجلسته معها على الكنبة .

لكنها وقد مضى نصف الساعة الأول ، ومد يده ليرتشف مياهها ويرشق بها وجهه ، أحست أن هاوية العلقم قد بدأت تنفغر . وعندما حملها أخيراً نحو غرفة الحب ، وعجز ذراعاها عن الالتفاف على كتفيه وظهره ، أدركت أن مهند قد جعلها جثة ، وأن جلدها مجلبب به .

للتو قطعت جميع علاقاتها مع جسدها . بدأ فراس يعريها ، فمدت يداً كليلة خدرة لتساعده .ومع كل ضمة من ذراعيه وبدنه ، تغلغل فيها غياب ونأي . حملها عارية إلى السرير ، فاجتاحتها رغبة سيلية في نوم فوري . وعلى الفراش جعل فراس ذراعيه ياطرين وبوصلتين ، فأخذ جسدها يفيق

ويتمـوج . امتلأ رأسـها بالرعب والقـيح . انفتح فج عـميق وأخذ جسـدها يسقط فيه شبقاً وانتعاشاً . وبقيت هي مشـرئبة فوق الفوهة ، تتفـرج على سقوطه وتمرغه وانحطاطه .

الفوق الذي أطل منه رأسها ، والتحت الذي توغل فيه جسدها ، أطلقا العنان للسانها . كانت أصابع فراس تتحسس الحرير الذي تحت سرتها ، حيث كان بطن مهند يضغط ويرتص قبل إحدى عشرة ساعة . أصابها الذعر من غريزة فيها عميت فأقبلت تلتهم ذلك الروث . لذلك فتحت مذياع حلقها وبدأت تحكي . تحكي وتحكي . عن الولد المنتظر ، وعن أمـهـا وأهلها وجاراتها وسميرة وميراي . . . تحكي وتحكي ، بلا نبرة ، بلا انقطاع ، بلا توقعات ، ببعض النهنهة ، وكثير من الاستغراق .

أخيراً وصل إلى حلقها طمي الوحل والروث . انساح من التحت وفاض على الفوق . للحظات غير مرئية ، أحست أن فراس قد جعل حريرها بساط ريح وحملها عبر المسافات . وعاد جسدها من غربته والتحم برأسها . لم يعد ثمة غير الزنبق وغمامة من روائحه . وشهقت : "مون ديو! مون ديو!"ولم تعد تتلمس وحلاً ولا روثاً ، بل انقشاراً لمهند النجار عن جلدها .

لكن تلك كانت لحظات فقط . في الحقوق الجنسية ، لا يعرف مهند النجار الهزيمة . لدى فواح الشبق عقدت يديها على حقو فراس لتشده إليها . تشده فوق رحمها وأضلاعها ، ليضغط على بقايا احتقاناتها ، وينفثها . وبعد ثوان تسلل مهند بين سرتيهما ، وانتشر الوحل والروث .

لم يكن ثمة بديل للحكي والحكي . همهم فراس :" قولي لي كلمة حلوة ." جوابها :" مثل أي شيء ؟" هتافه :" مثل الذي تقوله العاشقة لحبيبها . أنت لا تقولين لي كلمة واحدة عن حبك لي ." موضوعيتها

الخانقة :" لأي شيء الحكي ؟ أنت تعرف ." يضيق ذرعاً . يستدرجها :"أعرف ماذا ؟" تميل رأسها :" لا أعرف ." تدمع عيناه قهراً .

ثم الحكي والحكي من جديد . يجب أن تفر من أصابع فراس وسرته وذكره . لأن فراس ليس وحيداً . . ليس وحيداً . . فمهند ما يزال حاضراً ، مغمداً فيها كالسيف . . لأن الرجلين يتراكمان عليها ، يمارسانها معاً . . سوية . . .في وقت واحد .

أفاقت فقط عندما سمعت صراخ فراس :" أنت أي شيء ، أنت ؟ جسمي ملفوف على جسمك ، وأنت تحكين تحكين! أي نوع من النساء أنت ؟ جسمك منصهر في جسمي ، وعقلك ووعيك ولسانك مع السهرة التي سهرتموها البارحة! أي شيء أنت ؟ أي نوع من النساء ؟ يا أخي خذي مالاً ، وشاركيني حبي لك!"

لم يكن مهند ليحس هكذا بغيابها . وإن أحس اغتبط . غيابها يجعله سيد الصراع الوحيد .

انتفض فراس عن السرير . أراحها ابتعاده عنها . وبعد وهلة سمعت خبطة الباب .

خرج إلى السيارة واندفع بها . بعد قليل اكتشف أنه مضى إلى مكان آخر غير المجلة . عاد إلى مكتبه . هناك نسي ما كان عليه أن يفعل . جلس وحسب ، وعيناه لا تعرفان أين تستقران .

غير أنها اتصلت أثناء القيلولة . لم يكن لديها كلام تقوله . ومن ذلك الغور البعيد جاءها صوته الغاشم : " أنا أقول لك : وداعاً . لا تتصلي مرة ثانية . حفظاً لكرامتك . لأني واعدت امرأة غيرك ظهر الجمعة" .

انشكت مسامير نار في لحمها وصدغيها ،وطوال ثلاثة أيام كانت شقاء عرفته مرة واحدة من قبل : في كيبيك . مع فارق واحد ليس أقل من هلاك هو أن فراس نفسه يعترف هذه المرة .

في باكر الصباح كانت تفتح درج فراس في المجلة ، تضع فيه مظروفاً وتتركه مفتوحاً قليلاً : " . . . يوم الجمعة عشت عذابا لم أعرفه أبدا في حياتي . سأبتعد عنك كما طلبت مني ولكن أريد أن أقول لك أنك الرجل الوحيد الذي أحببته في حياتي وستظل الرجل الوحيد الذي سأحبه إلى الأبد . . . ستظل أنت في قلبي الذي لن يكون فيه مكان لأحد سواك . . . الحب إلى موافاة الموت . . . ستبقى أنت كل شيء جميل وله معنى في حياتي . . ."

طرقت الرسالة رأسه بالسعار والكره والمرارة . النذالة التي رآها فيها أجبرته على خربشة رسالة مضادة :

" . . . تزعمين أنك قبلت التضحية بعلاقتنا لأني طلبت ذلك كأنه كان لدي خيار آخر بعد تعاملك المذل الخسيس معي . الحقيقة أني أعطيك المبرر الذي تحتاجينه لتستمري في مشروع التبني الذي سيجعلك تتخلين عني . أكتب لك لأقول إن عباراتك العاشقة مضحكة ومبتذلة . تذكري أنك فضلت دائما العيش مع زوجك على العيش معي . حبك لي انسحار جنسي ولا شيء غير ذلك . عندما تشبعين جنسيا أصير عندك لا شيء . عجباً ، كم أنت محتاجة إلى تبرئة ذمتك وإراحة ضميرك من معاملتك الحقيرة لي طوال ثلاث سنوات . أنت ضحيت لأجل العقيد بالولد ، والشباب والعمر ، والحب والسعادة ، والصدق والحرية ، وبمواهبك وتعليمك العالي ، وأخيرا بخصوبتك إذ صرت عاقراً . وبعدئذ تختارين الذل معه على الكرامة معي . وتختارين أن

تطعنيني في كيبيك وفي كل مكان ، وكل وقت ، وكل حاجة أحتاجها منك . كم هو رخيص ومشلول هذا الحب الذي تزعمين بلا خجل أنك تحبينني . كم هو لئيم وخسيس هذا الأسلوب الذي تتبعينه لتبرئي نفسك من الجريمة والغدر ، وتحمليني مسؤولية القطيعة بينما أنت أجبرتني عليها . تمنيت لو مرة واحدة فقط في ثلاث سنوات جعلتني أشعر أني أفضل من أي شيء تافه في حياتك . . . أنت بشعة . . . بشعة . . . "

أقعدت الرسالتان صاحبيهما أسبوعاً عن حركة الدماغ . كل منهما قبع في واعية الآخر وملأ جميع الأمكنة .

كان فراس محمولاً على يم صاخب متهاو من الشقاء والكراهية . لقد أراد أن يغضب . احتاج إلى أن يغضب ، ويلعن ، ويراها بشعة وسافلة . لأن هذا الجدار من السخط والبغض كان مسنداً حماه من الانهيار ، من أن يرعبه فقدان نورما فيركض إليها وقدماه تدوسان على كرامته ورجولته وحريته .

ملأت نورما أوقاتها بألف انشغال لكي لا تجلس في الفيلا وتتذكر فراس نصار . في الثامنة والربع تخرج بعيد خروج العقيد إلى مكان ما ، إلى انشغال ما . وبعدئذ المجلة . ثم السوق . التسكع .

جاءتها الدورة قبل عشرة أيام من موعدها . لم يكن عزاء كافياً انشغالها بغرفة الولد . خزانة ملابسه البلاستيكية الشفافة . سريره المقضب الملون بالليلكي ، جدار ألعابه اليدوية والآلية ، وجهاز كهربائي يوصل أصواته الليلية إلى جناح الزوجية لكي تقوم إليه فورا .

وكان صوتها يخرج في العتمات باحثاً عن فراس نصار : أنا لا أقدر أتخلى عن سامر . . . شيء مثل هذه النار يندلع بين أضلاعي لأجله . . . لا أقدر أطفئه . . . بودي سامر . . . بودي هو مهما كان الثمن .

ثم تلقفت نوعا آخر من المطر ، هو إجراءات ووثائق انتقال سامر إلى الفيلا . وكالعادة ألقى مهند عليها بمهمات المتابعة .

تلقفت فراس مسارات مختلفة . " أنت أين ؟ أنت أين ؟ ألست في هذه المدينة ؟ " سألته ميراي بصوتها المجلجل الصداح . وأضافت : " جهز أوراقك اليوم ، وأنا سأدفع ثمن إرسالها بالفاكس إلى ميلانو . وجهز تمثالك المقطع للمشاركة في بينالي الحداثة هناك . معك أحد عشر يوما . أين أنت ؟ بعلمي نحن أصحاب . ويمكن أن نكون مفيدين لبعضنا ."

التقاها في اليوم التالي ، لإرسال أوراقه بالفاكس . أصر على أن تقبل دعوته للغداء . طلبت ستة صحون رئيسية . " لازم تشبع . صحتك محروقة ، " همهمت بعد انصراف النادل . " ودمدم هو : «صحتي! لم تحسبي حساب العلة التي ستصيبني بعد دفع الحساب ."

ضحكت : " صحتك بالدنيا! أنت تدعوني وأنا أدفع . قسمة عادلة . يكفيني أنك دعوتني ."

بعد مشادة وصخب اتفقا على تقاسم الدفع . " الآن يمكنني الاستمتاع بالأكل ، " وامتشق شوكة وسكينا فوق المادة المحتشدة . قالت : " احك لي . لماذا أنت نحيف بهذا الشكل ؟ وما الذي شغلك عن الناس ، وعن الندوة ، و ، و . . . حتى الكاريكاتير ، آخر أربع مرات ، لا ينفع . تعرف ؟ الذي يرى وجهك الآن ، يرتاب أنك تنوي أن تموت؟"

نظر عبر الشباك إلى البحر المخضوضر . لماذا كتب لنورما البدر إنها خضراء كالبحار ؟ ألأنها ستبتلعه يوماً داخل غابات قاعها الأناني ؟ كانت السماء كَدْماء .

لقد قامت ميراي بتحويل فكرة مجنونة إلى فعل عاقل : حجزت للسفر

معه . وكان تصرفها الغريب الوحيد أنها طلبت المبيت في غرفته بالفندق : " على السرير الثاني . هكذا أوفر نصف مصروفات سفري ، وأقض مضجعك ."

في الليل الأخير السابق للسفر ، جاءه عبر الهاتف ذلك الصوت وحوّل قلباً راكداً إلى مضخة مجنونة : " مرحبا! " وسكتت منتظرة ردة فعله . لم يتكلم ، ولم يرد الساعة . " سمعنا أنك مسافر إلى نابولي . " لا كلام . " لن تحكي معي . . . بودي أقول ، أنا لا أقدر بدونك ، وحتى سامر لن أفرح به . " فقط تهدج زفيره وصل إلى أذنيها .

" سترجع قبلما يجيء عيد ميلادك ، ما ؟ " أخيرا : " على الأغلب . " وصله فرحها قبل أن يصله صوتها : " بالسلامة إن شاء الله . نحتفل بعيد ميلادك سوية ."

لأنه لم يرد أسرعت إلى القول : " بعدك زعلان . " ولم يرد أيضا . هتفت بحيرة : " كيف تريد أن تكون علاقتنا ؟"

" نحاول أن يكون لنا ولدنا ، مثلما قلت ."

" مرسي! مرسي! أعدك . . . ممكن أجيء بكرة لأودعك ؟"

كانت سعيدة ومتهللة وهي تقفل وراءها باب المرسم وتتقدم من فراس . عانقته قبل أن تضع جزدانها على الطاولة . كل حزن ، كل شقاء ، كل يأس ، ينتهي عندما يمور بهما مكان واحد . كل جحيم يصير برداً وسلاماً وزنبقاً . مع قبلة الرمان أخذت تشهق وتؤمئم ، وتعلي صدرها نحوه بينما تدفعه عنها بيديها ، وتنبهر . كالعادة أجلسها بين رجليه . مد ساقيها عليه . وطوق ظهرها . أمسكت يداها بيده ، ونسيا المكان .

أين ذلك الانحرار ، والوحول الفائرة في أعماق البحر ؟

قالت : " الذي حدث لي البارحة بعد الظهر شيء لا يصدق . وهو الذي خلاني أتصل بك . غفوت ومهند يغط . وظهره منفصل عن ظهري . رأيتك تتمدد إلى جانبي ، أمام عيني ، على طرف السرير ، ومددت يدي عليك ، التصقت بي ومددت يديك على ظهري . أغمضت عيني وأرخيت شفتي . وأنت بستني واحدة من تلك البوسات . وأنا ، راح نفسي ، وصرت أشهق وأشهق وجنت! جسمي ارتاح بعد المجيء . عجيبة! خفت أن يفيق مهند على شهقاتي . عجيبة! لكن الآن لازم أرجع . " وكان هو حزيناً فلم تنكشف مرارته .

شعر بالارتياح ، وبالاحتياج أيضا ، لميراي وهي تربط حزام المقعد إلى جانبه وتمتنع عن التدخين . ماذا لو كان لدى نورما هذا النبع من الحرية ؟ ماذا لو تجتمع صبوات الطبيعة وحرية الروح ؟"

جعلته ميراي يتحدث عن نفسه طوال الرحلة . عن لوعات دفينة لا يوجد من ينصت إليها : اغترابه المتزايد عن أولاده الأربعة ، هذيانات في الجمجمة حتى أثناء المحاضرات ، وكآبات نفسية انتحارية تلف أمعاءه ورئتيه على مغزل ، وتدور وتدور حتى تجعل الموت شهوة في رأسه .

جعلته يتحدث عن ساندرا وسولين ، وقصتي الحب البتراوين معهما . وعن زوجته الثالثة التي تفتح عينيها كل صباح وهي متأكدة من عودته إليها صاغراً تائباً وطالباً للمغفرة ، لتنظر هي بعدئذ في أمر الصفح عن ركبتيه الراكعتين . لكن علة قلبه بقيت هناك : نورما البدر ، قدس أقداسه ولعنتها .

امتناع ميراي الصارم الأملس عن كل مقاربة جنسية في الفندق ، منحه مرجاً من الطهارة . " إذا كان منظري يحركشك ، أدر ظهرك ، أو أدخل الحمام ، " كانت تقول له وهي تنضو ملابسها في المساء أو ترتديها في

الصباح . ويجيب هو : " منظرك يحركشني فعلا . أنت امرأة جميلة التكوين . لكن لا يهمك ."

في اليوم الخامس أقبلت إليه بعد الظهر وراحت تهزه خارج قيلولته : " قم يا بني آدم! قم ، خلني أعانقك! " قبل أن يعي أي شيء سوى أنه نهض ووقف أمامها ، كان ذراعاها يطوقان عنقه ، وصياحها ينهمر على كل عضو في رأسه : " سبعمئة ألف فرنك فرنسي! ستدعوني اليوم إلى جميع خمارات ميلانو ومراقصها ."

استطاع لشوان قليلة أن يرفل في حس الرضا والغبطة بسبب ولائه الجسدي لنورما . إن بوسع الرجل أن يتقبل عناق امرأة دون أن يزني خياله بها! لكن ميراي لم تمهله . في الثواني اللاحقة أفهمته أنها أبرمت باللسان صفقة لبيع تمثال " الوشم " بما يعادل ذلك المبلغ : " الأرقام بالليبر الطلياني فلكية ولا يمكن اللحاق بها . " وها هي تنتظر موافقته .

جلس على طرف السرير بلا بهجة . يبيع " الوشم " ؟ تمثال نورما!

" إذا نحت تمثالاً واحداً هكذا كل خمس سنين ، عشت في بحبوحة طول عمرك ، وأحببت مئة امرأة ."

وهذه الجنية التي هدأت داخل ملابسها الزعفرانية تعده بمبلغ خرافي .

" لأي شيء تبقى في مدينة لا تعرف غير أن تهدم نفسها ؟ أي شيء يبقيك فيها ؟"

نظر إليها باضطراب : " لأني أحب موتي . هذا هو ما يبقيني فيها . شروشي فيها . عمري ."

" أووه! أنت تحكي مثل رئيس التحرير ونورما البدر . " ثم هتفت

بحنق خاثر : " في حياتي لم أعرف أحداً إلا وهو متخصص في تكبيل حريته . . . ماعدا غيرهارد . أهناك شيء أحلى من الغربة ؟ من أن تكون ما تريد ، برات خمسة آلاف سنة تركبك ؟ يا بني آدم! عمرك هو الذي ستعيشه ، لا الذي عشته!"

ارتدى ملابسه بسرعة . " يا الله نشرب شوية نبيذ . " احتوى ظهرها بساعده ، ودرجا معاً إلى كافتيريا الفندق . مشيا وسط أسئلة منه تزداد توترا ، وأجوبة منها تزداد امتقاعا .

جلست ميراي بوجه تخلى عن حيويته وإشراقه . خمن فراس أنها ربما تساءلت إلى متى سيبقى مدار حياتها مغلقاً . قدم لها النبيذ ، وآثر أن يجلس إلى جانبها وليس وجهاً لوجه . راقبها وهو ينظر إلى النزلاء الرائحين والقادمين . وطلب كأسين ثانيتين ، بعد أن جرعت الأولى على دفعتين ونقرت كعبها بحافة الطاولة .

قالت : " واحد يبدع هذا التمثال ، يتكلم عن الجذور . ليس في التمثال جذر عتيق واحد . كله غربة ونبت جديد . العيون ليست العيون والصدر ليس الصدر . . . الشكل الإنساني كله غربة في غربة . يا أخي احمل صدقك وارحل إلى باريس . لا تتركه يتعفن في مدينة متعفنة . أما آن لك أن ترى أن بحر الحضارات الذي ولدنا على شاطئه الشرقي ، كله كلبشات ؟"

نظر إليها باضطراب . من الذي يتكلم يا ترى ، ميراي أم صوت طالع من حشاشته ؟ تمتم : " خلينا ننتظر شوية . المعرض في أوله ، وقدامنا ثلاثة أشهر ."

غمغمت : " يمكن معك حق . يمكن إذا صادفه هاو حشاش

ومريش ، يشتريه بأكثر ."

لن يمكنه أن يخبر ميراي لماذا يتعذر بيع التمثال . إنه المرأة التي يحب ، التي لا يمكن بيعها .

لقد أحب نورما فخسر النساء وضيع العالم . وإذا خسر نورما فلن يمكنه استرداد النساء ولا العالم . وهو لن يبالي بحريته ، ولا بسعادته ، ولا برسمه . فقط يريد ألا يخسر نورما .

كان هناك هول ملأ قلبه . يجب ألا يكتمل هذا التصخر . إما نورما وإما الموت .

على الطرف الآخر الشرقي من بحر الحضارات كانت المدينة تقدم لنورما حدا أقصى من التضارب . خلال حوالي أربعين عاما عاش قلبها وثوبا واحد فقط خارج أضلعها . ذلك هو يوم 14-1 . كل حادث آخر حشر قلبها في حيز أضيق وأضيق ؛ إلا يوم قال لها فراس نصار إنه يحبها . يومها عرف قلبها المسافات . لكنه يواجه الآن تصادم الموت والحياة .

قال لها الدكتور أبو طالب أن الأوان قد آن لكي تأخذ سامر معها . لقد ألفها الولد رغم قلة لقائها به ، ولن يكون انتقاله إلى بيتها صدمة مؤثرة .

تناولته عن سريره دون شعور محدد . فقط خوف عاص وتوقعات مبهمة . كل شيء حولها حواجز أوقفت انبثاق مشاعرها . وفقط عندما سورت الوليد بصدرها وحضنها وذراعيها على مقعد السيارة الأمامي ، استطاعت أن تغمض عينيها وتفتح الأبواب لتلك المشاعر . لسوف تعطيه الحد الأقصى من الأمومة كي تستحق أن تكون أمه .

" افتح الباب على مهلك ، الولد نائم ، " همست لمهند ، الذي أراد أن

يصنع أكبر قدر من الضجيج لتتأكد نورما من سعادته بالعضو الثالث في العائلة .

دخلت فكف وعيها إلا عن التقاط أنفاس الولد و إرسالات بدنه إلى بدنها . خفقت ركبتاه ، ويداه اللتان ابتردتا . ولحظة وصلت إلى سريره الخيزراني المقضب ، كانت قد صارت شجرة خلخلتها رياح الخوف : هل ستنجح ؟

مددت سامر في سريره ، وغطته حتى ذقنه المنمنمة . ثم لفحته بنظرة ارتياح . ودثرته بنظرة حب دافئة خافقة . التفتت . كم هو عجيب ، مهند هذا! لا يدخل غرفة الولد ليرى كيف سيوجد فيها!

عبرت الدهليز إلى الصالون ورأت مهند ممدداً على رخامه البارد . هرعت إليه وهي لا تريد أن تصدق . نادته ودفعته بأصابعها المضطربة . لم يرد عليها . صرخت اسمه رعباً . ركضت هنا وهناك .

من المطبخ جاءت بكوب ماء بارد ورشقت وجهه . لم يرد . تذكرت الهاتف .

بقي مهند في المستشفى إلى أن عاد فراس . وبقيت هي أيضا . فقط عندما طمأنها الطبيب على نفاذ مهند من مباغتة الموت ، أحست بمادة كثيفة غير مرئية تنسل من سائر بدنها على الأرض .

في المساء الثالث ، كانت سيارتها العائدة بها من المستشفى مهجع أفكار وخواطر بديدة . كانت السيارة شبه مطمورة في شرانق المطر . شكراً لله قبل كل شيء . لقد نفذ مهند من الموت . وكان لوقوعه حسنة واحدة مؤكدة : إدخال خادم إلى الفيلا اللازم لها فيلق من الخدم . سيخرج مهند

من المستشفى ليجد أمامه أمراً واقعاً .

أجبرها المطر على تشغيل المساحات . وأجبرتها المساحات على أن ترى نفسها نورمايين تروحان وتجيئان ، فلا تفترقان ولا تلتقيان . ذلك هو تعبها وضنى روحها : لن يمكنها أن تترك مهند ، ولن يمكنها أن تعيش بلا فراس .

رأت سامر راقداً في عباب نومه : هذا هو المكان الوحيد الذي توجد فيه نورما البدر ، ولا يوجد فيه مهند وفراس . خطر لها الله :

هذا الرفيق القديم ، المجاور منذ الولادة ، الغائب الحاضر ، الذي خشيته وأطاعته مثلما فعلت مع المدير العام ، ولكن الذي لم تتحدث إليه قط . . . أحست أنه ربما أراد الحديث معها أو إليها .

لطالما قال المدير العام . " ولله في خلقه شؤون ."

أي شأن يكمن في أن ينزل المطر منذ ثلاثة أيام ؟ إن الله يريد أن يبلغها شيئا ، وهي عاجزة عن فهمه . أربعون عاما من العمر مضت وهي لا تخاطب الله . لم تسأله رأيه في شؤونها .

أوقف سامر نجواها . سمعت مأمأته عبر التمديدات الصوتية إلى الجناح . خبخبت إليه حافية القدمين .

كان يبكي . لماذا يبكي الوليد ؟ بحسب أم بهجت : إما لأنه جائع أو مبلل أو نعسان . هو جائع حتماً ، لأنه يبكي نائماً . هرعت إلى المطبخ وهيأت له حليباً . قرص البرد قدميها فأسرعت تنتعل ممشاة اللفاية . عادت إلى سامر . استقبلتها عند الدهليز أمواج جعيره . ركضت إليه حافية وملهوفة .

نام فنامت . ثم أفاق فأفاقت . هذه المرة كان مبللاً . كيف سيتحمل البرد ؟ هل سيصيبه رشح ؟ لا بد من تشطيفه . بدأت يداها ترتعشان وهي تحمله إلى حمامه . ماذا لو ضغطت أصابعها أكثر مما تتحمله أضلاعه اللبنية ؟ وماذا لو ترفقت في حمله فأفلت جسمه الهش من يديها ؟

لم يوقف اتساخه فيضاً من الهناء انساح فيها وهي تضع الأليتين تحت الماء الدافئ . والصابون الكثيف طبعاً . ثم المنشفة . ثم شفتاها وأنفها ، تشمه وتمصمصه حتى خصيتيه وشتّولته التي طهرت منذ ولادته . وكانت أمأمتها وصوتها يهدئان نعاصه وزعيقه ، وعقلها يثب خارج رأسها ويعود كلما ندت عنه حركت أو انبثق صوت .

غامرت بغرس الولد في نحرها ووجهها ومنخريها : قليل من البرد لن يضيره ، مقابل الهدوء الدافئ السعيد الذي ستتسوله منه . عادت به إلى سريره وهو مصمغ عليها . التفت يداه على شعرها . وتزحلقت ركبتاه على صدرها . يا للسماء! إن بوسع رضيع أن يمنح لذة شبقة ، خالية من العكر والعناء! قبلت أليتيه التفاحيتين وفركتهما بأنفها . وقبلت من جديد خصيتيه وشتّولته ونفخت رئتيها بهوائهما . ألبسته ووسدته . بدلا من الإغفاء ، أخذ يغني!

نبهتها عودة فراس إلى انشطار يومها بين زوج يستهلك نهارها كآبة وابن يستهلك ليلها نشوة .

لم يبق من نوبة مهند القلبية أثر بعد اليوم الثاني . واقتنع الأطباء أنها إنذار كاذب . لكن نورما حكت لفراس ذلك الحلم الغريب عن زوج هو مهند وزوجة هي نورما ، واقفين على جرف صخري شاهق ، وتحتهما بعشرة أمتار عمق البحر السحيق ، وفجأة هوى العقيد عن الجرف . . .

في فيض نشرة أخبارها ألقت بحصاة صغيرة : " أعطونا الولد من كم يوم . يوم وقع مهند . وأنا تعبانة ومكسرة . الله وكيلك ، يلزم له عناية لا تنقطع . وهذه الحمارة الخادمة ، لا تطش ولا تنش . إذا لم تجبرها جبراً ، وتبهدلها وتسبها ، لا تمد يدها لشغله . "

كانت ترتجف . . لم تستطع أن ترى وجهه عبر السماعة . هدوءه الذي أراحها في البداية صار نذيراً برعد مباغت . لقد نطقت بألف كلمة . وهي واثقة أن خمس كلمات فقط قد علقت بمخه : أعطونا الولد من كم يوم . وضعته أمام الأمر الواقع .

حدثته عن احتمال سفرها ومهند إلى باريس قريبا لتقطع الشك باليقين في أمر نوبتيه القلبية والدماغية . لكن الكلمات الخمس استولدت في ذهنه لقيطاً يكبر في ذلك البيت الجميل الذي هو نورما ذاتها ، ويتزوج فيه ويرثه ويأتيه أولاد . . . عندئذ غاص قلبه في وحل بحري واشرأبت منه ست أفاعي .

لم يعاتبها . عرفت أنه متفهم وصابر . " بعض الناس ، اليوم عيد ميلادهم . " وأجاب : " تقريباً . " قالت : " كل عام وأنت بخير . أنا طالعة للمستشفى . "

انطلقت شحنات عالية من الهوس والجنون في أروقة روحه . أهذا هو كل ما لديها ليوم ميلاده ؟ ألا يخطر لها المرور لبعض الوقت قبل المستشفى ؟ عبر لحظات ، صارت لغته داراً للسلاح . أليس من حقه وقت بين وقتين مكرسين للعقيد والطفل ؟ حقاً هذه المرأة حقيرة وذئبة وبشعة .

اتصل في التاسعة مساء . بوده أن يعرف ماذا تريده أن يفهم من امتناعها عن زيارته منذ عودته . هل هو تافه إلى هذه الدرجة ؟ هل هو كلب

مرذول إلى هذه الدرجة ؟ . . . تعبانة! تعبانة! . . . أين يمضي وقتها وراحتها ؟ . . . تتكلم بنبرة ؛ يتكلم متبركناً . يغلقان الخط بعصبية .

اتصل ثانية في العاشرة والثلث . اللغة التدميرية تفاقمت فيه ونزحت من دماغه إلى لسانه . ألا يستحق غياب أسبوعين ، على رأسهما يوم ميلاده ، أن تأتيه ولو للقاء عابر ؟ . . . إن الولد أنهكها ، وبعدئذ المستشفى وضرورة وجودها هناك أثناء مجيء الزوار . . . الولد ينهكها ، وعندها وقت له ؛ والعقيد ينهكها وعندها وقت له ؛ أما هو الذي يحبها فلا وقت له . . . هل ستكرر له أنها تعبانة ، هلكانة ، ولا تقدر ؟ . . . ولا حتى لعشر دقائق ؟ واليوم يوم ميلاده! . . .

" أنا لا أقبل هذا الكلام . ستدفعين ثمن معاملتك الحقيرة لي . "

" ما قصدك ؟ "

" قصدي أنت تتصرفين تصرفات خسيسة وأنت تدمرين روحي . "

" اهدأ شوية . ما هذا الكلام الذي تقوله ؟ "

" أنا هادئ تماما . وبكل هدوء أقول لك ، أنا سأحطمك مثلما تحطمينني . ثلاث سنوات الآن ، وأنت تذلينني وتحتقرينني . وأنا سأدفعك الثمن . "

" أي شيء تقصد ؟ تحكي عنا ؟ "

" تماما . ولزوجك مباشرة . سأنتظر خروجه من المستشفى حتى لا تصير له مضاعفات . "

" ستفضحني! "

" وفي المدينة كلها . سأقول لكل من يعرفك أية امرأة حقيرة أنت . "

" ستدمرني! "

" مثلما دمرتني أنت . ودمرت عقلي وحياتي . حتى أولادي لم أعد أعرف كيف أحبهم . حتى مرسمي لم أعد أعرف كيف أحبه . ولا كيف أرسم . ولا كيف أتواصل مع الناس . سأحطمك تماما ما دمت لا تجدين عشر دقائق لي يوم ميلادي . وتقضين وقتك مع زوجك والولد . لازم تعرفي أن حقارتك لن تمر هكذا . تحطيمك لحياتي نتيجته تحطيمي لحياتك . "

" والله العظيم أنا تعبانة . والله العظيم أنا منهارة . أشفق علي . "

" تعالي الآن . "

" أنت تعرف كم الساعة ؟ "

" الحادية عشرة . أو أدمرك . "

" أنا مرعوبة . داكور . ترونت مينوت . لكن ، عدني بلا عنف . "

كانت ترتدي فستان حوامل ذا ألوان بهيجة ، اقترن بعهد 14-1 . وكان وجهها يرتدي الخواء والامتقاع . فوقه تعلقت عينان مضروبتان بعروق الدم عند خصرة الأنف . لم يطلب منها أي توكيد ولا شروحاً . كلمته شروش الدم في عينيها .

ليتها لم تجئ هذه الجيئة الذليلة ، قال لنفسه . ترفض المجيء باختيارها ، وتحت التهديد تحضر كالعبد .

قالت إن دورتها الشهرية تأخرت سبعة أيام ، بدل أن تأتيها كالعادة قبل خمسة أيام . أرادت أن تتأكد أن كلماته المرعبة على الهاتف كانت

مجرد كلمات غاضبة . وأرادت أن تحس أنه لم يقلها وأنها لم تسمعها . وقال إنه لا يستطيع أن يعدها بشيء .

أخذت تتجشأ . وازداد وجهها شحوباً وتغيماً . نهضت إلى الحمام وراحتها تمسك بعنقها . لم يكن في معدتها ما تتجشؤه . أحست أن أمعاءها هي التي ستندلع خارج فمها .

التقطها من إبطها قبل أن يدرك ما يحدث لها بالضبط . كان انهيارها ثقيلاً فلم يستطع إيقافه بيديه . أوكأها على ركبتيه ثم حملها وعاد بها إلى الصوفا . مددها هناك وحشر تحت إبطيها طنفستين . أخذت تتنفس بخثر .

رأى نفسه همجياً تماماً . فتحت عينيها أخيراً وكانتا مثل ورقتي عنب يابستين لم يبق منهما غير عروقها الحمراء . " لا أعرف كيف أرجع إلى البيت . " واعتدلت في جلستها .

" أنا أسوق سيارتك ، ومن هنا أرجع بتاكسي . "

وافقت رغم خوفها : " إذا شافنا واحد من الجيران مصيبة . " لكنها لم تنهض . حاصرته بتطليعة منتظرة .

أخيرا غمغمت بعناء : " أرجوك يا فراس ، لا تقتلني . " صرخ : " أنت تقتلين نفسك . في لاوعيك تتمنين موت زوجك ، وفي وعيك تشتغلين خادمة وعبدة له . هذه الازدواجية هي التي تقتلك . طلقيه بدل أن تتمني موته! "

" أنا أتمنى موته ؟! "

" نسيت منامك ؟ أنتما واقفان على جرف صخري ، ثم هو يهوي ويقع في البحر . هذه إما أمنية كما يقول فرويد ، أو نبوءة كما يقول ابن سيرين . وهي أمنية ونبوءة كما أقول أنا . "

" الله يخليك ، فكنا من هذه السيرة . " ووقفت على قدميها .

" لا تهربي من نواياك ، نورما . لأنك جبانة وعاجزة ، لا تجرئين على طلب الطلاق ، تتمنين موت مهند . "

كانت الساعة الواحدة وبضع دقائق عندما أغلقت باب الفيلا وراءها ، وحوالي الثانية عندما دخل المرسم .

وكانت الساعة تقترب من الثامنة عندما هتفت له لتخبره بقدومها .

فاجأته سعادة رعناء . وإذن نورما ستفسح له حيزاً أوسع في حياتها ، وسيلتقيان أكثر وأكثر . لم تصل حتى التاسعة : " هذا الأزعر فعلها في آخر دقيقة . " ثم غاضت ابتسامتها ، وحضرت تطليعة منتظرة في عينيها . كانت ترتدي أحد فساتينها الكيبيكية تحت معطف . جلست على الصوفا . قدمت له قارورة عطر حلاقة . لم يعبأ بها . قال : " يعني أنت جئت لأنك خائفة مني ، لا لأنك تريدين أن نلتقي . الآن صار عندك وقت لي . " لم تجب . قال : " يعني أنت جئت ورجلك على رقبتك . لولا التهديد لما شفت وجهك . مجيء بلا كرامة . لكن أقول ، وصدقي كلامي ، أنا أحبك لدرجة أني إذا آذيتك في الساعة العاشرة ، فسأنتحر في العاشرة ودقيقة . "

هتفت من أعماقها : " شكراً! " رمت صدرها عليه وطوقت ظهره بساعديها . كأنه لم يهددها ولن . وكأنها لم تعبر أرخبيل الرعب الذي ألقاها فيه . وإذن فهي لن تنفضح وتخسر سامر . مسحت يده على ظهرها وخصرها . من قال أن شرخاً ملعوناً انشق بينهما ؟ لم يرغب في قبول الهدية : " أحبيني ولا تهديني . "

قالت : " بالأصل أردت شراء ساعة لك . تضعها في يدك ، كلما شفتها

تتذكر أني أفكر فيك . "

هز رأسه . لا للهدايا . " لكن أنت أهديتني منة هدية! " هز رأسه : " لأشتري اهتمامك بي . أنت خليتني أصير رخيصاً إلى هذه الدرجة . "

منذ زمن بعيد ، منذ سنوات ، ونورما تخرج من باب لتدخل أبواباً . ومنذ زمن بعيد تعلو بين الباب والأبواب حيطان ومسافات . ذلك الصباح خرجت من باب المرسم إلى باب المشفى ، فإلى باب الفيلا ، حاملة معها مهند الذي نصحه الأطباء بالامتناع عن القيادة لفترة ما .

سبقته إلى الجناح ، وتناولت البيجامة فقدمتها له . هز رأسه بالرفض : هو مرتاح بملابس الخروج .

أقبلت الخادمة حاملة سامر على ساعديها .

قال مهند : " هاتي يا أم عزيز الأركيلة ، هاتي . "

قالت نورما : " الأركيلة ، مهند ؟ نسيت وصية الطبيب ؟ "

" بلا وصية بلا بطيخ . أنت خفت ؟ أنا مثل الحصان . سيخاف مني أطباء فرنسا يوم يفحصونني ."

حملت الصبي ، الذي استغنى بوجودها عن البكاء واللهاية ، ومضت نحو المطبخ . يريد مهند أن يقتل نفسه . يريد أن يحقق غصبا عنها المنام المريع الذي هوى فيه أربعين متراً وغاب في البحر . فليموتوا كلهم ، مهند ، وفراس ، والمدير العام : سامر سيظل معها .

قبيل سفرها إلى باريس عرجت إلى المرسم . " كنت أعد جوازات السفر . لنا وللولد . الولد مشكلة . هات يا وثائق . وكل واحد يسأل من جانب . فضيحة . "

عرفت أنها لم تقنعه . " أنت دائما زعلان مني ؛ وأنا دائما مقصرة معك . "

أخيرا نطق :" الحب الذي لا يأخذه أبعاده في النفس ، يصير أفاعي إذا لم يأخذ أبعاده في الحياة . وأنا أحتاجك كل يوم وكل ساعة . "

وهي تعرف أنها لن تستطيع يوما إعطاءه أبعاده في الحياة . تحركت بين اللوحات والتماثيل . وتحركت بين أضلاعها شهوة الدكتوراه .

أوكأت مرفقيها على أحد الكراسي : " لماذا أعاملك بهذا السوء ؟ "

قال : " لأني أحبك . "

مشت إليه حتى واجهته . أمسكت بذراعه . قال : " بس ؟ " أبعدت جزدانها وعانقته بذراعها الأيمن . ضمها إليه : " بس ؟ " مدت ذراعها الآخر إلى ظهره . راح يحرك ذراعيه على جسمها ويشده إليه . شهقت طلبا للنفس : " كسرتني يا صبي! " انفك عنها قليلا . حدقت إليه : " لماذا أعاملك بهذا السوء ؟ "

"لأنك تصيرين معي خضراء كالبحار . لكن عملي حسابك ، إما نرجع إلى عهد 14-1 ، أو نفترق ."

" لا أخبئ عنك ، أحيانا يخطر لي هذا الخاطر . يا أخي أنا تعبت . "

" وأنا ما بودي الاستمرار على هذه الحالة . كلما انقطعت عني أصابتني حمم وهذيانات . أسوق سيارتي فأتيه في الطريق . أمشي على الرصيف فألطم بالمارة . أحمل الدف لأرسم فيستبد خيالك بي وتيبس يدي بالريشة . أجتمع بصديق ، فيقطع تذكري لك حديثي معه . أعطي دروسا فأخاطب الطلاب بلغة وأخاطبك بلغة ، في وقت واحد . أفكر في الموت وأشتهيه . إذا هطل المطر ، قلت أين أنت ؟ إذا أشرقت الشمس ، قلت أين

أنت ؟ إذا شفت وردة ، قلت أين أنت ؟ إذا شممتها . . . إذا شربت قهوتي . . . إذا سمعت موسيقا . . . إذا أمسكت بريشتي . . . قلت أين أنت ؟ إذا أردت النوم نصب خيالك حداً فاصلاً بين المخدة ورأسي . تعلقت في الفضاء . نورما ، أنا لا أقدر على العيش بعيداً عنك . "

كم امرأة يجب أن تكون لترضي هؤلاء الثلاثة ؟ تسنين الولد وحده يلخبط حياتها . إنه يعض حنكيه ويصرخ ببكاء حارق يفتت الأكباد . يحرمه النوم والراحة . بكاؤه يقطع قلبها . أهي تقدم لهذا العاجز البريء كل ما يجب أن تقدمه ؟ لقد عض على إصبعها من ألم فكه . وهو لا يأكل إلا من يدها . ولا يقترب من مهند .

كيف لها أن تتحمل هذا الجبل من التعب ؟ وكيف تعرف أنها لم تقصر بالأمومة تجاه سامر ؟

قالت لفراس : " أريد أن نفترق الآن . ظروفي لا تسمح لي بلقائك . "

" هذا أفضل من أن تهيني رجولتي وكرامتي كلما انتظرتك ولم تجيئي بسبب شغلة تافهة في حياتك ."

" اتفقنا . أريد ثلاثة أو أربعة أشهر . "

قبيل المغيب اتصل بميراي . " تعالي نشرب بعض النبيذ في الكونكورد . " ترددت قليلا ثم نبنبت : " أنت يا مدمر العلاقات العائلية . . . طيب . . . أنا وعدت أمي بقضاء المساء معها . . . يعني ، ساعة بالكثير . " وخمخم : " ساعة ونصف يا ستي . خلي أمك تكون راضية عليك . "

طاولة في الزاوية المنفرجة التي يصنعها التقاء شبك الشمال وشباك

الغـرب في الطابق الثاني من الكافتـيـريا . هناك قـبع مطوقـاً بقـوس البـحـر المصطدم شرقاً بالجبال ، والمندغم جنوباً بغبشة الغيوم البعيدة . مثله ، كانت السماء تختنق بغيومها .

قبل أن تجلس ميراي راحت تقول : " الآن بدأت أفهم حالة الذئب المتوحد التي يعيشها الفنان . ألاحظ من وجهك الآن أن الفنان الحقيقي ذئب بشري . فنه لا يسمح له بالاندماج مع أحد . حتى مع أولاده . وهو لا يمكن أن يحب امرأة إلا إذا ضحى بفنه . ولا حتى أن يضرب لها تلفون ويدعوها إلى الكونكورد . "

" وأنا أقول كم هو رائع أن يدعوها إلى الكونكورد . "

" وأنا أقول كم هو رائع أن تجد نفسها مدعوة من قبله . يكفيها أن تحس أن الفنان يحتاج إليها كلما ترك ريشته . "

تناول كأسه الثانية مع تناولها للأولى . كم هي رائعة لغة هذه المرأة! كان الهواء في الخارج سارحاً قوياً حتى ليكاد يرى . وأخذ يئز ويصفر وهو يتدفق في أخاديد إطارات الزجاج ، ليصل إلى هدأة مستحيلة دافئة .

قال فراس : " تعرفين ما هي آخر كلمات المسيح وهو على الصليب ؟"

" لتكن مشيئتك يا رب . "

" أنا أتكلم عن المسيح وليس عنك . "

" وأنا أتكلم عن المسيح وليس عن فراس نصار . "

" الذي أتذكره أن آخر كلماته هي : إلهي ، إلهي لم سبقتني ، أو تخليت عني . بإمكانك تصور المسيح ومشاعره في تلك اللحظة ؟ "

" أعرفها عن طريق دوستويفسكي . الذي قال : لم يكن المسيح نبياً ولم يكن ابن الله إلا عندما صلب . "

" والله جواب بليغ . العذاب هو طريق الوصول إلى الإنسانية . أريد أن أرسم لوحة تقول إنه يمكن أن نصل إلى الإنسانية دون سلوك العذاب هذا . أنا منذ شهر مصلوب مثل المسيح . معظم الوقت أردد : إلهي ، إلهي ، لماذا تخليت عني . نادراً ما أقول : لتكن مشيئتك يا رب . إلا في لحظات قصيرة ، خاطفة . عندما يفيض بي بلغم الموت . أي طعم يبقى للإنسانية إذا مشينا إليها حفاة على درب الآلام ؟ "

قالت ميراي فجأة : " أفهم هذا الشيء . وأنا أحس بك . "

هل أمكنها أن ترى على عظامه الناتئة وشم نورما البدر ؟

ثم قالت : " صدقاً ، أنا متحيرة من بقائك في هذه البلاد . " وبين الجد والعبث أضافت : " واضح أنك في منتهى التعاسة وأنك محبط حتى الانهيار . هاجر إلى باريس . وخذني معك وكيلة لأعمالك . أنا أسوّق لوحاتك وتماثيلك ، وأنت تعطيني نسبة مئوية . ونسكن معا ، طالما نحن مرتاحان من الضغوط . ستكون غنياً بلمح البصر . وسأجد عملاً إضافياً لي في جورنال أو مؤسسة صحفية . ما رأيك ؟ "

" وإذا زارك صديق فرنسي أو برازيلي ذات يوم ؟ "

" يكون حالي مثل حالك إذا زارتك فرنسية أو برازيلية ذات يوم . "

أفاقت نورما بوعي سعيد أنها لن تخرج إلى وزارة الداخلية ، أو جمعية البر ، أو السفارة الفرنسية ، أو المصور ، أو بانك ناسيونال دو باري ، أو مختبر التحاليل ، أو المشفى العسكري . . . لقد أكملت كل شيء .

كان عليها أولاً أن تشكر الله على قطيعتها مع الرسام . لو سقط مهند وقضى نحبه ، لكانت علاقتها بفراس هي السبب : لقد مات زوجها وهي تخونه . ويوم تعود من باريس ، سيكون مفعول القطيعة قد تراكم وصار جبلا . عاد مهند إلى الكلام فتفجرت زوبعة من الظفر . إن تمردها على فراس نصار هو أطهر ما فعلته منذ سنين .

في الثالثة بعد الظهر كانت ومهند وسامر يضعون الأحزمة حولهم في مقاعد الطائرة . عناق الوليد ، والقبل التي اختلستها منه في غفلة من ركاب الطائرة ، أعطياها حساً بالبرء من الرسام . حقاً إن حب المرأة الأول ، بل الوحيد ، هو ابنها . ابنها ، أجل . إنها أحق به من شادية التي بلا أخلاق ، التي رمته لأرصفة الرحمة والمصادفة .

أيقن فراس أن المرأة التي أحبها مصممة على إذلاله : تسافر ولا تقول حتى وداعاً .

وكان ذلك كافياً لأن تتقاطع النار في دماغه وأحشائه . في ثوان قليلة أنشأ سيناريو كاملاً عن زيارة يقوم بها للعقيد في الفيلا بعد عودته من باريس . عندئذ فقط استراح . هذه المرة سيدمر نورما البدر فعلاً . سيجعلها تحمل أثداءها بأصابعها وتعوي . كل فكرة أخرى عنها اندثرت . كل صورة وشعور وانتباه . استقر ذهنه على دقيقتين أو ثلاث ، جملتين أو ثلاث يقولها للعقيد . فقط إذا لزم الأمر سيصف له تفاصيل الفيلا غرفة غرفة . ولا شيء آخر . لن يكون السيناريو سبباً في سقوطه من ذلك الجرف ، وإنما نورما نفسها : بخيانتها المزدوجة ، ومساومتها ، ورخصها ، وحقارتها ، وخستها ، وأنانيتها . . .

في الأيام الثلاثة الأخيرة ، توالد سيناريو بديل أقل وحشية وأكثر

تشفياً . لسوف يجبر نورما على صفقة : تجيئه في وقت تحدده هي وتلتزم به من كل أسبوع ، مقابل امتناعه عن زيارة العقيد . فقط سينام معها – ويصرفها . ذئبة حقيرة من هذا النوع لا تستحق سوى معاملة من هذا النوع . إنها هي التي حقنته بالسم والعلقم ؛ فلتتحمل كأسا منهما .

أمكنه هكذا أن يتمدد على الصوفا أخيرا وينام ست ساعات ، وأن يستقبل بعدئذ ميراي ، ويزغرد لجنونها الذي أحضر معه مكنسة كهربائية . " أنا مجبورة بك . لا أقدر . يلزمك شيء من المدنية في هذا البيت الذي لا تدخله امرأة ، قبل أن أشحنك إلى باريس ."

همت بممرات المرسم وغرفة النوم . خلال دقائق كان المرسم قد صار منزلاً واكتسب رونقاً مفاجئاً . وتندى جبين ميراي بحبيبات لامعة . " المرة القادمة أنظف لك مطبخك الفظيع ." نظر إليها وهو يحمل صينية القهوة ،وداهمت مسيلات الدمع والدم عينيه . قبل أن ينزل حمله ، أخذت شفتاه تلملمان الحبيبات اللجينية عن جبينها .

قالت ميراي وهي مغمضة عينيها للثماته الامتنانية : " شايف ؟ ومع ذلك لا نقدر أن نحب بعضنا!"

في تلك الأيام الأولى من تموز كانت نورما متشعبة في عالم آخر – عالم الممرات البيضاء والملابس البيضاء ، والمخابر والعقاقير ، وتمضي وقتها بين مريض ورضيع . لطالما استمدت فرح حياتها ومعناها من نكران الذات . وهي الآن تشكر الله أنه منحها فرصة للاغتسال ، وارتداء لبوس الأيام القديمة . تسهر هي لينام سامر ومهند ، تتعب ليرتاح الاثنان . تنظر إلى مهند المتمدد ، وتتذكر . ليست ذكريات باهرة على كل حال ، لكن هذه هي حياتها . ومهند هو كل شيء راسخ فيها . ومستحيل أنها تتمنى

موته . . . وتنظر إلى سامر وتعيد معه اكتشاف الحياة .

وضعها التفاني على أفق الراحة و النقاء . أعطى لجسدها إجازة من الذل والرخص عندها يجامعها . وضعتها عافية سامر في خضم الحياة الدافقة . لم يشأ مهند الاندماج في عالمه . أحبه ، ولاعبه أحيانا ، ولكن بلا ولع ، بلا أبوة . لقد تغير موقف فراس منه ، تقبله ، تمنى لو يصير أباه . لكن مهند ظل يراه لقيطا غير قادر على انتزاع الحب . بقي يتفرج عليه ويبتسم .

غادر الثلاثة باريس ، وكان ظل أسود يغطي وجه مهند وعينيه . فالأطباء خمنوا أن في عضويته جسيمات تعمل ضد سلامته وهي التي عليها أن تحميه . وهي تستوطن الجهاز العصبي وتسبب تعطله : شيئاً يشبه انقطاع التيار الكهربائي .

إن مهند مسكون بالموت . تلك هي الحقيقة . لم يسقط عن الجرف ، لكنه مسكون بالموت . كيف يقول فراس إنها تتمنى موته ؟! مهند القوي المهيمن ، الصانع الكبير لأمان حياتها واستقرارها ، مليء بإمكانات الدمار الذاتي . كل شيء في بدنه قادر على أن يدمر ذاته . لا عجب أن الطبيعة حجبت عنه عطية الإنجاب .

إن شيئاً ما ينبلج من العالم الذي رحل عنه المدير العام . شيء فاجع . وهي لا تدري كيف تقرؤه .

التقى هذا التداعي الواجع في صباح يوم تموزي مع هذيانات فراس نصار وانفجارات دماغه . في السابعة والنصف اتصلت . صباح الخير وكيف الصحة . . . لم تحسب أنه سينسى خطر الهاتف الرهيب وينفلت ذلك الانفلات . من مكان سحيق جاءها صوته الجنائزي : " أنا أموت . أنا في حالة أسوأ من حالتي يوم ميلادي . رجاء ، اعملي شيئا ينقذنا نحن الأربعة .

" مسافة الطريق . أمسك نفسك . " وأعادت السماعة . عليها أن تكون قوية ومتماسكة . ألم يقل لها فراس أنها " فوطبيعية " ؟ إذا تداعى عالم المدير العام فإن ابنته ستظل واقفة . لبست فستانها الفسيح المتضاعف ، ذا الألوان الزاهية . ورمت على كتفيها شلحة . وبعد سبع وعشرين دقيقة التقيا في أحد الممرات بين التماثيل والطاولات . إنه يطلق نظرة غربة ووحشة . يتأمل بشرتها المرتخية عند العنق والنحر ، ووجهها المتهدل . يراها شبحاً .

لم يطل توقفها . تعانقا . غير أنها لبرهة صاعقة رهيبة أحست أن ذراعيه يبستا ، أن عينيه تريان شخصا آخر . فك ذراعيه عنها وأمسك بزنديها العاريين . ظلت ملتصقة به ، خائفة . شدها عنه إلى الخلف . قاومت . لكنه أبعدها . بقيت يداها على كتفيه . رأت عينيه إشارتي استفهام ، تجهلان من هي ، وتخفقان بالوحشة والعدم . " أنت نورما ؟ " سألها فاغر الفم . هزت رأسها بالإيجاب هزتين . وخيل إليها أن هذا اللامعقول تلاشى إذ عاد يصمغها بصدره من جديد . وضع وجهه بين وجهها وكتفها الأيسر ، وكذلك فعلت هي . هي بالتأكيد نورما .

بدأت أنفاسه تتسع وتسرع وتتضخم . سمعت نورما صوتاً هو بين الشهيق والحشرجة . كأنه احتاج إلى أن يضخ دماً لعشرين قلب أخر يملكه . ولم يعد هناك ما يكفي من الدم ولا من الأكسجين . شهق وشهق وصار شهيقه يملأ المرسم ويطفو على اللوحات والتماثيل والجدار الزجاجي ، وعنقها وصدرها .

صرخت : " دخيلك! أي شيء صار لك ؟ "

انفك عنها . لم تفلت يديها عنه . كان ما يزال يلهث ، وصدره ينتفخ مع لهاثه وينفرغ ، ينتفخ وينفرغ . كذلك حلقه . صرخت هي وناحت ، ونادته وسألته : " آخذك للطبيب ؟ استدعي لك طبيباً ؟ " ثم أعولت : " آخ يا ربي! كنت بواحد صرت باثنين . " ثم : " خلني آخذك للطبيب . "

ظل يشهق ويلهث . ابتعد عنها بقوة هياجه . يداهما فقط بقيتا متماسكتين . عبر لهاثه خرج صوته : " لا تخافي . . علي . . قلبي قوي . . تعالي . . نجلس . " استدارت نحو الهاتف : " خلني أتصل بالطبيب . " شدها إليه . مشى بها نحو الصوفا . جلس .

توقف الشهيق المبحوح من لهاثه . هل سيسكت قلبه أيضا ؟ أرادت إيكاءه على حضنها وتمديده على الصوفا . " اقعدي . . في وضعك الطبيعي . . المعتاد . . وخليني . . أمدد . . رجليك على . . رجلي ونجلس . . كعادتنا . "

منعته من الكلام كيما يلتقط أنفاسه . وكالعادة لم يشك مخزون أخبارها من أي نقص : البيبي الذي يستغرق وقتها ، لا يرضع إلا وهو على صدرها ، وبالتالي يمنعها من حديث الهاتف ، يفيق من نومه إذا تلفنت . . . ثم العقيد : إنه يتكلم الآن عن احتمال صرفه من الخدمة وبقائه عالة عليها ، ويندم لأنه منعها من الحصول على الدكتوراه . . .

" لماذا تيبس وجهك ، " سألته خائفة من تجدد نوبته .

" كنت أتمنى أن يطيب من مرضه ويخلصنا . "

" كيف! ؟ أنت جنيت ؟ إذا طاب تعقدت مشكلتنا أكثر . "

كيف خرجت من شفتيها تلك الكلمات ؟ نظرت إلى فراس نظرة

متلبسة بالصمت والجُرم والرجاء .

قال فراس : " إذا ساءت حالته ومات . . . "

" أنا لم أقل أنه يموت! أنت جنيت ؟ "

" ليس لكلامك معنى ثان . كفاك تمثيليات . لكن نحن نريده أن يشفى . وعندها نصارحه بالحقيقة فيطلقك ونتزوج . هذا هو الحل الوحيد . حبك وصدق حياتك معي أنا . وأنا أريدك ، طول حياتي وملء حياتي . "

" أنت ترعبني . تميتني رعبا . أوقف حبك لي عند حد . الآن ماذا أفعل ؟ أوه! والله رحت أنسى" .

فتحت جزدانها وأخرجت منه علبة . أخرجت من العلبة ساعة يد . " قلت لك عنها من قبل . صحيح مضت خمسة أشهر على عيد ميلادك ، لكن من الآن فصاعداً ، هذه الساعة ستقول لك كلما نظرت إليها إني أفكر فيك" .

رشرشته الغبطة وهو يثبت معصمه الممدود ليديها كي تضع الساعة حوله . جمجم : " من يقول أنك ضعيفة باللغة العربية ؟ والله كلامك أحس إهداء سمعته في حياتي . " ضحكت ضحكة مذنبة : " اسكت . صار لي عشرة أيام وأنا أتمرن عليها" .

أخرجت من جزدانها صورة سامر وقدمتها له . راقبت انفعالات وجهه المتقطعة . قال : " ولد قبيح . أنا أحلى منه . لكن يحدثني قلبي أننا سنعيش نحن الثلاثة سوية . " همهمت : " الله يخليك ، لا أريد أن أفكر في هذا الشيء . " وأضافت : " فراس الله يخليك! خلنا نتوقف قبل أن يعاقبني الله عقوبة فظيعة على علاقتي بك . سأتقطع بينك وبين مهند" .

" هذا الحب الذي بيننا ، تفتكرين أنه لا يساوي عند الله شيئا ؟

تعتقدين أن الله ضد الحب الذي بيننا ؟ وأنه ليس سعيدا به ؟ أنت لا تعرفين الله ، ولا ما له في خلقه من شؤون . لا يمكن أن يكون الله ضد حب يلد الجمال والسعادة . لا يمكن . الله جميل ويحب الجمال . كوني متأكدة أن الله راض عنا . لذلك لا تخافي . بعدما يطيب مهند ، نتكلم" .

في الصباح ، وقد غادر مهند إلى رئاسة الأركان ، وقفت في منتصف الصالون تراقب سامر ، الذي راح يمسح البلاط بركبتيه ويديه . آه لو أن المشاكل تتوقف عند الأكل والنوم والنظافة . لكان معظم البشرية سعيداً .

يجب أن يبقى بينها وبين مهند شيء جميل وإنساني ، لأنها ستمضي معه بقية حياتها . يجب أن تبقى بينهما رابطة من نوع ما ، تبعد اليباس عن الروح . كيف ستمضي معه هذه الحياة إذا لم يعد يعني لها شيئا ؟ لقد توغل فراس في حياتها إلى أبعد مما تستطيع تحمله . شيء لا يصدق . بوسع هذا البربري أن يجرفها حتى يرميها على يم المحيطات . أليس هذا هو شأن برج الحوت ؟ ألم يناما معاً على فراش الزوجية ؟ إنها لا تصدق .

وأيضا الرعب المثلث من أن تنكشف علاقتهما ذات يوم . وتخسر سامر وتخسر مهند وأهلها وكل شيء . أربع سنوات من الحب ولا طمأنينة . كريات دمها البيضاء صارت بيضاء ليس بحكم الطبيعة وإنما بحكم الخوف . هذا الحب لقيط ، وهي لا تستطيع أن تتبناه .

أنهار أمومتها انساحت على أرض حياتها القاحلة وغمرتها بالماء والحبور والأمان . هي تعرف أن هذا اللقيط الحبيب هو الوحيد الذي سيبقى معها حتى وفاتها ، لأن علاقتها بفراس يستحيل أن تستمر في هذا البحر من الشلل والمخافة . إنها تضمه إلى صدرها وتشعر باستغناء عن مطلق مليار رجل .

غمضة عين أخرى ، وسفر مفاجئ إلى باريس .

" تسافرين دون أن أشوفك إلا خمس دقائق ؟! ؟! " غمغم فراس مذهولا .

" يا أخي والله لا أقدر! حرام عليك ، ارحمني!"

" قولي أن الولد دخل حياتك فخرجت أنا" .

كانت الزاوية الخارجية لعينيها مرشوشة بعروق الدم . وكان وجهها هرماً وعنقها متكمشاً . لكن البدلة الطحينية ذات البنطلون المنسدل أعطتها رشاقة وشفافية .

رفعت جزدانها عن ركبتيها ووضعته على الموكيت : " أنا مرعوبة رعباً من أن تنكشف علاقتنا . وتسمع جماعة الميتم ويأخذوا الطفل مني . إذا أخذوا سامر أخذوا حياتي . سأقتل حالي . لا أقدر على العيش من دونه . . ."

اخضلّت عيناها بالدمع . نهض فراس وناولها كلينكس ، ثم مسح وجهها بمنديل أخر . لم يتكلم ، فأبقى لها سجية البوح . بين البكاء والبكاء ، خرج الكلام والكلام : " هذا الولد غير حياتي . أعطاني شيئاً أعيش لأجله ، . أعطاني مستقبلاً ، لا تزعل . لازم تعرف الحقيقة . يعني إذا انكشفنا وأخذوه مني ، أقتل حالي . أنا خائفة . مرعوبة . وهذا يؤثر على علاقتنا" .

" أنا سأقول لمهند أن يطلقك بعدما يطيب . ونتزوج ويعيش الطفل معنا" .

" متى يطيب ؟ متى يطيب ؟ . . . آخ ياربي دخيلك . هو الثاني صار

يلخبط حياتي . لا أعرف كم مرة جئت إليك ، ورجعت من عند الباب ، لشعوري بأني أعطيك حبي وهو يظنني بريئة ، أو أني أنام معكم أنتم الاثنين ، وأحياناً في يوم واحد . وحتى عندما أدخل ، أدخل وشعوري معكر وغير طبيعي" .

شرد فراس قليلا . ثم تكلم بخفوت : " هذا الحب حق لك! بعد كل هذه السنين! كوني نورما وبس ، ترتاحي . كوني شجاعة واتخذي موقفا نهائيا . أنت تدمريننا بمواقفك الوسط . نورما ، أنت تساومين على حب يملأ كياننا منة بالمئة . هذا مستحيل" .

" معك حق . أنا موقفي غلط . يا أخي هكذا ربوني!"

" لا تجعلي هذه التربية قدراً . الحب حقك . الحرية حقك . السعادة حقك" .

" لا أقدر . أنا جبانة" .

" لو افترقنا ، كيف ستتحملين زوجك ؟ أربع سنوات الآن ، وهو خارج روحك . وعندما ينام معك وأكون أنا في مخيلتك ، كيف ستتحملين ؟"

" من قال إني أتحمل ؟ أنا أعيش في جهنم . نشكر الله ، من خمسة أشهر لم يقترب مني ."

اتكأت على صدره . أجلسها داخله بالوضع الأبوي . وضع راحة يده على وجهها .

" سأعطيك خمسة آلاف فرنك فرنسي . اشتري لك فستاناً من باريس ، هدية مني ."

رفضت وتأبت وامتنعت . ثم لم تستطع سوى الانصياع لإلحاحه

المهلك .

في المساء وقف أمام لوحة مستعصية ، وأحس بالساعة تزرنخ معصمه . كيف نسي كل إذلالات نورما وقبل هدية منها ؟ فك الساعة عن معصمه ومسحها . أعادها إلى علبتها ، فكأنه أعاد أفعى إلى وكرها .

في الضحى التالي فاجأها في (مواسم) وقدم لها جزداناً توشت قاعدته بالحرف الأول من اسمها : " خذي هذا معك إلى باريس " شهقت : " أنت مجنون! مؤكد أن ثمنه خمسمئة دولار! " وفيما راح يقول : " طبعا أنا مجنون ، وإلا كيف وقعت في حبك ، " جعلت هي تتأمل الجزدان وقد نسيت خوفها من دخول مباغت لميراي أو سميرة أو أي صحفي عابر .

لم يقل الأطباء في باريس شيئاً جديداً . وعندما دخلا الفيلا أخيرا ، جلس مهند على كنبته نهباً للقلق واليأس والضعف . وتساءلت هي : ماذا سيحل بهذا الذي كان دائماً اسماً على مسمى ؟

" تروح معي لنجلب سامر من عند أمي ؟ " يرفع حاجبيه بالنفي : " روحي أنت . " تتناول جزدانها : " تحتاج لشيء قبلما أمشي ؟ أعمل لك قهوة ؟ " فيرفع حاجبيه بالنفي . " على كل حال ، رشيدة في غرفتها . سأناديها لتبقى معك " .

في فيلا أبيها قبلت أمها قبلتين وحضنتها مرة واحدة ، ثم خبخبت في الصالون سائلة : " أين هذا الأزعر ؟ أين سامر ؟ " وعندئذ أقبل العم مرزوق وعلى حضنه الولد . أرادت أن تؤكد شيئا لأمها ، وللعم مرزوق أيضا ، فمدت يديها نحو سامر ودعته إليها بصوتها وأصابعها .

نظر سامر إليها نظرة فارغة . لم يرم جسمه السندويشي عليها مثلما

توقعت ، لتلتقطه وتتضمخ به . هتفت : " تعال ماما! أنا ماما ، ما عرفتني ؟"

مد العم مرزوق الطفل إليها . لكن سامر انقلب إلى الخلف وتعبط رقبة حامله . صاحت نورما : " سمورة! أنا ماما ، حبيبي! " ومدت يديها إلى أضلاعه . ازداد تشبثا بالعم مرزوق . لم يعد بوسعها أن تصدق أو تحتمل . انتزعته من الحصن الذي تمترس به . ناولته خشخاشة موسيقية . رفض الألوان والموسيقا ، وجعر . رمى جسده عنها باتجاه مرزوق ، ثم باتجاه الجدة ، التي اقتربت منه لتؤانسه .

تركت نورما سامر لأمها وبكت . " لأي شيء لا يجيء عندي ؟ يعاقبني لأني غبت أسبوعين" .

قالت الأم بنفي باسم : " هذا رضيع . أسبوعين ما شافك ، نسيك ."

" مستحيل ماما! نسيني ، قال! كيف ينساني ؟ هو يعاقبني لأني غبت عنه أسبوعين . تعال . تعال ، وحياتك لن أغيب عنك أبدا" .

نظر إليها سامر نظرة فارغة . وتأكدت أنه يعيد النظر في موقفه الفظيع ، وأنه سيكف عن معاقبتها في أية لحظة . هزهزت له الخشخاشة . لوحت نحوه . جاء .

هي تعرف . المحبون كلهم هكذا : يعاقبون ولكن لا ينسون . وعلى رأسهم فراس نصار ، الذي يتعامل معها بلا مغفرة ، ويزداد ضراوة كلما عجزت عن موافاته .

امتنع تواصل السماعتين أسبوعا . كانت صباحاتها منهوبة : تصليح سيارتها ، مرض أمها ، حرارة سامر ، انقطاع مهند عن كل نشاط ، تصليح سطح الفيلا وخزان مائه ، تصليح شقوق في جدران الفيلا . . . لو أنها

تستطيع أن تخرج نصف ساعة فقط لتشم الهواء على الكورنيش أو الجبل .

جلست تبكي . وتساءلت كيف غرب كل شيء . إنها لا ترى أحداً سوى ضيوف مهند الثقيلين السمجين . لا ترى شارعاً ولا مقهى . لا تسمع موسيقا . لا تدخل مكتبة . لا تكتب ولا تقرأ . لا تحضر معرضاً ولا ندوة ولا مسرحية ولا حفلة . لا تعرف هل الطقس صاح أم ماطر . أين مضى كل شيء ؟ أين اغتربت المدينة ؟ أين المطر ؟ أين الحياة ؟ أين فراس نصار الذي وهبها كل تلك الأشياء ؟ أين ذلك الحافز العنيد الذي حملها حملاً إلى مرسمه يوم 14-1 ؟ في أية شقوق اختفى ؟

شيء من هذا الأسى دوم في جبين فراس وهو ينتظر مجيء ابنته سوسن . فتح الباب إذ قرع الجرس ، ووجدها واقفة نصف مبتسمة ونصف مرتجفة : " الحمد لله أنك بخير! بابا أين أنت ؟ ما شفناك من ثلاثة أشهر! " لم يتكلم وإنما تعبطها وغيبها بين ذراعيه وصدره ، وقبل شعرها وجبينها ووجهها ، وأدخلها المرسم بين إبطه وساعده . " جرى لك شيء ؟ أنت مريض ؟ " أجلسها إلى جانبه على الصوفا : " بمعنى ما . أنا مريض شوية ."

هزهزت رأسها بما أرادته أن يبدو فرحا وشقاوة ، لكن صوتها تهزهز بعدئذ بالدمع : " نحن اتفقنا أن لا يحرمنا منك الفن ولا الحب . فيا ترى أيهما الذي حرمنا منك ؟"

ضمها إليه : " الحب هذا لن يدوم طويلا . أنا مضطرب وملخبط لأنها هذه المرة تجربة حقيقية . وألواني وإزميلي ، انقطعت عنها . المدينة كلها . الكلية والمجلة . أنا متغرب عن كل شيء . لكن هذا لن يدوم طويلا . أنا أناطح قدرا مناطحة غبية . "تناول يديها براحتيه : " لا تخافي سيكون لك مكان في جامعة باريس الرابعة . وكذلك عفراء" .

قالت سوسن : " أنت لم تنقطع عنا في المرات السابقة" .

" لن أنقطع عنكم يا حبيبتي . لكن خلينا نطلع ونفطر في فينيسيا . وبما أن اليوم سبت ، فيمكن أن نركب من هناك مركباً ونفوت في البحر . وبعدها نتغدى في البيكاديلي . وبعدها إلى الجبل ، ونبقى سوية حتى المساء" .

" ياي يا بابا! مرسي! لكن خلني اتصل بأختي عفراء لتجيء معنا" .

" إي طبعا . لكن لا تلمحي لها بشيء عني . عفراء لا تتقبل هذه الأمور مثلك ."

التقيا مع عفراء في فينيسا . وقد أصرت هي الأخرى أن تتناول وجبتها من الحب قبل وجبتها من الطعام . عانقت أباها وقبلته ، وتأرجحت حوله وهو يدور بها حتى توقف الجميع للفرجة وبقيت هي المتحركة الوحيدة وسط بهو الفندق الصقيل .

كانت المدينة تتأرجح أيضا رغم حركة المرور الخفيفة . مع الغيوم المجتمعة والمنقشعة ، أحس فراس بسطوع في تلافيفه الجوانية . تبارت سوسن وعفراء في سرد تفاصيل حياتهما البريئة الماتعة ، والتأكيد على ضحالة الشباب المتوددين لهما . جعلتاه مستمعاً من نوع يحصد المتعة الصافية . طول النهار ، مدى النهار ، والوجهان الصبوحان من صلبه يردان عنه رؤى الخراب الكالح في المدينة المترنحة . بين البحر والجبل ، تعاقبت صور الانهيار التي دمغتها الحرب على جسد المدينة ونورما البدر على روحه ، وانطلقت من سوسن وعفراء زنابق الحركة والحيوية .

من الضحى وحتى العصر ، ومن الميناء وحتى أدغال الجبل ، لم

يتزحزح وجه نورما البدر من خياله . طاردته ابنتاه بين الآجام والمنزلقات ، وهما تتفجران بالسعادة وهو يتفجر بالغرابة . ماذا يفعل مع هاتين المخلوقتين اللتين ليستا نورما البدر!

تمدد أخيرا على بساط من إبر الصنوبر ، وتوسدت عفراء زنده ، بينما جلست سوسن على ركبتيه . أحس برعشة اللحم والدم ، بخفقة للحياة مارجة ومختلفة . أحس أنه ينطلق معهما نحو المستقبل ، هو الذي يتأرجح في عامه الرابع والخمسين .

الأولاد أغلى موجودات الوجود . إنهم يبددون رعب الوالد من فنائه القادم . إنه ينظر إلى سوسن وعفراء ويرى الحياة التي غادرته مستوطنة فيهما . إذن هو مستمر .

عندما سمع صوت نورما على الهاتف صباح الاثنين أحس بالغربة : هذه هي المرأة التي ستدمر روحه . لم يكن صعبا عليها أن تلتقط العزلة من صوته المنطفئ .

" مالك ؟ زعلان من شيء ؟ " وبعد سؤال ثان تمتم : " أنت لا تنتمين إلي . ولاؤك هو بكامله للعقيد ولسامر . ليس لي" .

خرج صوت منها وهي مستغربة أنه صوتها : " الله يخليك يكفيني عذابي ، فراس" .

" كل أوقاتي عدم لما لا تكونين معي . وأنت دائما لست معي . ولا شيء له طعم إذا لم تكوني معي . لا الرسم ولا الأولاد ولا الحياة" .

" الله يخليك ، فراس ، أنا من كم يوم ممسوحة تماما . كل يوم خناقة سخيفة معه تسمني سما" .

" تحملي عاقبة اختياراتك . " وأقفل الخط .

كلاهما مشى نحو الشباك الزجاجي في منزله . شاهدا المطر المنهمر يصنع أشكالا وأصواتا وانسيابات ، دون أن تكون له علاقة بهما .

عادت نورما إلى الهاتف واتصلت . كان خطه مشغولا . بأية ساقطة يتصل الآن ؟ من هي العاهرة التي يتصل بها ؟

أحد الروبوتات أرسل لها أصواتا من داخل جمجمتها . إن مهند على وشك الوصول وهي لم تعد له بعد وجبة الغذاء . عليها أن تتخلى عن معرفة القحبة التي شغلت خط فراس .

تلك كانت ميراي . برقية من خمس أو ست كلمات ، واتفقا على اللقاء أمام الكارلتون . خمس أو ست عشرة دقيقة ، التقيا . تصافحا تحت المطر . تأبطت ذراعه وجرجرته : " يا الله نمشي على الكورنيش . " دمدم هو : " تحت هذا المطر ؟ مستحيل" .

جرجرته نحو الفندق : " معك حق . " وفي حانوت المنوعات ابتاعت معطفي بلاستيك بقبعتين : " والآن ؟ هل تمشي تحت المطر ؟ ستدفع لي يوم يحولون إلى حسابك مئة وخمسين ألف دولار بعد أن تبيع التمثال" .

وتلك كانت أخبارها . هناك معتوه من نيو أورليانز أحس أنه سيخسر معنى حياته إذا لم يشتر تمثال الفنان الخارق فراس نصار ذا الكتل والفراغات والأسلاك . وقد أرسل العقد موقعا بالبريد السريع ليوقعه فراس ويسمح لوكيله في ميلانو بإيداع الثمن في حسابه الذي فتحته له ميراي من مبيعاته الأخرى . وقد أرسل المجنون بخشيشاً لها ، خمسة آلاف دولار!

رفضت بعدئذ أن تنبس بكلمة واحدة . داخل شرنقتها الفارعة الشفافة

تخيزلت إلى جانبه وهي تتعبط ذراعه ، وانهمرت عليهما شرانق المطر فكان صوتها المهسهس المتوالي بديلا منعشا للكلام .

صعدا أخيرا في شارع . أفلتت يد ميراي يده وأحاطت بظهره . انتبه إلى أنه مع امرأة أخرى . أمسك بزندها الآخر . إنه بحاجة إلى زنار ذراعها مثلما هي بحاجة إلى طوق ذراعه .

قالت : " أحيانا أسأل حالي ، لو لم يمت غيرهارد موته الفجائي ، أكان حبنا ياترى حافظ على حياته ؟ "

كانت صحبتها ورداً لا يستطيع أن يشمه ، مطراً لبس ضده واقية أخيلة وذكريات . كل شيء إنساني وجميل ترقرق بينهما ، إلا الحب . هذا الصمت المدندن ، التخاصر الدفيء ، ومدينة تفتح لهما خرائبها وقلبها وطرقها .

عندما عاد إلى المرسم ورمى حذاءه الذي صار قارورتي ماء ، جلس أمام الموقدة وأضرم النار في أحطابها . كان واثقاً وهو يراقب الضرام المتمدمد في الحطبات أن الغوابر عبدوا النار لجمالها وزكائها ، ولهذا الالتهام الشره الذي تتسع به على حساب الأشياء اليابسة . وقد أراحه أن يزيدها ضراما . لقد تفتحت جوارحه بعد هذا المشوار ، فتفتحت جروحه .

لم تفهم نورما لم ألح فراس بفظاظة أن توافيه بعد الظهر أو عند حلول المساء : " قلت لك بعد الظهر لا أقدر . لكن لا أريد أن نصل إلى طريق مسدود" .

" تريدين الاستمرار ولكن بشروطك أنت . مئة دقيقة ، وفي الصباح . كل الوقت الباقي خال منك . كل مكان . كل خفقة ولهفة وحاجة ، تضيع لأنك

غائبة عندما أحتاج لك . ماذا تريدين أن تبرهني من عدم لقائنا إلا إذا كان العقيد في الثكنة ؟ أنك تخونينه نصف خيانة ، وهذه يمكنك تحملها ؟ أية أخلاق هذه ؟ "

" أرجوك لا تتكلم بهذه الطريقة" .

" سنتين وأنا أطلب منك هذا اللقاء . أترجّاك أن تجيئي يوماً على غير انتظار وتقولي لي : أنا مشتاقة لك . وأنت ؟ أبداً! تحبينني نصف حب . أوصلتني إلى جهنم الحمراء بأخلاقك هذه .

" أنا أريد أن أجيء من تلقاء نفسي . لا لأني مجبورة . أنت علمتني على الحرية" .

" يا سلام! الحرية ما ؟ لماذا لا تجيئين من تلقاء نفسك بعد الظهر ؟"

" لأني أريد المجيء بحريتي لا بضغط منك" .

" الله الله! إذا رجوتك أن توافيني بعد الظهر ، يكون هذا ضغطاً ؟ يعني أنت حرة في الصباح بس . وعندما يجبرك زوجك على أن تنامي معه! يغتصبك! أين تكون حريتك ؟"

" لا يهمني إذا لم أكن مع غيرك حرة . معك ، لا أريد أن أخسر هذه الحرية . ماذا يبقى بيننا إذا خسرتها ؟ تصير أنت مثل مهند . تصير مثل بقية الرجال" .

كانت منفعلة ومرتعشة على غير عادتها . " أحاول أن لا أغضبك ، تقول مراوغة وكذابة . أنا دائما خائفة منك . هذه عيشة لا تطاق" .

صمتت فجأة اللغة . أرادت ولم تستطع أن تقول إن حريتها تفنى عندما يعود مهند إلى البيت . همس : " لا تتصلي بعد الآن ."

الهدوء الضريحي الذي ودعها به هو الذي أقام مخاوفها القديمة من مراقدها . من تراه يعرف لماذا يغدو الحب مدمراً ؟

في الضحى الثالث التقته ميراي في المجلة . قدمت له كشفا جاءها بالفاكس لحسابه في بنك ناسيونال دو باري . " أعط لعائلتك خمسين ألفا ، واستأجر أتوليبه في باريس" .

هدأت الوحوش الناعرة في جوامحه وتطاولت . وفي المساء كان بوسعه أن يقول لنفسه : أفضل شيء هو أن أترك نورما البدر وشأنها . الانتقام حقير . سيمرغ حياتي وضميري وذكرياتي . وفي الليل كان يقول لنفسه : لماذا أجبرها على ما لاتريد ؟ لن يكون لأي عطاء قيمة ، إذا كان إجبارياً . يجب أن أحترم حريتها . يجب أن أدفع ثمن رؤياي التي مستها . وفي الصباح أفاق يقول : لن أقبل سببا ، كائنا ما كان ، يمنعها عن لقائنا ، نحن لا نقدر أن نعيش إلا إذا كنا سوية في جميع دروب الحياة .

وتقول نورما وهي تحدق في سقف غرفة نومها : أين راحت أيامنا الأولى ، عندما كنا نلتقي مثلما ينزل المطر أو لا نلتقي مثلما لا ينزل المطر ؟ وعندما كنا نهلل للغيوم ولنار الموقدة وللوحاتك وللحب وخربشاتي والدكتوراه . اتركني أراك عندما تكون رؤيتك رغبة تتسع في بدني وليست حبوباً مسكنة أتناولها حتى لا أجن . أنا ضعيفة . لا تطلب مني أن أكون قوية .

ويقول لنفسه : ما الذي يجعلني أتمسك بهذه المرأة الممسوخة ؟ كم مرة ومرة خرجت بسيارتي إلى منعطف أعرف أنها تمر منه إلى بيت أمها ، فقط لألمحها ؛ كم ألف مرة ومرة خلال ثلاث سنوات تقصفت ، جلست في أحد مقاهي الأرصفة ورحت أبحث في الوجوه عن شبه لها : في طرفة عين ،

في وربة كشح ، في لحظة موسيقا . . . وهي لا تعبأ ولا تهتم . . . وبعدئذ أتبدد ، وأتلبد ، ويمضي كل شيء سوى اللهفة المقهورة ؛ وكم مرة ضقت ذرعا بأولادي أن حبي لهم يشارك حبي لها . . .

وتقول لنفسها : هذا الشيء كبير كبير وأنا امرأة صغيرة ؛ الله لم يشأ إعطائي القدرة على تقبل السعادة والحب والحرية ؛ كل هذا الحب لا أقدر عليه ؛ وأنا لم أخلق للغابات وركوب البحار ؛ أنا مخلوقة لأشرب الماء من قارورة بلاستيكية ؛ لقد قال لي ذات يوم : مشكلتك هي صراع في داخلك بين امرأة صغيرة أرادك أبوك أن تكونيها وامرأة كبيرة خلقتها فيك الطبيعة ؛ يجب أن أعترف أني امرأة صغيرة ؛ حتى مهند ينتهرني لركاكتي في توصيله إلى الحمام .

قرارة ملساء من اليأس جعلتها تتصل للمرة الأخيرة ، وتخبر فراس أن العقيد مسافر إلى فرنسا بعد يومين في وفد رسمي . والقرارة نفسها جعلته يتأنى فيسمع ، أيضا للمرة الأخيرة ، إلى صوتها الواصل من وراء النجوم .

وجد نفسه يقول لها : " أنت مثل شجرة الزيتون . " أين كراهيته وقطيعته ؟

اندفع منها سؤال جذلان : " أنت تحب شجرة الزيتون ؟ " انتقل الجذل إلى صوته : " أحبها لأنها دائمة الخضرة . ولأنها رمز لكثير من المعاني الجميلة عند البشر . وسائلها الذي هو سائل الحياة ، زيت الزيتون ، لا يمكن الحصول عليه إلا . . . بالعصر" .

كانت ضحكتها رنانة وسعيدة . إنها تعشق أن تبدو متأبية متمنعة ، ويكون هو لاهفاً وراءها .

أعلن كلمات الحب فسخمت به أن يسكت ، وذكرته بقصة الصرصار . " لن تتغيري أبداً ، " قال لها . لوكانت الهواتف مراقبة ، مثلما يوهمك جنونك ، لعرفوا من سنين أننا نحب بعضنا . " هتفت : " هس ، ولا كلمة" .

من قال أنهما قبل قليل كانا اثنين من مرادفات البوار ؟

" هذه بشارة . أسبوع بأكمله ، نحن أحرار" .

" وأنا ناوية أصوم رمضان فيه ، ويمكن الشهر كله . هذا تراث في العائلة وأنا بحاجة إليه" .

" تصومين! وعني أنا ؟"

" هذا كله حتى أصوم عنك أنت . أنا أكرهك" .

مضى يوما الخميس والجمعة بلا هاتف . عند المغيب فقد الأمل ، فرن جرس الهاتف : " ثماني وأربعين ساعة ولا تتصلين! هذا شيء يجرح الكرامة" .

" أنا آسفة . وكرامتك على راسي . أنا آسفة فعلاً ."

اتفقا على اللقاء بعد نوم سامر الليلي . " الدنيا رمضان ولن نثير شبهة أحد ، " قالت .

عندما دخلت المرسم تلكأت في مشيتها نحو الصوفا . قال فراس وهو يضرم النار في الموقدة : " رجاء كوني لي هذا المساء بكل شوقك . " ابتسمت : " أنا لك . كل مساء . " صاح : " يا سلام! لو دائماً أسمع منك هذا الحكي . " أضافت : " لكني غير مشتاقة لك . أنا أكرهك . " ابتسم : " أريدك هذا المساء كلك ، مئة بالمئة . " أنذرت : " أنا لا أريدك . . . إذا كنت ستحبني حتى الموت . كذا مرة استغربت كيف بقيت على قيد الحياة

بعد حبك لي ."

بدأ طوفانها المكوكي حول شمعدان بعل . وساعدتها ذراعاه في الحركة المتناوبة .

كان الإيغاف وسع الأفلاك والمجرات . ثم ارتصّت على فراس تلك الارتصاصة الأخيرة التي أولجتها داخل إهابه .

تلاقت أصوات حلقه بدوي قلبها . واتخذ العالم هيئة امتداد مفعم بالسلام والحقيقة . جاء الانفطار ودرج ومرج وهرج .

بعد أن لبسا ثيابهما نبرت : " اليوم تأخر الوقت . لكن بكرة ، سنحكي في الدكتوراه . أنا لازم أكتب الأطروحة . وإلا سأبقى المرأة الصغيرة . وأنت ستساعدني . وأعدك أني سأبقى ابنة المطر . " وقالت لنفسها : كل هذا المطر يهطل إذا كان مهند بعيداً! ووثب خيالها نحو الجرف البحري : ألن يزور مهند جرفاً بحرياً وهو في فرنسا ؟

قال : " طبعاً سأساعدك ، لكن تعالي اسمعي" .

تماسكت يداهما ومشيا نحو الجدار الزجاجي . كان المطر يغسل الفضاء ويقرع أوراق الشجر ومصابيح الكهرباء . وقالت لنفسها : علاقتنا صافية ، مرتاحة : علاقتنا وسع العالم .

ليل لقائهما الثاني كان شيئا آخر . جاءت نورما في التاسعة . بأقل الكلمات ، اتفقا على الخروج معاً بسيارته ، هو أولاً ثم هي .

لأول مرة في حياتها تجلس إلى جانبه في سيارة يقودها هو . . . لأول مرة تغدو المدينة ملكاً نضيراً لهما معاً ، وليس بدداً لكل بمفرده . مثلما هطل المطر يوم ركبا سيارتها أول مرة ، انطلقت سيارته المقعقعة حتى

وصلت إلى البحر . . .

أحسا أنهما ولدان شرعيان لمدينة فتية عمرها خمسة آلاف سنة . إن لهما تاريخاً هو تاريخها ، ونسباً يرقى إلى تموز وعشتار . كل الشوارع كانت بيوتاً لهما .

اضطربت نورما أوائل المشوار ، لكنها بقيت سعيدة . ماذا إذا كانت عشرة آلاف عين تراهما وهما يخترقان الشوارع ؟ صارت الأعين مئة ألف إذ أمسك براحة يدها ، وراح يقبلها ويقلبها على وجهه . لم تفلح يدها في زحزحة يده . لكن صوتها نجح في إطلاق اعتراضاته وزجره : " واحد مراهق! نسيت عمرك وعمري ؟ أنت أزعر مراهق . " ومع توغل يده : " يازلمه استح على حالك! عمرك خمس وخمسون!"

تهادت السيارة على المنبسط الجبلي حتى المتر الأخير قبل الفج النازل فجأة نحو صخور البحر . شهقت نورما : " يا أخي أنت تعرف أني أخاف! وبعدها ، أنت نسيت منامي ؟ تريده أن يتفسر بك ؟ "

أمضيا بعض الوقت في نصف صمت ونصف كلام . جلسا في السيارة بين البحر والمطر والتراب . كانت أمواج البحر تشرئب من تحت فتلتقط أضواء المدينة ، ثم تهبط على العتمة ، تشرئب وتهبط . المطر فقط كان يقرع عليهما جدران السيارة الزجاجية وسطحها المرنان . أوقفا أصوات فيفالدي من المسجلة وأنصتا لتراجيع المطر . عندما يكونان معاً تكون معهما الأبدية .

قالت إنها تتمنى لو بين يديها فنجان قهوة . " تعرف فراس ؟ ست عشرة سنة! من يوم تركت دراستي في جامعة بوردو ، وأنا أتمنى أن أشرب فنجان قهوة من فوق جرف صخري يطل على البحر . هل تصدق ؟"

كان ذلك دافعاً كافياً لأن يرجع بسيارته ثم يندفع إلى شارع المعري . لم يكن في كشك الهامبرغر قهوة . انطلق نحو الكورنيش . كان المطر قد أفرغ الرصيف التليد من متمشوريه ، فأغلقت الأكشاك الخشبية . مطعم صغير فقط كان فاتحاً . وقد أبهج صاحبه الاسكندراني أن يقدم لها عبوتي قهوة مقابل دولارين .

عاد بالقهوة إلى نورما المنتظرة في السيارة وعادا معاً نحو الجبيلة البحرية . " أنا سأشرب قهوتي ، لاتزعل . أحبها ساخنة . " ابتسم وهو يقود السيارة بيد واحدة : " لا يهمك" .

مع وصوله إلى المتر الأخير من الجرف كانت نورما قد رشفت آخر جرعة من قهوتها . ركنا هناك والمطر رذاذ . عرض عليها مشاركته بعض قهوته ، فرفضت : " أحببت اشرب قهوة ساخنة ، وشربت . الله! أنا مبسوطة . شكراً . أنت إنسان جميل . لا أقصد شكلك طبعا . لا أعرف لماذا أتذكر أيام بوردو . ذكرياتها في رأسي مثل هذا المطر . وكلها أشياء صغيرة جميلة مثل هذه ."

" لأنها أيام الحرية . قبلها كان المدير العام ، وبعدها العقيد" .

" يا أخي أنت تقنص الحقائق قنصاً ."

" شوفي . نحن لم نذهب إلى مطعم فاخر ، ولا إلى مرقص عجاج . ومع ذلك نحن أسعد الناس ."

لم يتكلما بعدئذ إلا قليلا . وعادا إلى فيفالدي . بعض أخبار مهند ووضعه المستحيل . وهذا المجرس سامر ، الذي يزداد زعرنة كل يوم .

أخيرا : " لازم نرجع . قلبي مشغول على الولد" .

انطلقا على طريق شاءته أن يطول لدواعي " الأمن " ، في ذلك المنتصف من الليل . مسحت يده على فخذها وركبتها . نبرت : " كنت مد يدك ونحن عند البحر!" ضحك : " واحد منا على الأقل غريب . عشر سيارات وأكثر كانت حولنا . وأنا ظنيت لو مديت يدي لخنقتني ."

" لو مديت يدك لأخذت بوسة ."

" لو عشت مئة سنة لن أفهمك . لماذا لم تبادري أنت ؟"

" اسم الله عليك! أنا أبادر ؟"

في الليل الثالث جاءته إلى المرسم في حالة نادرة من الحب . كأنها أرادت أن تملأ أغواراً سحيقة نضبت عبر السنين . ومن ذلك الليل استقطرت الحسية المنعشة التي افتقدتها الليل الفائت . انتشرت بين اللوحات والتماثيل ، فكانت طائر نورس أفرد جناحيه ومط رقبته ، ثم هجع في الفضاء .

هتفت له بعد عودتها إلى الفيلا . قالت إن سامر في " سابع نومة . يا خسارة ، كنا بقينا سوية ."

" عندي شعور أن لقاءاتنا الرمضانية هي آخر لقاءاتنا السعيدة . في المرة القادمة سيقع انفجار ."

" إن شاء الله لن يكون انفجار . أنا لا أقدر أن أتخلى عنك ."

" بعدما يرجع مهند ، لن تعطيني غير واحد بالمئة من وقتك . مد الحب الذي عشناه سينحسر . وسيحصل الانفجار . أنا لن أقبل أن أعود وأنغرز في مستنقع ، أنق فيه كالضفدع لأطلب حبك وعشرتك . هذه المسكنات ، أنا قادر على الاستغناء عنها . والمرة القادمة ستكون الأخيرة ."

تمتمت بصوت غميم : " ثق بي هذه المرة . لن يصير انفجار . مهند لن يكون قدري . "

لكن الانفجار حدث . ليس فجأة ولا دفعة واحدة ، وإنما عبر اختناقات صغيرة ظناها كالعادة بلهاء ولا شأن لها . لم يحسبا أن النزيز الدائم يصير طوفاناً بعد حين .

عاد مهند مساء يوم الجمعة التالي كامداً . للتو اتخذ العالم في رأس نورما إحداثيات مختلفة . أصر على سهرة السبت .

حتى الثالثة من ذلك الليل كان مهند هو مهند القديم . لعب الورق ، ثم النرد . وتناقش طويلاً في السياسة . مضى وحده إلى الحمام وأكل كما يأكل الحصان . كان فارس السهرة بلا منازع .

في الرابعة صباحاً عادا إلى الفيلا . كانت هي ملغاة من الداخل . بل كانت بلا داخل على الإطلاق . أمطار أسبوعها مع فراس أمست مستنقعا موحلا . وقد حرصت على أن تخلد إلى النوم قبيل أن تبدأ ضفادع المستنقع في نقيقها الرخو القاضم للأعصاب . تفقدت سامر الغافي ، وشمته ووضعت خدها على خده . عادت إلى الجناح . ألقت رأسها على الوسادة وزفرت . سهرة واحدة أعادتها إلى " عصمة " العقيد . يا للجنون المفلوش! كيف خطر لها أن بوسعها الذهاب إلى المرسم والعقيد ليس في الثكنة ؟ وكيف ستقنع فراس أن نورما أخرى غير مسؤولة هي التي وشحته بعهد الحب ؟ خبرية صغيرة يسمعها مهند من الرسام ، وتلاقي هي مصيراً أسوأ من مصير شادية ومدام بوڤاري : يأخذون منها سامر ومعه حياتها .

ثلاثة أسابيع وأغوار الرعب تبتلعها . وفقط عندما أكدت لها الروزنامة أن الأيام تمضي دون أن يجرها مهند إلى الساحات لترجم هناك ، ويأخذ

منها سامر ، جازفت بأن توجد وفراس في المجلة . وهناك واجهها في مكتبها وهي تتهيأ للانضمام إلى سميرة . " يعني ما عندك وقت للرجل الذي يحبك ."

أدركت نورما أنه ملتاث وانفجاري . تخثرت .

" أنت سلبتني كرامتي وعقلي . وأولادي وموهبتي . وأنا لم يعد لي هم غير تحطيمك وإذلالك .وخاصة عندما أكون محتاجا لك . وأنا دائما محتاج لك . وحاجتي لك قد الحياة ."

كان كل زفير يخرج من عناقيد رئتيها يتوجه نحو الله : ألن يقول لها ماذا تفعل ، وأية دوامة تختار ؟ لقد حاولت أن تبعد فراس عن حياتها إلى مسافة آمنة . ولكن ها هو يقتحم المسافات ويطويها ، ويرميها في قيعان البحار الهائجة . وهي تعرف أنه إذا اقترب حتى ألغى المسافة ، إذا قابلته كلما احتاجت له أو احتاج لها ، فلن يبقى لها سوى الصراخ بوجه مهند : " يا أخي خلص ، ما عدت أتحمل . طلقني . " وهو ما ستموت قبل أن تفعله . مهند ضمانتها في احتفاظها بسامر . وهي لن تفرط بسامر .

كان فراس يقول : " أنا والعقيد لا يمكن أن تحتوينا أنت" .

" أنت لن تفهم . إذا جئتك . . . كيف أرجع من عندك لتطالعني نظرته البريئة في البيت ؟ يا أخي ، أنت لا تعرف ما هو المستحيل . الآن ، خلني أمشي . إذا جاءت سميرة وشافتنا ، سأصاب بالشلل من رعبي ."

" ما الذي لا يرعبك ، بالله عليك ؟ ما الذي لا يرعبك ؟"

" سأثبت لك أني شجاعة . غدا في التاسعة صباحا ، نلتقي في ويمبي البحري ."

التقيا في ويمبي . كان جالسا على بعد ثلاثة أمتار من البحر في الخلاء الأبيض الجميل . وكانت هناك عشر تقريبا من شقائق النعمان ، تخفق وتميس مع النسيم العابث . ومن المدى الأزرق جاءت نورما وسلمت . جلست . طلبت منه أن يكتب لها توصية إلى إدارة مجلة (مواسم) ، لتساعدها في الترقية إلى رئيسة قسم ، وأن يراجع مقدمة الأطروحة التي ستأخذها إلى الأستاذ زافييه .

ابتسمت لدهشته المهللة . عرفت أنه يقول دون أن يقول : هذه هي المرأة التي أحببتها .

كتب لها التوصية . وقبل أن يبدأ بقراءة المقدمة ، هتف كمن انتبه فجأة : " مسافرة إلى كندا ؟ لماذا لم تقولي لي لأحجز ؟ "

" إذا بودك ، سافر" .

رمقته بنظرة قلقة ومحاصرة . ومع هبات الصمت جعلت تتفقد المكان كمن تتوقع خطرا مداهما . أحست أنه كظم غيظاً لأنها لم تخبره بسفرها . كيف تخبره فتقتلع ما بقي من جذور مهند في حياتها ؟ راقبته وهو يقرأ الصفحات الأولى ويسرع عبر الأخريات . قال إن تعليقاته على المقدمة ستأخذ وقتا . ولأنها محتقنة بخوفها اللاعقلاني العريق فهو لن يرهق شجاعتها بأنانيته : سيقبل بأن تجلس في الطرف المقابل ، عند الطاولة الأبعد ، فما دامت في مدى عينيه ، سيظل يمتلك العالم .

أسعدها هذا الإيثار منه ، وأن تجلس هناك وتقرأ صفحات الفصل الثاني من الأطروحة ، وهي تحس أنها مسربلة بنظراته . صار المكان مرجاً أخضر ، والطاولات والكراسي حقلا من شقائق النعمان .

خلال دقائق ترنح حسها بالسعادة . نتأت منه طفوح ومخاوف . انتقل القلق إلى ركبتيها وحوضها . ثم امتد في جمجمتها . بينها وبينه خمس طاولات فقط . كل زائر لهذا المكان سيعرف للتو أن بينهما علاقة محرمة . كيف نهضت ؟ كيف خبخبت نحو المخرج ؟ كيف دخلت سيارتها واندفعت بها عائدة إلى الفيلا ؟ . . لم تعرف . عرفت فقط أنها نجت من كارثة ، من أحد يراها ويقول لمهند إنها رتبت لقاء مع فراس نصار .

رفع فراس رأسه نحوها ولم يجدها . داهمته صاعقة اسمها كيبيك . تذكر تلك الدقائق والساعات الغادرة ، الساعات الذنبية ، عندما اقتحم هو والشرطة غرفتها هناك وهو يظنها مريضة أو مغمى عليها ، فاكتشف أنها تركته ورحلت .

بحث عنها في المقهى ، وعن سيارتها حول المقهى . لا أحد ، ولا سيارة . فقط شقائق النعمان وسط مرجها الأخضر . عاد إلى طاولته .

لقد قالوا له ذات يوم إن شقائق النعمان تعني بالعربية : جراح الحبيب . عندما قتل الخنزير البري تموز على سفوح جبل لبنان ، سالت دماؤه عبر الشعاب والوديان ، وملأت الأنهار ، ولونت تلك الأزهار البيضاء بالأحمر . أكان ذلك القاتل خنزيراً برياً بالفعل ؟ أم هو حبيبة دوخها الحب ودوختها الحرية فقررت أن تخلص من مصدر سعادتها وكينونتها ؟

جلس حوالي الساعة دائخاً ومنطفئاً ، ومتحللاً وآسناً . جاءته أربعة هواتف . لم يقم إلى أي منها .

عاد إلى المرسم . قفل الباب . لأول مرة يفتش ذلك المكان كما تفتشه الشرطة بحثا عن أدوات جريمة . رن الهاتف . " ألو ، " غمغمت بصوت ضاو : " مرحبا . اتصلت بك سبع مرات . . . " قال : " ألو ، "

بالصوت نفسه . وأغلق الخط .

بين الرنينات التي تلاحقت ، جمع الهدايا الضئيلة التي تلقاها منها في السنين الأربع الفائتة . وضع الهدايا في كيس بلاستيكي .

قرع جرس المرسم ، ودق بابه . ثم قرع وقرع . نظر عبر العين الساحرة . كانت نورما ترتدي تايور أحمر . انقطع القرع . بعد قليل رن الهاتف . سمع صوتها . أعاد السماعة .

قرع جرس المرسم ، ودق بابه . راقبها واقفة مطرقة . تمد يدها ، تقرع الجرس ، تنتظر .

من شباك المطبخ شاهدها تتجه إلى سيارتها .

اتصلت الصباح التالي . قالت : صباح الخير ، فرد التحية . وسألته كيف الصحة ، فقال إنها جيدة . وإذ استفسرت : " بعدك زعلان مني ؟ " استفسر بدوره : " عفوا ، من معي ؟ " بعد صمت قصير تمتمت : " فظاعة! لهذه الدرجة ؟ " أعاد السماعة .

بعد نصف ساعة كانت تقرع جرس الشقة . ربع ساعة وهي واقفة هناك ، لا تكل ولا تمل .

فتح الباب وخرج حاملا كيس الهدايا . أقفل الباب . مشت إلى جانبه . ركبا المصعد . " أنا آسفة . أرجوك سامحني . بحياة أولادك . أنا آسفة . عرفت خطئي بعدما طلعت . هذه ليست كيبيك ثانية . أبوس يدك سامحني ."

في مرآب المبنى مشى نحو سيارتها . " افتحي الباب ، " قال بصوت إسفلتي . فتحته . رمى الهدايا على المقعد الخلفي . عاد إلى سيارته . لحقت

به : " أبوس يدك ، سامحني . " همهم : " لا تعملي مشاهد . الجيران يرونك . " صاحت : " لا يهمني . سامحني بس . أنا عرفت غلطي فورا . وأنا أموت . مهند جاء لي بالدكتور هيثم . والدكتور قال وضعي صعب ، وخطر . يا أخي كان في المقهى ناس كثيرون . . . "

أغلق على نفسه باب سيارته .

تجرجرت نورما نحو سيارتها . كل منهما جلس قليلاً في سيارته . وبعدئذ غابا داخل المدينة .

الفصل السادس

السديم

تفتح المدينة أضلاعها المومياثية وتفسح مكانا يحل فيه فراس نصار . يضطجع فاغر الفؤاد . ها هو ذا أخيرا يدرك أن الحب لا وجود له إلا في تحلل الألوان ، في اصطباغ الأزاهير بحمرة النجيع .

قال لميراي : " هيا بنا إلى باريس . أنا موافق على مشاريعك البراقشية" .

إنه الآن ورقة دلب صفراء تطوح بها الريح فوق الأرصفة الباردة . أخيرا انفجرت الرئة وتوقف اللهاث . توقف الهذيان لأن الأسلاف أكملوا نشر خرائبهم في حنجرته .

" أطلب لك فنجان قهوة ؟ " سألت ميراي بحذر عاقل . هذا الانقلاب الأصفر في موقفه سمت معطل الروح ، لم يوح لها بالثقة . لا أحد يمكنه الركون إلى مزاج فنان أثناء اتخاذه قرارات خطيرة .

يرحب بفنجان قهوة . ولا يتوقف عن أن يرى ويشم ويسمع ويلثم مومياء المدينة . يتحلل الكبريت على لثتيه . إن المرأة البيضاء الخافقة أمامه سعيدة بقراره . يرى في عينيها نبعاً صافياً ذكياً بعيد المدار . " إذا كنا

سنسكن سوية فسنعيش معاً حياة ما بعد الموت" .

" وأنا أريد أن أتأكد أن موت غيرهارد لم يأخذني معه" .

الآن وقد انفصلت حلقات الرغامى واحدة عن الأخرى ، سينضم إلى أسلافه الغوابر من سكان البحار ويغور في أطراف البحر المتوسط .

تمد ميراي ذراعيها نصف العاريين فوق المنضدة وتزنخر بحيرة : " أنت تعرف أني لست روبوت . " تراه مجنوناً صغيراً مطفأً . تبتسم ابتسامة أيوبية . " اترك الأمور على عفويتها . من أي شيء أنت خائف ؟ "

هو خائف فعلا . أربعة وخمسون عاما ، وها هو وحيد مرةً ألفاً ، متواصل فقط مع الخرائب . يريد خيطاً من خيوط العنكبوت لكي يمسك به ويسميه أملا . إلا أنه لن يقبل أن يلتف الخيط على عنق ميراي . قد يجتمع الخوف مع العيش لكنه لا يجب أن يجتمع مع الحياة .

تقول ميراي : " بعد ثلاثة ، أربعة أشهر نكون في باريس . " وتسأله هل يريد أن يشتري أم يستأجر . يبتسم ويزنخر : هو ، يشتري ؟ لن يشتري أبدا . فقط سيبيع . سيبيع خرائبه في مرسم باريسي . تقول هي : " أنت غلطان . كل شيء ارتباط . "

أربع سنوات وكل خلجة من خلجاته تأتي وتروح مدموغة بإهانات نورما البدر .

كل العالم الأزرق الذي أمطر وانقضى . عالم الرؤى . الكتابة والرسم والموسيقا والنحت والدكتوراه ، الحرية الجمال والفرح والمغامرة والتحقق . مضت ولم يبق غير الجنس . ما أكثر ما رأى السقوف الإسمنتية في المدينة وقد تهدلت شاقولياً بفعل القذائف وحلت محل جدران تداعت . إنه يراها

الآن في حشاشته . هي مرآة وفي عمقها تنعكس خرائبه هو .

* * *

ونورما البدر التي صارت فجأة ناطورة للذكريات . أين هي الآن من ذلك العالم المارج ؟ العالم المدوم المدوي حول فراس نصار . إن الصخور والحصى تتجمع داخل ثدييها . لقد ألقى بهداياه المرتجعة على ظهرها وليس على المقعد الخلفي للسيارة . وغدت واثقة منذ تلك اللحظة أنه سيفلتها من ذاكرته إلى أن تنضب قطرة قطرة . لقد جاء اليوم الذي خشيت أن يجيء ، الذي توقعت ولم تصدق أنه سيجيء ، الذي لا تفهم لماذا جاء . من الآن فصاعدا سيمحو اسمها . ستلوح على تخوم مخيلته خطاً أسود لكنه لن يذكر اسمها . ولن يشم رائحة الزنبق . ولا رائحة القهوة التي شرباها في ليل رمضاني . لن يكون نقطة الاستناد في حياتها الخربة الحزينة .

من الآن فصاعدا ستكف عن الكلام المهموز الذي ما أكثر ما أوشكت أن تنبس به ، ولم تفعل ذلك قط . كان يتلجلج في صدرها ثم ينهزم لأن ما كان فراس يقوله هو دائما الحقيقة ، والصح ، وكلامها هو الغلط والباطل . وعندما تعود إلى الفيلا ، يعود ذلك التلجلج إلى الظهور . وبين الحقيقتين والصدقين تبعثرت .

من قبل كانا يختصمان ؛ أما الآن فقد هبطت بينهما أهرامات مصر . إنها تحتضن مقود السيارة وتبكي . المدينة ، وسامر ، وتبكي . لطالما أنذرها نذير خفي أنها أحبت فراس نصار أكثر مما ينبغي . لقد زلزل رواسخ حياتها ، وكل الأخلاق التي ورثتها .

ولكن أين تصعد بها السيارة وسط هذا المطر الطوفاني ؟ ولماذا تتجه إلى أشجار الرصيف بينما الطريق مفتوح أمامها وقليل الزحام ؟ وما بال

يديها تعجزان عن إيقاف السيارة بينما تنجح في ذلك شجرة زنزلخت ؟

كيف ستتدبر أمرها بالدولاب الذي انفجر ، والتوت دائرته المعدنية ؟

سألها مهند ماذا بها . وسألها لماذا كل هذا البكاء : " كل الناس تصير معهم حوادث سيارة! " وجدت نفسها تقول : " أنت لم تقدر يوما أن تفهمني . أو تراني ."

أحست بالغثيان . من أين جاءتها القدرة على الشعور بتقصيره تجاهها ؟ وعلى إعلان ذلك ؟ ليت أنها امتلكت هذه القدرة على ملاقاة فراس كلما احتاج أو احتاجت . لقد أهدرت أصائلها وأماسيها وهي تهيء النراجيل والمكسرات لرجل عرف كيف يضيع عمرها وهي تحوم حوله .

ويحس هو بالسخرية : " أنت تغيرت في كل شيء منذ وفاة المرحوم . أنا رضيت بك لواقعيتك وطاعتك لي . منذ وفاة المرحوم ، أنت يوماً بعد يوم تصيرين متحررة بصورة لا تطاق . "

" لماذا اشتريت لي الستيريو إذن ؟ أليس لنسمع الموسيقا ؟ "

" اسمعي موسيقا يا أخي! أنا منعتك تسمعي موسيقا ؟"

كان المطر ما يزال ينهمر ، وبالغزارة نفسها ، منذ حادث السيارة .

إن الله يرسل لها رسالة . والمكتوب الحزين يقرأ عن عنوانه : انفجار الإطار وحادث السيارة . ولكن ماذا يقول لها الله ؟

أفاقت ذلك الصباح وفي ذهنها يقين بأن كل شيء ربما يكون على ما يرام رغم الانتهاء ، وبسببه . هي ليست المرأة التي يكون الحب أساساً لحياتها . وقد قال لها ذلك فراس نصار . قال إنها لم تخلق للحب ولا للحرية ولا للفردية . . ولا للفرح . كل هذه الأشياء . حسناً . إنها تعود الآن إلى

حيطانها وروبوتاتها . إذا غفر الله لها انتهى كل شيء . ستقطع علاقتها العاطفية ، وستتحجب ، عندئذ يتأكد الله أنها جادة في توبتها ويغفر لها .

تحول المطر من فضاء للذكرى إلى فضاء للرمز . استمر يمخر سطوح الفيلا ونوافذها وأبوابها طوال أربعة أيام ، دون أن تتعب قطراته . يريدها أن تفتح المغاليق لأصواته الزاخرة الداحمة . فمعه كان الحب أنشودة ، وبدونه يصير أنشوطة .

لم تتوقف الأمطار . إنه بالتأكيد طوفان نوح . بل إن المياه اندفعت في الصالون فجأة وتمدت على المرمر الصقيل وتمددت . إنها تخرج من البلاليع والمصارف!

كان الحمام بحيرة صغيرة ، وسامر يتخبط في الماء نصف صارخ ونصف مخنوق . كيف تفلت الذاكرة مشاهد رهيبة من هذا النوع ؟ بالكاد استطاعت أن تقول لمهند عند الظهر : " حملت سامر إلى الكنبة . لا أتذكر كيف خليته يقيء الماء الذي شربه . وألبسته ملابس جديدة . ولا كيف جعلته يهدأ منبطحا على بطنه . أو كيف اتصلت بك ، وركضت عند الخضري . لم تكن المياه الداخلة في الصالون غزيرة ، لكن الوحل! الوحل أرعبني! "

ذلك هو الطوفان . وقفت الكلمة في ذهنها كالنير على عنق الغزال . دائما يبحث الإنسان عن الرمز في الفن والأساطير ، ويغفل عن أنها تملأ حياته . إن الوحل يفرش بيتها الآن . يطرشه . وهذا كله يحدث بعد أن رمى فراس وحل هداياها بوجهها .

إن الله يعيد طوفان نوح لأجلها هي وحدها . لكي تعتبر . لكل حياة شعاعها الذي تهتدي به ، إلا حياة نورما البدر : لها شعاعها ولكن لا تهتدي

به . غرق الشعاع في سبخة عفراء ، وفي سخام أسود . الرجل الذي تحبه يختنق بهما الآن .

هذا البيت أجمل وأسعد شيء أنجزته في حياتها . إنجازها الوحيد الكامل . وها هو يتقيأ الوحل والوخم . لو سألها سائل : ما هو أصدق شيء في حياتك ؟ لقالت : هذا البيت وحبي لفراس . لقد توحل صدقا حياتها الأعظمان .

* * *

الرسالة القصيرة التي وجدها على مكتبه في المجلة لم تحرك في أعصابه أية خلجة . " أرجوك رد على تلفوني . " وقالت : " حتى الإله يقف معك . كدت أموت بحادث سيارة ، وسامر بفيضان الماء في الفيلا . سيمر شهر قبل أن أنظف البيت من الوحل وأصلح التصدعات في الأساسات . أرجوك اغفر لي . "

قال لنفسه إنه سينتظر . إذا لم تندفع إليه تحت مطر لا وحل فيه . . . إذا لم تأته كلما احتاجت إليه أو احتاج إليها . . . فتلك هي الخاتمة .

لم يشأ أن يكون فجاً بعد الرسالة . لقد أراحته نجاة سامر من الاختناق . ومع رنين الهاتف في الصباح رفع السماعة وقال : " الحمد الله على نجاة سامر . " طار قلبها شعاعاً . أما هو فطار قلبه هلعاً . لأول مرة منذ أربع سنوات يخاف من أن تقول له : أنا قادمة . لم يعرف كيف سيستقبلها ، ولم يرغب .

كان كل صباح يجد نفسه أمام نفرة شرسة في عروقه ترفض رؤيتها . ولكن ليس قبل أن يمحو شعوره بالذل والمهانة . لم تقل إنها قادمة . ووجد

نفسه ذئباً يحاصره الألم والغوايات . تقتنص البرية عقله . لقد نسي أن له أولاداً هم حياته بعد موته ، ولوحات وتماثيل ، وفراشي وأزاميل ، وأصدقاء هم مرايا روحه السائحة .

كل هؤلاء غابوا عنه طوال سنين . إنه الآن عائد إليهم . كلما أعاد السماعة أحس بهم يقتربون منه . تبتعد نورما البدر ويقتربون . تنسل كما الحرارة من الأمكنة بعد المغيب ، ويأتون فيسرحون في رحابه الجوانية ، ويمرحون .

لا يسوؤه أن أولاده مستمرون في التعامل معه باعتباره " الأب الحبيب الغائب في لوحاته وتماثيله ، " كما وصفه ابنه زياد . لقد اعتادوا أن يحبوه غائباً وأن يرتبكوا به حاضراً . وهذه المرة هللوا له ، هم الأربعة ، اجتمعوا حوله في ويمبي البحري ، ليستمعوا إلى مشروع العمر الذي سيحمله إلى باريس ، ويحملهم بعدئذ – إما زائرين أو دارسين في الجامعات .

يهرع إلى ميراي ، وإلى رئيس التحرير ، والبروفسور جيرار . . وإلى أمكنته وشوارعه ومقاهيه . . البكاء نصف شوقه . . حتى لاعبو النرد حسبوا حساب هبوطه بينهم وزعزعة ثقتهم بانتصاراتهم .

ذات ليل وجد نفسه يعبر بالسيارة من أمام البرج الذي كانت نورما تسكنه يوم 14-1 . لطالما مر من هناك وغرف تلك الشقة في الطابق الثالث عشر بعينه ولهفته . لطالما حدق إليها حتى أوشكت السيارة أن تجنح أو تصطدم .

ما الذي جعل نوافذها وشرفاتها مظروفا بلا رسالة ولا عنوان ؟ لقد انتفخ منخراه بزفير السخرية . من بين أمكنة المدينة التي استوطنته ، وحدها الشقة بدت نشازاً . رآها ولم يرها .

تلبسه حافز خفي رجيم . عليه أن يقتلع أمكنة نورما البدر من ترابه . كلما سنحت له الفرصة ، راح يتوقف في واحد من الأمكنة الموشومة بها . شارع كان يلطأ بسيارته فيه ليراها وهي تعبر نحو محاضرتها في معهد الدراسات الصحفية : هل وصل حقا إلى هذا الحضيض من الهوان والذل ؟ يلطأ هناك ، فقط ليلمحها ؟ كافيتريا المجلة خلال فرصة تناول القهوة أو الشطائر : كم لهفة ذليلة انطلقت منه وهو يستعد لرؤية نورما كلما فتح الباب ؟ غرفة تصميم المجلة التي أكثرا من تبادل القبل فيها طوال سنين . الساحة الصغيرة التي لا بد أن تعبرها إذ تخرج من الفيلا أو تعود إليها : ذل آخر في مكان آخر . المنعطف الضيق لعبورها نحو فيلا المدير العام . . .

عشرات الأمكنة . مئات الانتظارات الذليلة والرضاءات البخسة . مئات الخيبات . لقد ازدرد كل إحباطاتها لتوقعاته ، ومخاتلاتها . وحوّل كل إحباط إلى هدية يشتريها لها في النهار نفسه ليشتري اهتمامها به . كل شيء جميل في دكاكين المدينة صار هدية أو احتمال هدية . لقد هام بها وتاه في دروبها .علّمها الحرية فعلمته الذل . كل شيء في حياتها كان التزاما ، إلا لقاؤهما .

كان من قبل يغضب كلما تذكر . يجن ، يهلوس ، ويهذي . كل شيء في حياته هو نورما البدر ، ونورما البدر كل شيء في حياته . لم تعد هناك لغة غير مواعيدها وصوتها . كل لغة تنطق بها ، وكل صمت . كل حدث لا يحتويها ليس حدثا . لو سألوه ماذا فعلت خلال أربع سنوات لأجاب : أحببت نورما البدر .

النار والشرار خمدا الآن . وجسده الذي كان يصير ضراماً وموقداً ، تفتحت مسامه لتخرج منه دويبات غريبة وغامضة . يحس نفسه عائماً

متقلقلاً لأنها خرجت . يحس بأمان الرمل ومناعة الصبار . اعتباراً من هذا الساحل المشمس الخضير لن يمكن لنورما البدر أن ترجمه بعد الآن . إن ما يخرج منه هو تلك المرأة وقد تشظت ألف شظية خامدة .

أما هو فما أروع أن يمشي بعيداً عن البحار الخضراء ، بعيداً عن آبار النار .

* * *

انتهت حسابات نورما أخيرا إلى أن وقتها صار يسمح بلقاء فراس . كان أربعون يوما قد مضى على انفجار ويمبي . رفعت السماعة فأخذت يدها تخفق . لم يغب عنها فراس في الحقيقة . كان دائما معها . ألم تقل كاترين للمربية في تلك الرواية الإنكليزية : أنا هي هيثكليف! ونورما هي فراس . هذا الإنسان أولاً ، والإنسان أخيراً . الفنان ، الذي منع الظروف الصعبة والآلام من أن تتساقط على قدس أقداسها . . . ستأتيه الآن بأجنحة وعشب وشفتين فواحتين . سيهطل جسدها عليه بالزنبق الذي لم تقله يوما لأنه لم يقلها . ولكن . . . أهو حقا تحمل انقطاعها عنه أربعين يوما ؟ لعلها واهمة ؟

قبل أن ترفع السماعة أقبل سامر إليها نصف راكض و مفروش الذراعين ، وحفاضته تعلو وتهبط خلفه . فتحت ذراعيها وطأطأت . أسرع هو حتى كاد يقع . تلقت جسده المتهاوي قبل أن يرتمي على الأرض ، ورفعته إلى صدرها .

عندما يستقر سامر على صدرها ووجهها يترمد الخوف في حشاشتها . تغادرها الحرقة ، والقلق ، والعكر ، والتعب . يحل فيها الأمان وأمل

المستقبل . ليس هذا ما يفعله فراس نصار فيها . رغم الحب ، والجمال ، والسعادة ، لم يعطها يوماً حس الأمان الذي يعطيه سامر مهند النجار لها .

لكنها هذه المرة تريده بالذات . بل ترغبه . منذ أن جاءها سامر لم تحس بهذا الاندفاع الخلوي المعربد تجاه فراس . كيف اعتقدت أن حب الولد سيغنيها عن حب الرسام ؟ ستذهب إليه ولو أرسل الرب لها الطوفان من جديد .

لأجل هذا انطفأ فيها النور وتهدلت الأجنحة . فاجأها عزوفه المصر عن الترحيب بمجيئها . " أستاذ! ما بودك أني أجيء ؟ " وكان سؤالها مزاحاً جريحاً . هي دائما تدل بمجيئها . وهو دائما ينثر التهليل والعرفان لمنة تملأ السماء والأرض .

" الحقيقة أنا طول أربعين يوما ، تعودت على صباحات خالية منك . وصرت أشوف أيامي مريحة ومتعاقبة ، ومنتعشة . الحقيقة ، روحي انكمشت الآن ، وأنت تقولين : اصل بعد ثلث ساعة . . . "

" يعني لا تريدني أن أجيء ؟! "

"مثلما قلت لك . شفت حالي كأني برئت من لوثة . لا أشتم ،لا ألعن ، لا أحترق ، لا أتوقع . . . هذه العافية رائعة . صرت أرى أولادي! ومدينتي وأماكني والناس الذين أحبهم . صرت أرى فراس نصار . وأحاول أن أتصالح معه . أنا اغتربت عنه اغترابا فظيعا . اغتربت عن كل شيء ، وكل أحد . "

" فراس! يعني ما بودك أجيء ؟ "

" إلى المرسم ، لا . وهذا نهائي . يمكن أن نأخذ فنجان كابوتشينو في أي مكان تختارينه . لنقول الكلمات الأخيرة . "

" بعد كل الرعب الذي أعيشه ، والشقاء ، والشقيقة! سيتامبوسبيل! ترجمني لأني ضعيفة وقدري أقوى مني! تصير قدراً علي فوق قدري! "

* * *

ثم حدث ما كان لا بد أن يحدث . التقيا . فاجأته في الجلسة الأسبوعية للمجلة ، وكانت ذلك الأسبوع في شقة البروفيسور جيرار . لم يصدق أن ما يراه هو وجه المرأة التي أحب . حاصرته عينان غائرتان عكرتان ، وراحتا تسحبانه داخل حوضيهما الأسودين . رأى شعراً كاللباد ، ملوناً بالحناء الرديئة ، مقصوصاً ومنفوشاً . ورأى عنقا مضمحلا ، يتهدل حوله حنكان كنيبان أعجران ، ووجنتان شاختا وغارتا ، ثم بدلة زاهية فاقعة .

صافحته ووقفت قبالته كما تقتضي الكياسة . ابتسامتها اللاحبة صارت سياجاً حولهما عزلهما عن الآخرين . ومكنها من أن تختلس القول : " بكرة أجيئك في التاسعة صباحا . " دخلت كلماتها ضمن ثلج متراكم في جوانحه . صمت برهة . حاول أن يطلق كلمة " لا " كبيرة وغامقة . غمغم داخل سياجاته : " لا تتأخري . "

في الصباح سقطت السلاسل عن كاحليها وانعقدت الخلاخل . ونصب الصباح خيمة من التوقعات فوق رأسها . إذا حدث الحب حقاً وصدقاً فلن يكون أقل من قدر . لقد تعثرت خطاها كثيراً في الآونة الأخيرة ، لكنها لن تبالي . إنها تحمل سواراً من الألوان ، وأضمومة من الزنبق ، وهما من صنع فراس . وهي ذاهبة إليه لتعيد له الحلم .

جاءت في التاسعة إلا ربعاً . قوة غامضة أوقفت يدها عن الإمساك بمقبض الباب . إذا دخلت ، فبعد قليل سيتهرهر عالم المدير العام ويصير أنقاضاً . وسيقتلعها فراس نصار من ميناء حياتها القرير ويمخر بها عباب

البحار العاصية . ستعود إلى مستنقع آسن يغرقها فيه رجلان يفلحان جسدها . كيف تعود إلى الخوف وهذا الابتذال ؟ كيف تقامر بهذا الطفل الذي بات أغلى من حياتها ومن فراس ومن الوجود كله ؟ إذا أخذوا منها سامر أخذوا حياتها . من أين ينبع هذا الجنون ؟ كيف تنسى إنذارات الله لها ؟ لن تلقى ربها يوم الحساب وهي زانية ، ولن تخسر سامر لأجل فراس .

عادت إلى المصعد . دخلت فيه . هوى بها داخل جوفه الرازح دائما تحت رحمة انقطاع التيار وموتها هناك . توقفت في الطابق الأرضي . تخثرت في ذهنها الأسئلة . ضغطت على الزر الخامس . صعدت .

شق عليه أنها أبكرت فلم يستطع ارتداء ملابس الخروج التي ستنقل رسالة صامتة بالرفض . هذه هي نورما البدر : أرخى من اللبن ، وأضعف من خيط العنكبوت ، وتربح جميع معاركها .

جلست على الكنبة . سكنت كأنها تتجول في حقل معروف تماما ، سوى أنه يستتر على أربعة أو خمسة ألغام قاتلة .

عرف فراس أنها كالعادة تستدرجه بسكونها - إلى الحركة ، الكلام ، الرقة ، اللين ، إلى تصرف ما . تعرفه أنه لا يطيق السكون ، وأنه سرعان ما يقتلع سياجاته ويمضي . ليس عليها سوى أن تنتظر . لكنه جلس ساكتاً ، مصمغ الشفتين خاوي العينين . حطت نظرتها عليه كحوامة لا تعتزم الإقلاع ، فتنقلت عيناه بين تفحص خامد للمرسم وعودة عابرة إلى وجهها .

أيقنت أن طبعه الجاموسي قد تحكم فيه . نهضت وجلست بطرف فخذها على الصوفا ، ودونما كلام . أمسكت يده بيديها . لم تقع نظرتها عن وجهه .

أربع سنوات من الحب كانت كافية ليعرف أنها قد قدمت أقصى اعتذاراتها . هي لم تؤمن يوما بأن أراضي الحب يمكن مهما اتسعت أن تتسع للاعتذار . يجب ألا يضطر محب للاعتذار .

لم يغضب . لقد فات أوان الغضب . والبرد وصل إلى يديه : تماماً مثل لقائهما الأول .

لم تسمح لضيقها بالظهور ، ولا لخوفها . أوكأت على شفتيها ابتسامة . شكراً لله ، قالت لنفسها ، فقد أقبلت اللغة : " أنا الآن معك . بكل اختياري وحريتي . وكل كياني وأقصى مشاعري . وإذا لم أكن هكذا معك لا أكون معك . يصير لقائي بك مثل لقائي . . . بغيرك . نحن لقاءاتنا شحيحة . لذلك لازم تكون صافية ومطمئنة مئة بالمئة . أنت علمتني الصدق والحرية ، فراس . لا تخلني ألاقيك وصدقي ناقص ، أو حريتي ناقصة . سأصير مثل نورما مع . . . غيرك . "

هز رأسه مستهجنا : " أنت في واد وأنا في واد . أنا لا أقدر أتحمل استمرارك مع مهند . مصرة عليه ، بينما هو يهدرك تماماً . أنا لا أقدر أتحمل أننا لا نعيش سوية . هو لاحق له في شيء منك . "

بهدوء وديع قالت : " هذا هو قدري . حياتي لا تترتب إلا بهذه الطريقة . اقبلني كما أنا . لو خنت نفسي مع الجميع . . . ولو خنت الجميع . . . معك أنت لا أريد أن أخون . لا أريد أن أجيء خائفة . مترددة . أكثر من مرة وصلت إلى باب المرسم ورجعت لأن قسما مني كان يشدني إلى الخلف . "

هز رأسه مغمض العينين : " لا فائدة مادمت حتى الآن ترين علاقتنا بعين الذنب والعار . "

" انظر إلي كامرأة شقية ، ضعيفة ، لا كامرأة متخلفة . "

" أنا لن أرجع أبدا إلى نمط علاقتنا السابق . هذا نهائي . استمرارك مع مهند يجردنا من كرامتنا . يرميها في الوحل . إما أن تعطي حبنا حياة كاملة ، وإما ارميه لأدغال البحر . أنا الآن مرتاح . لا انفجار دماغ ولا هذيان . ولا أفكار إجرامية . لا أريد أن أرجع إلى صحراء حمراء . "

" لا تحسب أني لا أعاقب على انقطاعي عنك . الله يعاقبني على حبي لك ، وعلى معاملتي لك . كله عقاب بعقاب . "

" كلام فارغ . الله لا يتدخل في سلوك الناس ومصائرهم . بالعكس ، الحياة هي التي تعاقبك ، لأنك متمسكة بالموت . الحب أخلاق ، نورما . إما اقبليه تماماً وإما انقطعي عنه تماماً . مسك العصا من وسطها يعني الشقيقة والهذيان ، ويعني انعدام الموقف الأخلاقي . أنت تقتلين هكذا طفلة في أعماقك . "

" طيب ، طيب . هدئ حالك . ما بودك تحبني ؟ "

ابتسم . لم تدعه هذه الدعوة من قبل ، وإنها تجيء بعد أوانها .

وقفت . أمسكت بيديه وشدته . وقف .

لم تختلف طقوس الحب عنها في أية مرة سابقة . عناق ، فقبلة ، فقطعة ثياب تهوي على الموكيت . لم يكن واعياً بأي عكر في داخله . أحس بالانحرار يسري فيه وهي ترسخه عليها . وراقب ذلك كله مثل محقق يحاول أن يكشف التباساً .

كل اسم من أسماء جسدها دخل في الحوار مع أسماء جسدها . لكن ذكره ، بعد انتصابة قصيرة ، عاد فصار عجينة ممطوطة . عبثاً حاولت إعادة

حقنه بالرغبة . لم تجد الأساليب التي علمها إياها مهند : المداعبة ، المسح ، العصر ، اللولحة . جاءته لحظة القذف أخيرا وهو ما يزال عجينة ممطوطة .

أطلقت نورما زفرة مخرخرة . همدت كالعادة على ظهرها ، مغمضة العينين منفوخة الشفتين . وارتفع هو عنها متكئا على مرافقيه . " أنا آسف ، " غمغم باعتذار بارد . قالت : " أنا جنت . وكانت عظيمة . " وطوقت ظهره بذراعها وشدته إليها .

أجلسته بعد الحمام على الصوفا : " تتذكر ونحن في باريس ، كيف قمت من نومي أواخر الليل ، وجلست وسط السرير ، وقلت لك : ختيار! وبعدها عدت فنمت ؟ يومها! جنت مئة مرة . لكن بصراحة ، مجيئي اليوم غير شيء " .

كان محاصراً كذئب قطبي وسط البياض الشاسع لأنانيتها وسعادتها . لقد تمددت على الصوفا واتخذت استرخاءة النوم . إن سعادتها المترشرشة منها تعني شيئا واحد فقط : أن غليلها ارتوى . وهي تفترض الآن أن ارتواءها قد أزال الوحل من بيت الحب . بعد دقائق لبس ملابسه وخرج : كيف تحمّل هذه المرأة أربع سنوات ؟

كانت المقارنة في غير صالحها عند جلست ميراي معه في ويمبي بعد يومين ، ومعها خارطة باريس وإشارة حمراء على المرسم الذي استأجرته له في أحد أزقة مونمارتر . لقد انشق طريق سريع نحو عالم جديد آخر . عالم الغربة القريرة . هناك سيعيش الرسم في الغربة والغربة في الرسم . سيبقى محمياً من طاغوت الأسلاف والمدينة ونورما البدر . ومن حياة دائرية اجترارية . سيمنع حلازين نورما البدر من أن تمص دمه .

ختمت ميراي شربها للقهوة بعبارة ملساء : " تعرف ؟ ستكون حياتنا هناك شيئا غريبا . لأننا شقيقان لا أب لنا ، ولم تلدنا أم واحدة ."

فيما مضى كانت نورما تشكو من الروبوتات . أما الآن فمن حالة طوارئ لا تنقطع . سامر وأمراضه المتوالية . مهند وازدياد تبطله ومكوثه في البيت . أم بهجت وأمراضها المتزايدة . ثم تلك الدوامة من الضرورات اليومية اللامتناهية . الملح الذي نفد فجأة ورفض مهند أم يخرج ليشتريه ، فأجبرها على ركوب السيارة إلى السوبرماركت . القميص الذي يريد مهند ارتداءه وعليها أن تغسله فوراً وتكويه . معاملات بنكية خاصة بأم بهجت وليس من يقوم بها سوى نورما . الوليمة اللازم إعدادها لسهار مساء السبت . تعزية بوفاة ابن عمة سميرة . رد زيارات لسهيلى وأم طوني ومدام عقيلي وآل حيدر . اللحام الذي أرسل لحما رديئا تعين عليها رده بينما مهند مسترخ أمام التلفزيون كالعادة . ماسورة المياه التي انفجرت . . .

حتى عندما أفاقت ذلك الصباح ، وبحثت في ذهنها عن مشغلة لابد من وجودها ، لم تصدق . أول أمس نام معها مهند النجار . إن جسدها ما يزال مرتعاً للدود .

أفاق سامر . ركضت إليه . اختطفته إلى صدرها ووجهها وشفتيها . لكنه أخذ يبكي . مددته ثانية ونزعت عنه بيجامته . كانت الحفاضة رطبة تماما . أزالتها فتوقف البكاء . حملته إلى الحمام . " أنا أعرفك . مثل الماما ، لا تتحمل الوسخ . "

الحمام ، فالمنشفة النظيفة . حملته على صدرها عاريا متشعبطاً . رأت نفسها قرارة ناضبة تمتلئ بالمياه النميرة . حسها بالانفراد به في الفيلا كلها ، بغياب مهند على نحو خاص ، أطلق لأصابعها عنان شده إليها وعصر

أليتيه لينضغط بطنه على ثديها . تنفست الصعداء وهو يتشعبط ويركل نهديها وسرتها مسقسقاً صائحاً . هذه الأحاسيس سامر فقط يمنحها لها . أحاسيس نبيلة وصافية . ولا يعاقب عليها الله .

مددته على السرير وراحت تلثم قضيبه وخصيتيه . فركت أنفها بهما ، ولثمتهما ، حتى غرغر الطفل وزعوط بالفرح . يا لهذا الصفاء . يا لهذه الحياة السادرة الهانئة .

بعد الإفطار ، ها هما في الصالون يلعبان ويصخبان . هل هناك فرح يعادل فرح خطواته المتأرجحة ، وهو يخبخب هنا وهناك ؟ إن وقوفه الأول على قدميه كان فرحا صارخا ، لكن خطواته الأولى كانت نعيما . أجمل ما في هذا الولد أنه يحس بقيمة الأشياء التي يلعب بها . وفي ذلك الصباح أحس أن أمه تريده أن يلعب برفقة اللفاية ياسمين . ولبى رغبتها دون أن يفهم كلامها .

رن الهاتف . تدحرج سامر نحوه . اضطرت إلى رفع السماعة . وشكرت الله أنها فعلت . تلك هي أم وسيم ، جارتها ، تطلب إرسال سامر ليلعب مع وسيم ويخرجا معا .

هذه هي الطفولة التي لم تعشها قط حتى أقبل سامر إلى حياتها . إنها تستعيد طفولة لم تكن ، وتعيش بعفوية الطبيعة . كان لا بد من الموافقة . هذا الولد الذي منّ الله به عليها محتاج إلى ملاقاة أطفال آخرين .

تقدمت في الصالون . لوحات أخرى ، والجدار الزجاجي المتعرج ، وهذه السعة العابقة بالطمأنينة . هذا هو بيتها . منذ شهور لم تره . بل منذ عام . ثلثا حياتها اليومية ينصرمان في هذا البيت ، وهي لا تراه . لا اللوحات تتأملها ، ولا لوحات فراس ، ولا تسمع أقراص الموسيقا التي أهداها لها ،

ولا الجدار الزجاجي ، ولا أزهار الحديقة وشجيراتها .

هرولت إلى المطبخ ، فإلى حجرة الخردوات . أخرجت معزقاً ومقصاً ورفشاً ومعولاً . عادت إلى الجناح وارتدت ثياب الحديقة . توقفت برهة . تأملت ما حولها بدهشة . راعها أن يكون جمال الجناح مطموسا في العتم منذ البداية . لأول مرة تسحب الستارة النيلية عن النافذة ، وتترك الضوء ليندفع عبر الستارة البيضاء المخرمة . لماذا لا ترى هذا الجمال كل يوم ؟

خرجت إلى الحديقة . أزهار تتبرعم وشجيرات تمد أغصانا . وأخرى تتهدل وتتصوح . الغاردينيا التي أهداها فراس ، نصفها ميت ونصفها يموت . مون ديو! والأعشاب البرية تتفشى في التراب وتعلو . تحتها ديدان ، وربما جرذان ، قد لا يمكن للرفش والمعول أن يقضيا عليها . لكن نورما لن تسمح لهذه الآفات الجوفية الزاحفة بقضم جذور أغراسها . لقد انتقت الأغراس واحدة واحدة : الزيتونة ، الياسمينة ، النخلة ، الأرزة ، الصنوبرة ، ثلاث من بخور مريم ، ثلاث فُلّات ، ثلاث قرنفلات ، ثلاث أوركيدات ، عشرون بيتونيا ، سبع زنبقات . . . زرعتها ، سمدتها ، سقتها . . . وها هي الديان تسرح بين جذورها وتقتات بها .

عند الظهر أقنعت نفسها بأنها استعادت للحديقة رونقها . كانت الشمس تمدها بالدفء والعزم . لقد ركشت الحديقة بالكامل ، وقطعت دابر تلك الزواحف الآكلة . وبالمقابل اقتلعت النصف المتآكل من مزروعاتها ورمته في الحاوية . غصة صغيرة واحدة : كيف تقتلع شجرة الغاردينيا وترميها بعيداً ؟

أعادت الأدوات إلى مخبئها . بوسعها أن تسمع موسيقا بعد قليل . دخلت البيت . استرخت على كنبة . نظرت إلى الستيريو كأنها تكتشفه .

من أين جاءت هذه الكآبة ؟ هذا الشرود والخمول . وصور متلاحقة لشواطئ صاخبة الأمواج ومروج جامعية خضراء .

انفجت الكآبة عن وعي لم يكن على البال . الوحل من قبل ، والجرذان والديدان واليباس الآن ، هذه كلها رسالة من الله . يا للعمى! كيف لم تفهم! ظل المطر يهطل ويهطل حتى جعل الوحل الخبيء تحت فيلاها الجميلة يخرج من جحوره وينساح على الرخام الصقيل . أفهمها المطر أن المساكن الجميلة لا تعني بالضرورة الحياة الجميلة ، وإنما الحياة الموحلة . وعندما تناولت الرفش والمعول وأخذت تنبش أرض حديقتها الزاهية ، تبين أن أعماقها ديدان وجرذان وجذور يابسة .

مسحت دمعتي عينيها . أتراه فات ذلك الزمن الذي كان الحب فيه يخضور حياتها ؟ الذي كانت فيه تقرأ كتابا بمتعة هائلة ، أو تشهد مسرحية ليوجين يونسكو ؟ نهضت نحو المكتبة . سحبت الدرج الكبير . لا أحد يثني على حسها الفائق بالنظام والترتيب . مع أنها تكتب أطروحة دكتوراه عن النظام في الفن . كل ورقة في مكانها الصحيح . كل مقالة ومرجع رئيسي . جثت على الموكيت . أخذت تنشر محتويات الدرج حولها . ماذا يقول البروفسور زافييه عنها ؟ لا شك أنهم فصلوها من جامعة لافال الآن . كان متفائلا بأطروحتها . وجاء حين ظنت أنها ستكون أحد نياشين قسم الفلسفة : لقد اقتحمت أطروحتها علم الجمال والرسم معا .

التفتت بحس مبهم إلى الخلف . رأت مهند واقفاً بالباب ويداه مسنودتان على إطاره . تأملته بخواء جاف . تأملته كغريب جاء إلى بيتها بلا دعوة . تأملته إلى أن صاح باستغراب هازئ : " لأي شيء تبكين ؟ صار للأهل شيء ؟ "

تأملته . هذا الرجل الذي فوضه المدير العام باغتصابها منذ ستة عشر عاما . الذي ما يزال يغتصبها . الذي ما زال يخمد روحها وجسدها . الذي ما يزال يهدر عمرها وملكاتها . . . الذي لا تستطيع أن تتركه .

لم تجب . شرعت تعيد الأوراق إلى الدرج ، ورقة ورقة ومرجعاً مرجعاً . لم ترد على سؤاله المتكرر . فقط أجابت : " خمس دقائق ، " عن : " الغداء جاهز ؟ "

" أين الولد ؟ " كان يمشي وراءها متجرجراً ثقيل الخطى ، ثم أحست به يتهاوى على كنبة التلفزيون . نظرت إلى الساعة وتمتمت : " بعد عشر دقائق يكون أمام الباب . " كان النهار ذاك يقظة صغيرة . عاد الانتظار والتأجيل يلفلفان زنابق الحديقة وفراس نصار والأطروحة والموسيقا .

مضت إلى المطبخ . هذا الوضع لا يمكن أن يستمر . لو واحد فقط يكشف هذا الحب المحرم ، تنهار حياتها بالكامل . تصير مثل شادية وآنا كارنين . يسربلها الناس بالبصاق .

عاد المدير العام ونعمان ينظران إليها . ودون أن تدري ماذا يحدث لها غمغمت : " لا يريدون أن يتركوني . . . حتى الموتى لا يريدون أن يتركوني ."

أخيرا انجلت رسالة الله إليها . السلسلة الغريبة من المصادفات التي لم تعد مصادفات ، لها تفسير واحد هو أنها إنذار رباني . وها هو الحادث الذي تلقى مهند خبره عبر الهاتف يختتم السلسلة بالغضب : كيف تفسر إذن أن صدر أخيها بهجت ورأس صهرها حماد نفذا من التحطم بأعجوبة ، في حادث سير تافه لا يصدق ؟

فجأة صارت العائلة كلها في خطر . أم بهجت فهمت ما حدث دون أن يخبرها أحد بشيء ، وانهارت في أحد ممرات المستشفى . ماجدة التي لطمت وجهها ونتفت شعرها على زوج وأخ ، ارتمت هي الأخرى في أحضان الغيبوبة .

تلقت نورما وصفاً مفصلاً للتلة التي شهدت حادث السيارة الرهيب . وعندها أخذت الريح تهب داخل أضلاعها وأحشائها . إنها " الرويسة " التي قادت عليها سيارتها قبل 14-1 ، وكان فراس يجلس إلى يمينها .

خلال عشرة أيام لم يطلب منها مهند فرشاة أسنانها ، شكرا الله . هو لا يستطيع أن يكون منحطاً . لذلك أمكنها أن تصوغ صلاة خاصة بها من رسالة الله التي وصلتها . صلاة انبثقت بعد عودتها من المشفى أواسط الليل ، واكتملت عند الفجر ، وعينها توشك أن ترقد أخيرا مع انسيابات الأذان :

يا إلهي! يا رب! الخال نعمان مات بسبب خطاياي . وتشردت شادية . وصار معي حادث سيارة . والمطر لم يصنع سوى الوحل في حياتي . وأنا تمرغت في خطاياي حتى أيبست الجذور في تراب حياتي وأمست محشوة بالجرذان والديدان . وأصيب مهند بمرضه المونس الغريب . وأمي اعتلت وتزداد اعتلالا . وها هو أخي وصهري وقد واجها الموت ونفذا بأعجوبة . طبعا أنت تريدني أن أنشل جسدي من الوحل ، وأطرد منه الديدان والجرذان ، قبل أن أموت وأوارى الثرى ذات يوم . من الآن فصاعدا لن يمر على جسدي سوى رجل واحد هو زوجي .

وتذكرت أنها من سنين لم تصل صلاة واحدة ، لم تصم رمضاناً واحداً ، وكان بوسعها أن تحج فلم تفعل ، وأن تتحجب ولم تفعل .

وعندما أفاق سامر أخيرا كان لحمها قد تسربل بمسؤولية ذنوبها وطريقها المفتوح إلى جهنم .

هي لا تعرف كيف تلد المرأة . لكنها أحست بما هو ولادة حتما ، من عقلها وليس من رحمها . لقد ولد سلام هنا ، وأنسام عليلة ، وراحة فردوسية . نورما البدر ستصلي ، وستصوم ، وتتحجب ، وتحج إلى بيت الله الحرام ، وتفعل كل شيء كي يستمر السلام في روحها ، كي لا ترمي يد الله بها في هاويات جهنم الأبدية .

هبطت إلى السوق برفقة أمها الفياضة الحماس . لم تكن فرحة بشيء على التعيين . فقط غمر روحها السلام كما تغمر السكينة بحيرة محاطة بالجبال . كان قد مضى أسبوعان على الحادث . أسبوعان على بدء الانخفاض في منسوب مياه البحيرة . وأحست مع كل انحسار بخفة بيضاء نسيمية .

لن تجعل جسدها بعد الآن معبرا للوحل والموت . وستوقف مهند نفسه عن إذلاله . بعد سنوات ، سيوارى جثمانها الثرى إلى جانب أبيها . وستأتي ديدان الأرض وجرذانها لتقرضه وتقضمه . لن يبقى سوى قفص صدري وجمجمة وعظام . وما دامت هذه هي النهاية ، فلماذا تلبس روحها سربال القذارة والخطيئة والذل ؟

في السوق رأت تلك الدروع الحصينة ، اللينة الهفهافة ، التي ستشتري واحداً منها وتسبله على كامل بدنها ، فترتد عنه مخالب الغواية . أكثر من مرة همت بشراء نقاب وليس فقط حجاباً . لكن أم بهجت أصرت : " لا يا ماما . النقاب إسراف . " هي أيضا لا تحب الإسراف . تحب مسك العصا من الوسط وفي كل الحالات . ستشتري الحجاب ، وستضعه على جسدها الملوث الموطوء ، فترتفع في داخلها مياه الصفاء والسكينة ، مياه لا يستطيع القمر

أن يحدث فيها مداً ولا جزراً .

* * *

قالت ميراي : " أوراقنا صارت جاهزة . الحمد لله . دوخني هؤلاء الفرنسيون . الفيزا وكل شيء جاهز ، والحجز في الطائرة ، وروحة بلا رجعة ، إن شاء الله . "

ضحك فراس ، وضحكا معاً . قال : " اسمعي ميراي . بودك نسبة مئوية من الأرباح أو مبلغ مقطوع أنت تقررينه ؟ "

هزت رأسها : " نسبة مئوية . لا أريد أن تراني عالة عليك يوم لا تبيع . "

" هذا ظلم لك . "

" اسمع . وصلتك أخبار نورما البدر ؟ أنا أعرف أن واحدة ملخومة مثلها لا تعني لك شيئا . ومعك حق . نورما امرأة ، لا تتجاوز فرديتها نسبة الواحد بالمئة من شخصيتها . ومن حياتها . لكن ما فعلته مؤخرا يؤكد لك أن النشأة تغلب الفطرة . نورما البدر يا سيدي تحجبت! "

نظر فراس إليها وهو مستسخف أن يصدق . قالت : " تحجبت إي! لا تبحلق بي هكذا . أنا شفتها وحكيت معها . مؤمنة بالحجاب إيماناً لا يتزعزع . ولولا شوية كانت نسيت أني مسيحية وطلبت أن أتحجب مثلها ."

إذن هذا هو السبب في أنها أحبطت انتظاراته ولم تطرق بابه .

قالت : " لا يخطر لك أني أحتقر هذه المرأة . أبدا . أنا أشفق عليها . لا تقدر أن تكون شيئاً . دمية . مثلما رأى هنريك إبسن بطلته نورا . ليس لها ذات ، ولا فردية . لكن يوجعني قلبي عليها . لأنها في الحقيقة ، يوم

ولدت ، كانت الطبيعة تؤهلها لأن تكون امرأة مميزة . عندها مواهب وإمكانات فعلاً . أنا أعرف نورما . "

" معرفة سطحية ، يتهيأ لي ،" قال مستدرجا .

" لا تغلط . أنا أعرفها من عشر سنين تقريبا . في المجلة وخارجها . نورما ولدت لتكون امرأة متميزة . وفي الأوقات النادرة التي تظهر فيها فرديتها ، تكون ساحرة . أعذب امرأة يمكن أن تلتقي بها . أما بغياب فرديتها ، فهي آفة . كلها ممنوعات ومحرمات . "

" ما هي مشكلتها إذن ؟ "

" المشكلة هي أبوها . الذي ولد هو الآخر بلا ذات ولا فردية . كلاهما محصلة اجتماعية . أبوها قمع فطرتها وأنوثتها ، وصب فيها تصوراته المتفسخة الأنانية عن الحياة . وأحبها حباً أعماها عن تشوهاته العقلية . أهلك أنوثتها وهو يحاول أن يجعلها تصير الصبي الذي توقعه بدلاً منها . نورما لا تعرف البكاء ، هل تصدق ؟ وطبعا مستحيل أن تعرف الحب . قصدي حب المرأة للرجل . وأنا أحلف يمينا أنها طوال حياتها الزوجية لم تبلغ النشوة يوما . لم تفرح بجسدها يوما . لكنها متمسكة بهذا الزوج المغرور الأناني الذي عندها تمسك الكنيسة بالمسيح ؛ بلا تشبيه . لا يهمها أنها لا تحبه ولا يحبها . المهم أنها زوجان . العائلة ، السمعة ، المجتمع . وهذا الكلام الفاضي . حتى اللغة عندها شبه ميتة ، لكثرة ما هي مقموعة ومروضة . نورما تعرف الفرنسية أحسن مني . لكنها تعجز عن التعبير عن حالها بالعربي والفرنسي . "

" لكن ما قصة الحجاب هذه ؟ "

" أنت سمعت طبعا أنه منذ شهر تعرض أخوها لحادث سيارة . وأصيب صهرها بعاهة دائمة في يده . الاثنان نفذا من الموت بأعجوبة . هل تتصور أنها شافت الحادث إنذاراً شخصياً لها بالموت والحساب ؟ تصورا! ويستحيل ، يستحيل أن تقنعها بفكرة ثانية . وكانت ترمقني بإشفاق كأني امرأة جاهلة بخفايا الروح والإيمان . أنت لم ترها . سربال أسود من الرقبة حتى الكندرة . الشعر مختف تماما داخل شملة سوداء تقطع الرزق . يا لطيف! مأساة . تصور الهزيمة . في أواخر القرن العشرين تنهزم الحضارة والعقل والعلم أمام الغيبيات والخرافة . "

" هذه أغرب خبرية سمعتها في حياتي . وأنت متأكدة أنها ليست نزوة ، مثلا ؟ "

" إن شاء الله تكون نزوة . لكن حاليا ، أنت لا تقدر أن تناقشها أبدا . لا مجال للعقل والمنطق . ووقت يكون الاختيار لا عقلانياً ، فهذا معناه أنك لن تقدر أن تزحزحه أبدا . . . إلا باختيار لاعقلاني ثان ."

" دعينا منها ، هي وحجابها . إذن أواخر حزيران ، روحة بلا رجعة ؟"

* * *

أواخر شهر أيار سألتها سميرة : " سمعت ، ما سمعت ؟ " فوقفت وانتظرت من صديقتها الجواب . لم تبخل سميرة : " فراس نصار اشترى مرسما في باريس ، وهو مهاجر من هنا في حزيران . " بسرعة البرق أرغمت نورما وجهها على الابتسام : " اشترى! " كأن هذا هو كل ما يهمها . قالت سميرة : " المهم أنه سيهاجر ويترك البلد . " قالت نورما : " هنيئاً له . من خبرك ؟ " ابتسمت سميرة : " يعني ما سمعت ؟ الجرائد كلها نشرت الخبر ."

لا شك أن هذا الخبر إشاعة صحفية . لو أنها صحيحة ، أيعقل ألا يخبرها ؟

منحها الإنكار نجاة من الدوخان والرجفة . يجب ألا تلاحظ سميرة شيئاً ، وإلا وقعت الكارثة . التفتت ونصبت حجابها حاجزا بينها وبين سميرة . وعندما تماسكت خيل إليها أن الرسالة التي شاء الله أن تفهمها قد اكتملت ، وأن هجرة فراس جزء منها .

لكن فراس لن يهاجر . لن يتركها لهذا الفراغ الرهيب حولها . إنها الآن وفي هذه اللحظة ، في مهب السيول . هجرته ليست جزءاً من العدالة التي كان يشهدها النساك وتفسرها الطيور . إذا صحت الخبرية ، ستكون هجرته غدراً ودماراً . ستفسد عليها حجابها وسلام روحها . ليمت ولا يهاجر .

عند الرابعة إلا الثلث سحبت سلك الهاتف من مأخذه في جناح النوم . ومن الصالون اتصلت . جاءها صوت فراس المخمخم النعسان . هذه المرة لم تهبط عليه بديباجتها المعهودة . مباشرة قالت : " نشكر الله ، صرنا نعرف أخبارك من الجرائد . " وإذ تلكأ في الكلام سألت : " متى السفر إلى باريس ؟" قال : " بعدما يخلص العام الدراسي ."

صمت . أطلت نحو مهند ورأته نائما . تمتمت : " وأولادك ، والبلد ؟ " . . . لم يعد شيء يهم ؛ وباريس مدينة ملهمة . . . وهي ألا تهم ؟ . . . " بعد أي شيء ؟ بعدما تحجبت ؟ "

إطلالة أخرى نحو مهند . وصمت عاثر . يداها تشدان على السماعة تخفيفاً لارتعاشهما .

إنه يحس بشيء من الاضطراب في صوتها . . . لن تنكر ، هذا

صحيح . لقد توقعت أن تكون هي أول من يعرف . . . أراد أن يرى هل ستعود إلى أيام 14-1 ، كما اتفقا ، وهل الحب أهم أم تفاهات حياتها أهم ؛ ثم هو أيضا سمع من غيرها أنها تحجبت . . . هي استحت أن تقول له ، فالحجاب يجعلها تحس أنها لم تعد نورما . لكن شعورها لم يتغير . فقط الجانب الفيزيولوجي لم تعد قادرة عليه .

" وأنت تعرف رعبي من خسران سامر ، ومن التلفونات ، ومشاعر الذنب ، ومسؤولياتي ." . . . "بعت حبنا بقطعة قماش سوداء ، وبشوية أفكار ميتة . وتعتقدين أنك ستخدعين الله بها . تفوه! الله يلعن شرفك! . . . " وانقطع الخط .

كيف مضى الأصيل والمساء ، وقد انعقدا وتتابعا كدوامات سيلية . " تفوه! الله يلعن شرفك! " قال لها فراس . عليها أن تصدق أن شكاواه أكيدة . وربما آلامه أيضا . عليها أن تعترف أن تحجبها لم يكن سوى ستار أسدلته على عجزها وضياعها .

هناك فرق هائل بين أن يكون سامر نائماً وأن يكون يقظان . عندما يتحرك ، لا يمكن لأي شيء أن يستقل عنه . والمواجع التي خلفها فراس في حشاشتها تضمحل وتنزوي . وفي لحظات قليلة بعد أن يغمض عينيه ، تغادر البيت أرواح مجنحة خافقة ، وتستعيد الفيلا كتلتها الجهمة الراسخة .

تطوحت في مخيلتها البصقة الهاتفية : تفوه الله يلعن شرفك . ثم غابت مخيلتها لتحضر واعيتها . سمعت كلمات مهند الاعتيادية وكأنها لن تسمعها : " فرشي أسنانك . " كان ينشف يديه وفمه . وكانت ساقاه متباعدتين كي يستمد مزيدا من الثبات .

غاب سامر من ذاكرتها ، وغاب فراس وكل شيء . أمست الفيلا

مجرد خلاء . نظرت إلى مهند لتتأكد . كان يعلق المنشفة على حاملها . " من عشرين ليلة ما لمستك . " وإذن فهو جاد!

من بين جميع نضالات حياتها ، تلك هي المناضلة الوحيدة التي لم تربحها يوماً مع مهند . هي الأنثى وهو الرجل ، كان رأسه " الطري " يتراجع دائما أمام رأسها اليابس . إلا في فرشاة الأسنان هذه . ما أكثر ما حاولت ولكن دون جدوى . لم تضطر أبدا لخوضها مع فراس : تقديسه للحب يمنعه من الحصول عليه بالقوة . أما كبرياء مهند فتجبرها عليه . من الذي يمكنه أن يضع تعريفاً لكبرياء الرجال ؟ " تفوه الله يلعن شرفك ، " قال لها .

كانت ما تزال واقفة تحاول سبر غور مهند ، وإمكان احتفاظها بكرامتها هذه المرة . وجدت نفسها تقول : " لا أقدر اليوم . " وعندئذ وقف مهند أمامها ، وجها لوجه : " لأي شيء ؟ اليوم هو الثامن من دورتك . "

جالت عيناها في الجناح ثم عادتا إليه : " لا أقدر اليوم . "

التفت أصابعه على زندها واتجهت بها نحو السرير : " يا الله بلا دلع! خمس دقائق وننتهي . "

نترت قبضتها خارج قبضته . طمست ارتياعها من عنف حركتها . قالت : " اليوم لا أقدر . "

تمتم بوداعة : " كل مرة تقولين هذا الكلام . "

همهمت : " ولا بكرة ، ولا بعد شهر . حادث بهجت موتني . "

" ونحن نتعاطى الحرام لاسمح الله ؟ وبعدئذ ، هذه حقوقي . أنت عارفة . "

" اليوم لا أقدر . لا تغصبني ." لقد آن أن توقف اشمئزازها الذي

عمره أربع سنوات ، وغثيانها من نومه معها الذي عمره أربع عشرة سنة .

دمدم بوداعة منذرة : " نورما! تعرفين أني في هذه الناحية لا أتنازل ."

" وأنا اليوم لن أتنازل . خلني أقول لك " لا " مرة واحدة في حياتي . "

" ولا مرة . أرمي عليك يمين الطلاق ، إذا بقيت راكبة راسك . "

" حتى لو . . لن أنام معك . جسمي ما هو ملك لك . "

" أنت صار لعقلك شيء ؟ أطلقك إذا تمنعت . "

" حتى لو . . لن أنام معك . "

خرجت إلى البهو فالدهليز .

لم تتمدد طويلا على سرير حبها مع فراس في غرفة الدهليز . خمنت أن مهند سيقدر حالتها ذلك الليل . لكنه دخل للتو غرفة النوم وراح يرمي بيجامته . نهضت عن السرير وخرجت . خرج . رمى بنطلون البيجامة في الممر . لحق بها . التقط زندها وهي تتجه نحو كنبة التلفزيون . جرها إلى الجناح . لم تقاوم . علمها المدير العام ألا تقف بوجه العنف . " لا تستعمل العنف الفيزيولوجي ، " قالت وهي تتجرف أمام ذراعه . قال : " لا تضطريني . أنا حسبت أن حجابك ورغبتك في الحج وصلواتك زادوك خوفا من الله . وإذا به العكس هو الصحيح . آمنت فتمردت على زوجك ."

مد يده إلى سترة البيجامة ونضاها . نفرت إلى الخلف . رمى معوره . تقدم نحوها . كل خلية في جسمها تصلبت واقشعرت . وهذا المنظر المباغت لمهند وضعها في غابة متكاثفة لا معابر فيها ، وحولها إلى مسلخ وبرميل قمامة . رمي قميصه الداخلي ، فاكتمل عريه واكتمل غثيانها . التفت

حول السرير ووقفت بين طرفه والنافذة الكتيمة .

مشى مهند إليها . إن تدفعه دفعة واحدة تنتصر عليه . لكن ترنحه الخفيف انسكب عليها رعبا : لقد بدأ التوتر يأكل أعصابه . وهي أصلا لا قبل لها بالعنف الفيزيولوجي ، فكيف إذا قاومت وهوى مهند عن الجرف إلى العمق البحري ؟

" لو تنطبق السماء على الأرض ، اليوم لا أقدر ، " دمدمت وهي على آخر رمق .

" أنا الذي سينطبق عليك ، مون بيتيت لابان! "

أمسك بزندها من جديد وجرها نحو السرير . انجرفت وهي تتفرس فيه : كان من قبل كبيراً لأنه مهند ، أما الآن فهو ضخم لكثرة ما يتعاطى من كورتيزون . حاول ينضو عن جذعها الرداء فتخلصت من يديه . " أرجوك مهند ، لا تمارس معي بالقوة" .

كانت حتى تلك اللحظة واثقة من أن الله الذي هداها سيهدي عقله ، ويلهمه السماح . . على الأقل لتلك الليلة . لكن جسدها انساق مع جذبة ذراعيه وانطرح على السرير . ووجدت مهند ينطرح إلى يمينها ، ثم يمتد فوقها . " ما هذا ؟ " صرخت وهي لا تعرف من تخاطب ولا بمن تستنجد . دخلت يده تحت ردائها وأمسكت بمعورها : " مهند! هذا ليس أنت! ستقتلني!"

" هذا تماما أنا ، مون بيتيت لابان ، " وأنزل معورها حتى قدميها ثم انتزعه .

عندما اعتلاها انتفضت من جثتها ديدان ولفلفتها كالكفن بعيدا عن

وعيها . وجهه المنحشر بعنقها كان طاحونة . أما جسده فصار بلدوزر . فتحت فمها إلى أقصاه ، سوى أن الاختناق أخذ يهدد رئتيها وحلقها . أخذت تحشرج وتتصلب ، فاستطار شهوة وإقبالا . مدت يديها إلى الشرشف التحتي وغرفته ، لكي لا تمتدا إلى مهند وترمياه إلى الأرض . وأبهجه شعوره بأنها تخلت أخيرا عن عنادها واستجابت لنعمى مضاجعته ، فأولج قضيبه فيها .

تلك الثواني . لم تكن بوسع نورما أن تفعل شيئا سوى أن تكز بأسنانها على شفتها السفلى . وعندما أطلق مهند آهته وانزاح عنها ، كان الدم النازف من شفتها قد اختلط بلعابها .

في اللحظة التي تلت انزياحه عنها هوت عن السرير وانتفضت مهرولة نحو الحمام . أغلقت بابه وقفلته . وراحت الكلمات تنثال من فمها ملطخة بدم شفتيها ، قبل أن يبدأ ماء السحاح بالانثيال . كلمات تتشكل في فمها لأول مرة ، ولأول مرة تخرج بأصوات تشبه الدوي . ألا يحق لها أن تنفجر انفجاراً واحداً في حياتها ؟ " يا كلب ، يا حقير ، يا وحش ناهش في لحمي! يلعن أبوك . ألله يعدمك حياتك . إن شاء الله تتكرسح وتنشل . " كان السحاح قد بدأ يصدر أصواته هو الآخر ، ويطلق غيمة من بخار ، ستارة أكدت لها أن المدير العام والعقيد لن يرياها ولن يسمعاها . هذان اللذان تصرفا بها ، قتلاها . لكن العقيد! " ألله يلعن أباك ، يا كلب ويا ذئب! لعن الله سلالتك! الله يعميك ، ويميتك ويريحني منك! أنت يا مجرم ، ياسم الأفاعي! يلعن أبوك وأبو الذين خلفوك! "

كانت يداها تسرحان على جسدها كما تسرحان على جسد سامر ، تهدهدانه كما لو أنه طفل يبكي ؛ تمسحان حلمتيه ونهديه وسرته . .

والماء يسح ويسح ، ويدها تمسح ، ثم تفرك ما بين فخذيها بالصابون ، ولسانها يقتحم السحاب والمدار المغلق : " ألله لا يوفق الذين رموني لك! ألله ينتقم لي منك مثلما دست كالمدحلة على روحي! ألله يلعنك! سافل! كلب! منحط! واط! . . ." وفتحت السحاح على آخره . أسيأتي يوم يفوح فيه هذا الجسد برائحة النظافة ؟

لم تجد مهند في الجناح عندما خرجت . نظرت من الباب ، وهناك كان هو ، جالساً بالبيجامة على الكنبة ، بين التلفزيونه ومكسراته ."

بعد هزيع من الليل جاءها شيخ أحدب مبهم القسمات . كانت مضطجعة تحت صنوبرة باسقة . المكان هو " الرويسة " التي عبرت بين صنوبراتها يوم قادت سيارتها بفراس لأول مرة . لم يمارسا الحب ، الشيخ وهي ، رغم عريهما . وقد فصلهما عن طريق الإسفلت حاجز من صنابير المياه المتلاصقة ، المفتوحة على مداها ، والمرتفعة مترين أو أكثر . لعبا وتخاطبا حتى أوائل الفجر . وبعدها ضمها إليه مودعا ، فأيغفت .

* * *

في الصباح هتفت لفراس أنها قادمة . قال : " أنا لاما نع عندي أن نلتقي في مكان خارجي ، لنقول الكلمات الأخيرة . " كافتيريا الكارلتون ، وإطلالة على بحر مسقوف بالغيوم . لم ينتبه في البداية للمرأة القادمة نحوه بطيئة عاثرة الخطى . استغرب وجود امرأة محجبة في فندق سافر . كانت تمشي كأن في إحدى قدميها إصابة أو دملة . ثم رأى العينين فالشفتين ، إطاراً أسود يجلل كالنعوة وجهاً عتيقاً ، مألوفاً ومنسياً ، منخذلاً ومصمماً . ظل يتأمل السواد المقبل المزداد امتقاعا . وفقط عندما همت بوضع جزدانها على الطاولة ، انتفض واقفا بقوة العفوية ورمى على وجهها نقاباً من الاعتراف والفظاعة .

جلسا . شربا فنجان القهوة الأول صامتين . هي لا تعرف كيف تقول ، وهو مصر أن تبدأ هي فتقول . رأت نفسها مسلوبة وكسيحة ، مرمية في قاع مهجور . غير أنها لم تكن حزينة . لقد وقاها الحجاب الحزن واللوعة . ورأى نفسه في وضع هزلي ولكن غير مضحك : إن عليه أن يتعامل مع هذه المرأة المحجبة التي لم يرها من قبل باعتبارها نورما – التي أحبها وهام بها ونام معها . الشكل الذي جاءت به كان مضموناً آخر لها ، معاكساً ، ماحقاً ، مروعاً . فمع أي نورما سيتحاور الآن ؟

قالت : " البحر لونه أخضر!"

غمغم " " لأنه هائج ، وعكر . أعماقه خرجت إلى السطح ."

تمتمت بعياء : " وأنا خضراء كالبحار . هذا ما عنيته في إهدائك ؟"

غمغم : " لا أعرف ماذا عنيت يومها . البحر الأخضر جميل دائماً . يومها واليوم ."

" ماذا كان لازماً أن أعمل ."

" أن تعطي حبنا حقه من الحياة . حبنا بحاجة إلى أمكنة . تتذكرين أسبوعنا الرمضاني ؟ نحن بحاجة إلى مقهى ، كورنيش ، مسرح ، حديقة . بحاجة إلى بيت . بحاجة إلى أوقات الصباح ، والقيلولة ، والغروب ، والليل . لكن أنت جعلت المدينة كلها ضدنا . وجعلت الروزنامة كلها ضدنا . نحن حبيب وحبيبة لسنا عشيقاً وعشيقة . "

" أنا أموت إذا كنت ستهاجر إلى باريس . لو معي سكين ، أعطيها لك ، وأقول لك : اقتلني ولا تهاجر ."

صمت فأضافت :" خلك في البلد . جوتيم ، فراس ، أرجوك . "

نظر إليها بابتسامة سادرة وحزن أخضر : رغم أنها الآن في لحظة ما بعد اليأس ، ما بعد النهاية ، فهي لا تزال على بعد فلك كامل من أن ترى نفسها مخطئة ، أو مسيئة ، ناهيك بمندحرة : إنسانياً وأخلاقياً . ما تزال ترى أن نصف زنا ونصف حب ونصف أمومة هي البقاء الممكن الوحيد في هذه المدينة التي دمرت أنسجتها .

" تطلبين مني أن أقبل حلولاً وسطاً ؟ حب ، وحجاب ؟ عجيب كيف لا تنفجرين من هذه التناقضات . أنت فعلا تحطمين عقلي . على كل حال ، ما عاد بيننا مجال للمناقشة . المسألة إما تكون حياة على قد الحب أو لا يكون الحب . "

لم يعد دماغها قابلا للسمع أو للتفكير ، ولا جسدها قادرا على الجلوس ، أو عيناها تستطيعان حبس الدموع . رشفت شيئا من قهوة فنجانها الثاني وانتصبت . كانت الكافتيريا شبه خاوية . مشت معقودة الذراعين إلى طرفها الآخر ، وأسندت جبينها على الزجاج . كان البحر الأخضر يشرئب بشراسة نحو السحب المتداغلة السارحة ، ونحو المطر الذي بدأ ينهمر عليه . لم تجد سلوانا في أي مما ترى .

خرجت لا تعرف إلى أين . تمشت أمام دكاكين الفندق . هل تشتري له حمالة مفاتيح ؟ أم ماكينة حلاقة ؟ سيتذكرها هكذا كل يوم . هل سيقبل منها هدية ؟ لقد رمى لها بكل هداياه . هل تشتري له قلماً ؟

فجأة وجدت نفسها جالسة أمامه . وسمعت صوتها يتحدث عن الآلام المثلجة التي تتبركن في جسمها كلما اقترب هو أو مهند منها . " أنا عذابي جسمي ، فراس . ما عدت أتحمل . الحجاب أنقذ روحي . فصل جسمي عنها وأراحها . وأنا سأحج هذا العام . لا تطلب مني أن أترك هذا السلام . بودي

بس أن تبقى في البلد . أحب الهدير ، وأحب العاصفة فيك ، التي تحر أعماقي . لكن ، أنت شايف . أربع سنين وأنت تعصف كما تعصف الزوابع ببيت آيل للسقوط ، والبيت لم يسقط . "

" أنت عذابك عقلك لا جسمك . . عقلك لا يرى لك أي حق طبيعي في هذه الحياة . أنت إنسانة تخلت نهائياً عن حقوق الإنسان . حتى الطلعة العادية من البيت ، لا تعتبرينها حقاً لك مادام مهند فيه . أنت الآن وبلغة رائعة ، قلت الحقيقة . أربع سنين لم تغير من الوشم شيئا . . وأنا محتاج إليك احتياجي للحياة نفسها . لأن أراك وأسمعك وألمسك . ونسمع موسيقا سوية . نشاهد مسرحية . نسافر معا ، نفكر معا ، نبدع معا . . أنا ما عدت أتحمل شيئاً أقل ."

من عادته أنه كلما أوصلها إلى تخم القطيعة ، وشج نياط قلبها ، تمحل ووجد مخرجا أو فجوة للعودة . هذه المرة سد كل المنافذ . ظل ممتنعا . قال إن هذا اللقاء هو الأخير . وهو يرجو أن تنقطع الهواتف أيضا . وإذا لم تنقطع فلا تلم نورما إلا نفسها .

بكت غيظا وقهرا من فظاعاته : " مون ديو! أنا أختنق . تتركني لمهند وترحل ؟ تتركني للعدم ؟ هكذا تحبني ؟ "

" نورما اسمعيني . الحب الذي بيننا صار جروحاً بجروح . الغيم الذي كان ينزل المطر علينا ، صار لونه أحمر . خلص . لا مفر . نحن سنبقى ننزف وننزف حتى نغطي الأرض دما . خلينا نفترق وننجو بذكرياتنا ، قبلما تصير شقاء وندما . إما أن تتسع حياتك لحبنا ، وإما نهلك ، وإما نفترق . أنا أحبك . أحبك حتى الموت والبعث والنشور . لكن ما دمت مع مهند ، تعيشين معه ، فأنا راحل ."

" نلتقي ساعتين ، ثلاث ساعات في الأسبوع ، أحسن من أن نفترق ولا نلتقي أبداً وتخلو حياتي منك . . وحياتك مني . أنت ذات يوم . . ذات يوم أعطيتني عمراً جديداً . الآن تأخذه مني وتروح ."

" وأنت ذات يوم كنت حبيبتي . بكل كيانك ووجدانك . الآن تديرين ظهرك لنا ، لتكوني عبدة وأكون أنا ضائعاً ومجنوناً . "

" أنت تعرف . أنا لا أقدر أني أكون حرة . تريد أن تقتلني لعجزي ؟ صدقني وضعنا هكذا أحسن . لو تزوجنا كان الزواج قتل حبنا . المطبخ والحمام وغرفة النوم ، تقتل الحب . ثلاث ساعات في الأسبوع تسوى ألف ساعة . تسوى العمر . لا أحد يعيش سعيداً أكثر من ثلاث ساعات في الأسبوع! نحس فيها بالحياة ، بجمالها وفرحها . ونكون في أسمى وأصفى حالاتنا ، في حالة غير كل الحالات ."

" يعني ضروري إذا تزوجنا أن نعيش مثل غيرنا من المتزوجين ؟ أنت نسيت أي نورما صرت لمّا أحببتني . نورما السعيدة ، الحرة ، الحية . نورما المبدعة ، الدارسة ، الناقدة المستمعة للموسيقا ، المشتغلة على الدكتوراه . أنت طلعت بنظرية جديدة في تفسير الفن . نسيت ؟ يا أخي اخلصي من مهند! بس اخلصي منه! لا تتزوجيني . ماذا يعطيك مهند ؟ سلب أربع عشرة سنة من عمرك . وسلب شخصيتك ، ورحمك . صيرك عاقراً . سلبك مواهبك ، وكرامتك . والآن يسلبك حبك . اتركيه! وعيشي بقية عمرك مع نفسك ، مع كرامتك ، ومع سامر! "

لم تستطع بعدها جلوسا . رمت منديل الورق على الطاولة وانتفضت . مشت بخط مستقيم ، وبعد ثوان أوشكت أن ترتطم بجدار الكافتيريا الملون بالغيوم . أحست أن فراس قد صار وراءها . التفتت إليه . ضرعت : « ضمني

فراس . ضمني إليك .» لم يفعل . ضرعت : «ضمني ، ضمني! أدخل يدك داخل الجلباب ، والمس لحمي . لا يوجد غير بلوزة رقيقة . مد يدك . لامس لحمي . بسرعة . أنا زانية ، وسأبقى طول حياتي زانية .»

أحست به يبتعد عائداً إلى الطاولة . «أنت بلا كرامة» ، قال . استدارت . مشت . ثم استدارت فوجدت باب الخروج .

لم يعط من قبل أية إشارة إلى أنه سيرشق بوجهها هذا الكلام الزعاف . يذكرها بكل ما حاولت أن تطمسه . قال : أنت بلا كرامة! هكذا بأفجع بساطة .

ربطت حزام السيارة حول خصرها ، وخطر لها أنها ربما تكون غبية . ياله ورماً في الدماغ أن ينتهي فعلا ، يتلاشى ، الحب الكبير الذي عاشاه ، وتلك الحالات الخرافية من الصعود في الأبراج ، والوقوف في المحراب ، والصلاة لجمال العالم . لماذا لا يقبل أن يستمرا صديقين ، فيكون لهما نقاء الروح ولغيرهما عكر الجسد ؟ لماذا يطلب منها أن تتصرف كبطلات القصص وهي ليست بطلة قصة ؟

آه! لماذا لا يأتيها الموت مثلما أتى لإيمابوفاري وآناكارنين ؟

جاء مهند بلا إبطاء . وجاءت طقوس الغداء وسامر . وجاءت الست لطيفة لشرب الشاي . وجاءت الهواتف ، واللوازم ، والنكشات الصغيرة ، والنكشات الكبيرة ، و " فرشي أسنانك . " وجاء التعب ، وارتخاء الدماغ ، ووحشة العينين . جاء الغياب .

* * *

أعلن حزيران عن قدومه ذلك العام برطوبة كثيفة . وبالطريقة نفسها

أعلنت الصحف عن رحيل فراس نصار . " الحياة تبدأ بعد الخمسين ، " كان عنوان ما كتبته يومية (الصباح) . " موهبة أخرى تحتج على عصر ملوك الطوائف ، " في أسبوعية (الأكسبريس) . أما (مواسم) فقد أعطت عنوانا حامضا : " قدموس الرسم والنحت يهرب من مدينة الظلام إلى مدينة النور ، " ثم بشرت قراءها بأن كاريكاتيره الاستفزازي سيصلهم فيها كالمعتاد .

صحيفة واحدة فقط أطلقت دهشة ربداء من " فنان يدير ظهره إلى بلده وهو في الخامسة والخمسين! وراء ماذا ؟ إلى متى ؟ " ذلك كان عنوان العمود المتطاول الذي خصصته (الرأي العام)" لفنان كان صادقاً أكثر مما كان مبدعاً ، ولم يستطع أن يتقن شيئا من زعبرات بيكاسو وضحكه على ذقوننا ، فأحبط صدقه إبداعه ."

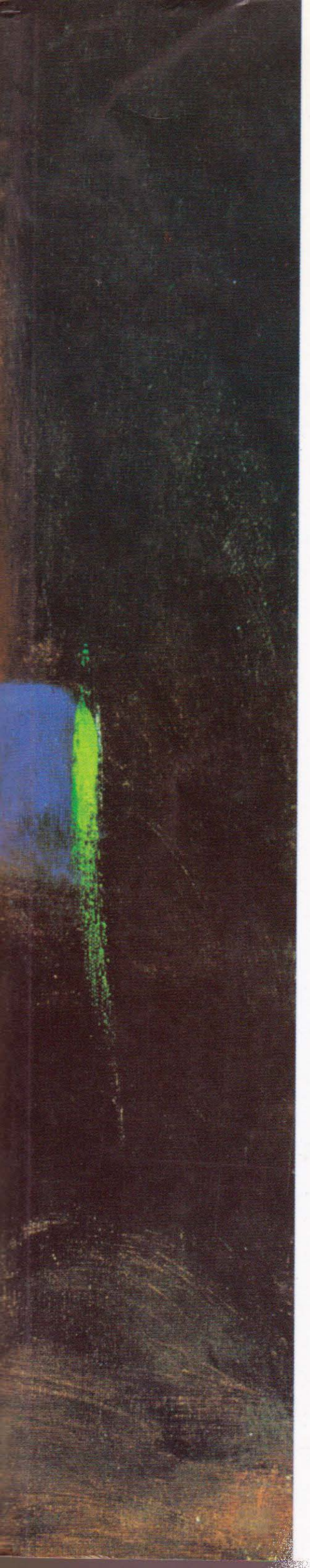

لوحة الغلاف : جبر علوان

خضراء كالبحار

لم يفتها أن تغنج وتقرأ له ما كتبته بالفرنسية عن لوحة يوم الحب : "هل الحب غياب للوعي أم وعي آخر ؟ وعي يجسد نفسه وحسب ؟ لماذا عريتني من الملابس وألبستني الرياح والموج والمطر ؟ شطرت فخذي عن الخاصرة ، وصنعت من السرة ينبوعا ومن حلمتي شراعين ، وجعلت أضلاعي مراوح . كتّلت فوق بطني زوبعتين ونصبتهما ، لهما شكل إشارة استفهام . لماذا أرسلت جدولين من عطر الزنبق ليسيلا بين ثلاثة جداول من الدم فوق فخذّي وبينهما ؟ هل هذه دم أم نبيذ ، هذه الجداول التي تفيض من ركبتي ؟"

ISBN => 2-84305-229-7
EAN => 9782843052293